سلسلة تاريخ العرب والإسلام

عمر بن عبد العزيز

خامس الخلفاء الراشدين

د. صالح أحمد العلي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

عمر بن عبد العزيز
خامس الخلفاء الراشدين

الدكتور صالح أحمد العلي

عمر بن عبد العزيز
خامس الخلفاء الراشدين

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢(٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الثانية ٢٠٠٢

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخـراج الفنـي: زاهية عاصي

تقديم

لعمر بن عبد العزيز شهرة ومكانة عند عامة المسلمين وباحثيهم لا تدانيها غير ما لهارون الرشيد من الخلفاء والحكام الذين مارسوا الحكم والسلطان؛ ومرجع ذلك الأعمال المثيرة والتوجيهات التي عمل على تثبيتها في الدولة الإسلامية الواسعة التي قامت على المبادئ التي وضعها الرسول ﷺ وعمل الخلفاء الأولون على تطبيقها في تنظيم الدولة وتوجُّهات الأمة، ولكنها تعرضت بمر الايام لتطورات داخلية أهملت كثيراً من المبادئ التي قامت عليها، وعرَّضتها لكثير من الانحرافات والاضطرابات التي لم تستجب لمشاعر كثير من الأفراد المخلصين لها والمقدِّرين لسلامتها؛ ففقدت ثقة الكثير بكيانها، وأفسحت المجال لظهور أفكار عامة بين الجماهير بضرورة العمل على إصلاحها، دون أن تكون لهم مُثُل موحدة لما يجب عمله، أو لكيفية حكم الدولة وإدارتها من خلفاء وولاة قاموا بمعالجة عدد من القضايا المهدِّدة لوحدة الدولة وكيانها من أجل ديمومتها. إلا أن كثيراً من هذه المعالجات لم تكن جذرية وشاملة، فبقيت كثير من الأمور العامة تتزايد في عددها وقوتها، وتستفحل لتفكيك الكيان الذي يدرك الجميع أهمية ديمومته خالياً من العناصر المهددة لانهياره، وبالأخص عند العامة والجماهير الذين لم تكن لهم القوة على تنفيذ الإصلاحات التي يرونها لازمة لتأمين ديمومة الكيان بإخلائه من الانحرافات. وشجعتهم رغباتهم في الإصلاح وتجردهم من الأدوات على تقبل أفكار عن «المخلِّص» الذي سيظهر «ليملأ الارض عدلاً بعد ان ملئت جوراً». وقوَّى نشرَ هذه الأفكار فَشَلُ عدد من الثوار بالتغيير «بقوة السلاح»؛ كما أن

محاولات الأفراد المخلصين كانت أضعف من أن توقف هذا الانحدار الخطر الذي يسنده عدد محدود من المنتفعين، وأن يقوم أصحاب السلطان والحكم بما يحقق طموحاتهم السليمة المتفرقة.

عاصر عمر بن عبد العزيز هذه الأحوال التي غمره كثير منها في صباه وباكورة عمره؛ وأتاحت له الأعمال الإدارية التي أسندت إليه، وولايته المدينة وهو في سن الشباب، أن يلمسها، ويدرك مشاعر الشباب وحياتهم وطموحاتهم؛ ولكنه كان وراء ذلك يدرك العيوب المهدِّدة في النظام العام، ويحس بأخطارها، والحاجة إلى معالجتها؛ ومع أنه لم يكن متفرداً في ذلك، فكان الخليفة سليمان بن عبد الملك يدرك عدداً منها، وعمل على معالجة بعضها.

ولما وُلِّي عمر بن العزيز كرَّس كل جهوده لمعالجة الأحوال، وإعادة توجيه الدولة نحو ما رآه يؤمِّن دوامها وسلامتها خالية من العيوب الخطرة؛ وان كثرة الرسائل ولا بد أنّ ما وصلنا مما نقله المؤرخون والرواة هو بعض، وليس كل ما أصدره؛ غير ان مقداره الكبير وتنوع القضايا التي عالجها تظهر مدى الجهد الكبير والوقت الكبير الذي كرسه للشؤون العامة خلال مدة خلافته التي لم تدم إلا سنتين وأشهراً.

نظمت المادة التي جمعتها تبعاً للجوانب الرئيسة التي أرى اهتمامه بها؛ وشملت هذه الجوانب مقدمات عن المصادر وعن الخطوط العامة للأحوال التي سبقت تَوَلِّيه الخلافة؛ ثم بحثت أمر التوسع، والاهتمام بنشر الإسلام ومعالجة القضايا العامة الداخلية، وبخاصة المتصلة بالشؤون المالية والاجتماعية، ثم ختمتها بجهوده في توحيد السنن والقوانين وتنسيقها مع مراعاة ما كان قائماً في الامصار دون الاقتصار على فرض وجهة نظر مِصْرٍ واحدٍ دون غيره من الأمصار؛ ثم تدوين ذلك وتعميمه كخطوة لتوحيد المرجعية؛ وأفَضْتُ في الأحوال التي سَبَقَت كل جانب اهتم به مما ييسر تقديراً أسلم لقراراته وتوجّهاته؛ وتقيدت بما قدمته المعلومات التي تيسرت لي دون تجاوزها أو

إصدار آراء وأحكام في مدحها أو قدحها، أو مدى استمراريتها بعده. وعسى أن تكون المعلومات التي ضمها الكتاب ذات فائدة لمحبي المعرفة، وأساساً لمن يَنْشُد الاستزادة في بحث هذه المواضيع، ولا أدّعي الكمال، فالكمال لله وحده، والله من وراء القصد.

صالح احمد العلي

الفصل الأول

ملاحظات عامة

يَشْغَل عُمَر بن عبد العزيز مكانة متميزة عن بقية الخلفاء الأمويين، تتجلى في عدد الكتب التي أُفردت لترجمته والصفحات الكثيرة التي خصته بها كتب التراجم والأخبار والآداب. كما تتجلى في عبارات الإطراء والمديح الصادرة عن عدد من العلماء والخلفاء العباسيين. ومن مظاهر تقديرهم له أنهم عندما وُلُّوا الخلافة نبشوا قبور الخلفاء الأمويين وأحرقوا بقايا عظامهم، ولكنهم لم يمسوا قبر عمر بن عبد العزيز بسوء، فظل قائماً يغشاه الكثير من الناس من الحاضرة والبادية، ولم يتعرض لنبشه فيما سلف من الزمان كما تعرَّضت قبور غيره من بني امية[١].

نقلت المصادر في إطراء عمر بن عبد العزيز أقوالاً يرجع بعضها إلى معاصريه، وبعضها إلى المتأخر من أوساط منوعة، فَعَدَّهُ بعض معاصريه، المهديَّ المصلح والمجدد على رأس القرن. واستبشر بتوليه الخلافة عدد من معاصريه، فقال القاسم بن محمد عند تَوَلِّيه «قال أهل البدع اليوم تنطق العذراء في خدرها»[٢]. وعده سفيان الثوري خامس الخلفاء بعد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي[٣].

(١) مروج الذهب ٣/ ١٨٠.
(٢) البستي: مشاهير علماء الامصار ٦٢.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ١٣٠.

وقال مجاهد: مضى خمسة وبقي اثنان ولم يسمِّهم[1]. غير أن الآجري الذي روى الخبر ألحقه بقول مؤداه أن الخمسة هم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز. وقال خالد بن عبد الله لعمر: من كانت الخلافة زانته، فإنك قد زِنْتَها[2]، وقال أبو بكر محمد بن عمرو أن عمر كانت أعماله «رَدَّ مَظْلِمة، أو إحياء سُنَّة، أو إطفاءِ بدعة»[3].

وذكر النسوي أن عمر بن عبد العزيز كان «كما علمت في إحياء السنن وقطع البدع، والحد من اقامة الدين في الرأي والعلم بما مضى من أمر الناس»[4].

وامتدحه أبو جعفر المنصور وكان يقول: «نِعْمَ الرجل كان عمر بن عبد العزيز»[5]. وأطرى رجل سيرته للرشيد فقال: «أنسيت والله يا أمير المؤمنين سيرة العمرين»[6].

وتمنى المهتدي «أن يكون مثل عمر بن عبد العزيز من خلفاء بني امية»[7].

ولم يرد في الأخبار تهجم الخوارج والشيعة عليه، ويبدو أن الشيعة كانت تقدر مكانته، وعبّر عن ذلك الشريف الرضي بشعره:

يا ابنَ عبد العزيز لو بكَتِ العين فتًى من أميةٍ لبكيتُكْ
انت انقذتنا من السَّبِّ والشتـ ـم فلو أمكنَ الجَزا جَزَيتُكْ
ديرَ سِمعانَ لا عَدَتْكَ العوادي خَيْرُ ميْتٍ من آلِ مروانَ مَيتُكْ[8]

أتمّ عمر بن عبد العزيز خلال خلافته التي لم تتجاوز السنتين والثلاثة أشهر

(1) الآجري: اخبار أبي حفص ٦٦.
(2) ابن قتيبة: عيون الاخبار ١/ ٩٤.
(3) ابن سعد ٥/ ٢٥٢.
(4) النسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ٥٧٥.
(5) الابجد: نثر الدر ٤/ ٨٧، ٨٨.
(6) الطبري ٣/ ٧٥٣.
(7) اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم ٣٤.
(8) معجم البلدان ٢/ ٦٣١.

أعمالاً وقرارات تفوق ما أتمه أيّ خليفة بعد عمر بن الخطاب، وكرَّس لاداء ذلك وقته وجهده، وعبّرت عن ذلك زوجته فاطمة بنت عبد الملك إذ قالت: «كان قد فرغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج الناس في يومه، دعا بسراجه الذي كان يُسْرَج له من ماله». وذكرت وصفه لها معاناته حين قال «إني نظرت وقد وجدتني وُلِّيتُ أمر هذه الأمة أحمرِها وأسْوَدِها، ثم ذكرتُ الفقير الجائع والغريب الضائع والأسير المقهور، وإذا المال القليل والقبائل الكثيرة، وأشياء من ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله عز وجل سائلي عنهم»[1].

إن المعلومات الواسعة المتفرقة التي وصلتنا أخبارها تؤيد تكريسه معظم وقته لشؤون الدولة، ومتطلباتها، ومعالجته قضايا كثيرة في جوانب كثيرة من الحياة العامة، بما فيها السياسية والادارية والمالية والتنظيمية. وكثير مما يتعلق بحالات شخصية، أو مشاكل فردية، ويمكن أن نلحظ منها خطوطاً عامة متناسقة منسجمة مع تيار عام واسع قليل التناقض. وأبرز هذه السمات العامة:

١. عنايته الخاصة بالمبادئ الأخلاقية القويمة المنسجمة مع ما يدعو إليه الإسلام، وحرصه على توثيق الصلة برجال عرفوا بتقديرهم لهذه التوجيهات.

٢. ترحيبه بسماع الملاحظات والتعليقات التي يبلغُ بعضها حدَّ التحدي في النقد، دون أن يكون لحجابه أثر في تقييد أو توجيه المتحدثين، كالذي يحدث في عهود معظم الخلفاء الآخرين، ولا سيّما الوليد بن عبد الملك.

٣. الحرص على تجنب مظاهر الفخفخة والترف في حياته، بما في ذلك المواكب الرسمية، أو الحياة المعاشية الخاصة في الملبس والمأكل، وبشكل يناقض ما روي عن اهتمامه بها في الأزمنة السابقة لتوليه الخلافة.

٤. تعزيز الاتصال المباشر بالأقاليم، لا سيّما الحجاز والعراق والجزيرة

---

(١) نثر الدر للآبي ٤/٢٤٥، وانظر معلومات اوفى في «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم، وبخاصة ٣٩ ـ ٢٤.

الفُراتية، دون الاقتصار على من في مقر إقامة الخليفة، أو على الوفود التي ينتقى أعضاءها الولاة ممن يُرْضونهم، وتحديد سلطات الولاة بالكتب والتوجيهات التي تَحُدُّ مما تمتع بها بعضهم من سلطات واسعة توازي أحياناً سلطات الخليفة. أما عمر بن عبد العزيز فقد وسَّع اتصالاته المباشرة بالأقاليم لتشمل ميادين واسعة تجعل الولاة أكثر خضوعا للسلطان المباشر للخليفة، وبذلك كانوا منفذين ذوي سلطات محدودة.

٥. حرصه على إنماء الحياة الحضرية القائمة على مبادئ الأخلاق الإسلامية القويمة، دون تركيز الجهود على الفتوح في الميادين النائية التي تهدف إلى إظهار السلطان وجلب المغانم أكثر من اهتمامها بتعزيز الأسس التي تقوم عليها حياة الانسان وعلاقاته بالمجتمع.

٦. إهتمامه الخاص بمعالجة معاناة العامة من المنهكين دون المترفين، وذلك لتحقيق الأمن والرفاه والسعادة للعموم، دون قصر العناية على «الأقلية» من ذوي النفوذ بمن فيهم أكثر أبناء الأسرة الأموية الحاكمة.

٧. اهتمامه بنشر الإسلام مع ما يرافق ذلك من تثبيت المبادئ الأخلاقية والتوجهات الفكرية التي يدعو إليها، والتي كان لها الفضل الأكبر في تطور عرب الجزيرة وقيامهم بالدور الكبير الذي حققوه، وتعميم هذه المبادئ والتوجهات على عموم الناس دون حصرها بفئة عرقية أو اجتماعية محدودة.

نقرن بعض المصادر عمر بن عبد العزيز بعمر بن الخطاب، وتذكر «سنّة العمرين». ومن مظاهر الشبه بين أعمالهما: كثرة الأحكام التي أصدرها كل منهما. غير أن التطابق بين أحكامهما غير تام فقد كانت أحكام عمر بن الخطاب أساسية بحكم زمنه المتقدم. اما أحكام عمر بن عبد العزيز فأكثرها تعديل الأحكام وإعادة توجيهها، ولم يواجه عمر بن الخطاب، في وضعه الأحكام، ما واجهه عمر بن عبد العزيز، لأن ابن الخطاب وضع تنظيمات لأقاليم فتحت حديثاً، وبمقدور الخليفة أن يضع «بحقّ الفتح» مايراه من التنظيمات. أما عمر بن عبد العزيز فكان عليه معالجة ممارسات مستجدة بأسس

مقبولة، فهو مقيد بالأسس التي عليه إبقاؤها، وإعادة توجيه فرعياتها على أسس العدالة، فحريته في العمل أضيق من حرية عمر بن الخطاب، وقد أقر بذلك في قوله أنه «مُتَّبِع وليس بمبتدع»(١).

وتميز عمر بن الخطاب بأنه كان محاطاً برجال تشبَّعوا بتوجيهات الرسول (ص): فأفكارهم متشابهة، وإدراكاتهم للعدالة متقاربة، ومصالحهم الشخصية غير واسعة. أما عمر بن عبد العزيز، فكان يواجه في خلافته رجالاً ذوي نفوذ وقوة لكثير منهم مصالح خاصة تمسُّها التعديلات والأحكام التي أراد إصدارها، فكان يواجه، من «الدوائر العليا»، معارضة لم يواجهها عمر بن الخطاب، وقد كان هذا مبعث كثير من المصاعب التي واجهها.

عالج عمر بن الخطاب توسيع الدولة وما تتطلبه من إعداد لانتصار عسكري على أعداء من غير المسلمين، ثم تنظيم إدارة الدولة. أما عمر بن عبد العزيز، فلم يواجه مشاكل التوسع، لا سيّما أنه أوقف التوسع البعيد، وإنما واجه مشكلة التنظيم الإداري والمالي، وكانت أحكامه قائمة على قراراته، وليس على إقرار مقترحات أو قرارات الولاة، وموقفه في هذا يشبه موقف عمر بن الخطاب، وكان ولاته متلقين لأوامره ومنفذين لأحكامه، تنقصهم في المقترحات والتنفيذ، المبادرات التي كانت عند زياد والحجاج اللذين كان لأحكامهما الفضل في تثبيت مكانة معاوية وعبد الملك. أما عمر بن عبد العزيز فإن الفضل في مكانته يرجع إلى أعماله، وليس إلى وُلاته المنفّذين. إن ولاته لم يُظهروا سَعَةَ أفق في التوجيه أو مسؤولية متميزة في التنفيذ.

واجه عمر بن الخطاب مهمة خطيرة هي تحقيق التوسُّع العسكري ودحر قوات معادية للإسلام، وهي مهمة لم يواجهها عمر بن عبد العزيز الذي توقف عن التوسع في زمنه، وإنما واجه فِتَناً داخلية من ثورة شوذب الخارجي، ويزيد بن المهلب. غير أن الأحوال تطلبت منه مزيداً من الجهود في معالجة

---

(١) ابن سعد ٥/ ٢٧١، مروج الذهب ٣/ ١٨٣.

التوجيه الفكري الذي كان يعاني من بلبلة وتناقضات خطرة.

لم يواجه عمر بن الخطاب مشاكل خطيرة في قاعدته بالمدينة، أما عمر بن عبد العزيز فإنه واجه في رَدِّه المظالم، مشاكل خطيرة شغلته عن معالجة القضايا الأخرى في الشام. ولعل هذا بعض أسباب قلة الأخبار عن معالجاته في بلاد الشام التي يبدو أن الادارة كانت مستقرة فيها، لا يفسدها إلا استغلال المتنفذين من رجال الأسرة الأموية، ولا ريب في أن معالجته مشاكل العراق والحجاز يَسَّرها ضعف المعارضة للخلافة وأن أكثر أحكامه تتعلق بالعمل في الارض ممن يميز العرب المتنفذين في العراق.

تظهر الأخبار التي وصلتنا عن مدى سعة اهتمام عمر بن عبد العزيز في شؤون الدولة، فاهتمامه لم يقتصر على دمشق والشام، وإنما امتد إلى الأقاليم الأخرى بما في ذلك المدينة والكوفة والبصرة وخراسان والمغرب، وشمل قضايا عامة في الإدارة والمالية، ومعالجة عدد من حالات شخصية، وهي في سعتها تشبه أعمال عمر بن الخطاب، ولا ريب في أن الدولة الأموية أفادت من ولاتها وبخاصة زياد والحجاج اللذين عُرف كل منهما بسعة أعماله التنظيمية، غير أن أعمال كل منهما كانت مقصورة على منطقة ولايته التي، وإن كانت كبيرة تشمل المشرق، إلا أنها لم تشمل كل أقاليم الدولة مما واجهه عمر بن عبد العزيز.

وُلِّي عمر بن عبد العزيز الخلافة وقد استقر في الدولة نظام ترجع أُسُسه إلى زمن الرسول (ص) وعمر بن الخطاب، وكان عند تأسيسه مقبولاً عند الناس، غير أنه، بمرور الأيام، حدثت تطورات تطلب إعادة النظر في فرعياته، كما أن الروح التي تهيمن على تطبيقه لم تبق ثابتة وإنما تعرضت لتدخلات يُؤَمِّن كثير منها المصالح الشخصية، لا سيّما في الجوانب المالية، وكان لا بد من معالجة هذه المستجدات بما يؤمِّن سير الأمور بالاتجاهات المنسجمة مع المُثُل الإسلامية العليا وحِسِّ الناس بالعدالة. وقد حَرِص عمر بن عبد العزيز على توجيه إدارة الدولة بما رآه ينسجم مع المثل العليا وحس الناس بالعدالة. إنه لم

يُلْغِ التنظيمات السابقة، وانما عمل على تصفيتها من الشوائب المستجدة الخطرة، وأبقى عدداً من المستجدات التي رأى ضرورة بقائها، فهو، في هذا «متبع وليس بمبتدع». إنه يؤمن بأن النظم السابقة أساسية على أن يجري عليها التعديلات ويريد احياء «سنة عمر» في تطبيق بعض الممارسات وفي الروح التي سادت، فهو إصلاحي وليس ثورياً، وهو محافظ فطن، وليس برجعي ضيق. وقد عبر عن ذلك بقوله «سنّ رسول الله (ص) وولاة الأمر من بعده سنناً، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله... ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمرٍ خالَفَها»، وقال: «لست بقاضٍ، وانما منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع»[1]. وكان يتخذ من سيرة عمر بن الخطاب قدوة، علماً بأن تطور الأحوال يجعل متابعتها حرفياً غير يسيرة. ويروى أنه كتب إلى سالم بن عمر «اكتب لي بسيرة عمر بن الخطاب في أهل القبلة فأني سائر بسيرته إن أعانني الله على ذلك» غير أن سالماً اعترض على ذلك وكتب له «إنك لست في زمان عمر، ولا في مثل رجال عمر»[2].

ثغرات ومآخذ

غير أن قِصَرَ مدة خلافته، وكثرة المشاكل التي كانت تعترضها، وطبيعة الناس، كونت بعض الثغرات في إصلاحاته، ويروى أنه قال «إني لأجمع أن أخرج للمسلمين أمراً من العدل، فأخاف أن لا تحتمله قلوبهم وأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فإن نفرت قلوبهم من هذا سكنت إلى هذا»[3].

وأشار حمزة الخارجي في خطبة له بالمدينة إلى أنَّ عمر همَّ ولم يفعل وقَصَّر عما همّ به[4].

---

(١) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ٣٥ (وسنرمز إليه ابن عبد الحكم)
(٢) ابن عبد الحكم ١٢٥.
(٣) عيون الاخبار: ٩/١.
(٤) تاريخ الموصل للازدي: ١٠٤.

ويروى أن المأمون قال: «لَأَنْ أقتدي بسيرة أَنُوشروان أَحَبُّ إليّ من أن أقتدي بسيرة عمر بن عبد العزيز، لأن أنوشروان كان عنده أن الحق له، وكان عند عمر أن الحق ليس له وأقام عليه»[1].

ومما يؤخذ عليه متابعته تمييز بني أُمية في العطاء، فكان يفرض للسقط من بني أمية وهو في خرقة من شرف العطاء، ما يفرض للشيخ من بني هاشم في سنين. «ويُروى أن محمد النفس الزكية لما ولد صار أبوه إلى عمر بن عبد العزيز فعرفه ذلك، فأثبته في شرف العطاء».

إن التعديلات والاصلاحات التي عمل عمر بن عبد العزيز على إدخالها كانت ذات فائدة في تعزيز مكانة الخلافة وفي الحد من المشاكل التي تعرقل مسيرتها في توطيد الحكم، وكانت تزيد من رضى العامة واستقرارهم، غير أنها كانت تهدد مصالح أعداد غير قليلة من أفراد وجماعات لبعضهم قوة ونفوذ كبير، وخاصة من أبناء الأسرة الأموية. ولا بد أن هؤلاء استاؤوا من أعماله وانتقدوها، وربما عملوا على تقويضها، وروت المصادر بعض مواقفهم وحججهم ولكن قِصَر مدة خلافته لم يُهيِّئ الفرص لتنفيذ ما ربما اعترضوا على عمله.

(١) نثر الدر للآبي: ١/١١٩.

الفصل الثاني

مصادر دراسة عمر بن عبد العزيز

المؤلفات القديمة

لم يذكر ابن النديم كتاباً مفرداً أُلف في عمر بن عبد العزيز وسيرته، علماً بأنه ذكر أسماء كتب أُلفت في عدد من الخلفاء بمن فيهم الأمويون، وفي عدد كبير من الرجال في ميادين الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية مختلف.

وذكر السخاوي: «أفرد سيرة عمر بن عبد العزيز غير واحد»[١]، إلا أنه لم يسمِّ أياً من هؤلاء أو عناوين كتبهم.

وذكر ابن خير الاشبيلي كتاباً ألفه احمد بن ابراهيم الدورقي في خمسة أجزاء[٢]؛ والدورقي محدِّث قديم (١٦٨ ـ ٢٤٦) نقل عنه البلاذري في ١٢٥ موضعاً من كتابه «أنساب الأشراف»[٣]، ونقل عنه الطبري في موضعين، ولم يذكر له فؤاد سزكين كتاباً عن سيرة عمر بن عبد العزيز[٤].

وفي برلين مخطوطة كتاب عن «عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الرؤوف المنامة لم أطلع عليها ولم يشر أحد إلى محتواها.

---

(١) الإعلان بالتوبيخ / منشور في كتاب «علم التاريخ عند المسلمين»: ٥٤٨.
(٢) فهرست ابن خير الاشبيلي: ٢٧٣.
(٣) موارد البلاذري: لمحمد المشهداني: ٢/ ٥٤٠ ـ ٥٩٠.
(٤) تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين: ١/ ٢١٤.

وصلتنا ثلاثة كتب عن سيرة عمر بن عبد العزيز أقدمها «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم (ت٢١٤) أورد فيها معلومات عن نشأته الاولى، وولايته المدينة، وتولّيه الخلافة، وعن حياته الخاصة وتقواه، وبعض عاداته، وكثير من أعماله الادارية، وأوامره، وعلاقته برجال أسرته، ونشر الكتاب أحمد عبيد سنة ١٣٤٥هـ ثم اعيد طبعه عدة مرات، ويبلغ عدد صفحاته قرابة ١٣٠ صفحة.

ووصلنا كتاب أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز، الفه محمد بن الحسين الآجري (ت٣٦٠) ونشره الدكتور عبد الله عسيلان سنة ١٩٨٠، وهو يبلغ أربعين صفحة فيها ثلاثون خبراً عن مكانة عمر بن عبد العزيز، وجوانب من حياته الخاصة، وبعض مواعظه وخطبه وعدله، بعضها مما ذكره ابن عبد الحكم، وبعضها تفرد فيها.

ووصلنا كتاب «سيرة عمر بن عبد العزيز»، لعبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧) استوعب فيه معظم ما جاء في الكتب الأولى، فكان أوسع كتاب تراثي وَصَلَنا عنه، وطَبَع الكتاب محب الدين الخطيب سنة ١٣١١هـ، ثم أُعيد طبعه عدة مرات.

كتب الفقه والأدب

نقلت كتب الفقه الأولى المعنية بالأمور المالية، وأبرزها «الخراج» لأبي يوسف (ت١٨٢)، و«الخراج» ليحى بن آدم (ت٢٠٣)، و«الأموال» لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤)، معلومات تفوق ما نقلته عن أي خليفة اموي أو عباسي عن أحكام عمر بن عبد العزيز في تنظيم شؤون الخراج والمالية وأحكام الاراضي، ومعاملة أهل الارض وعمالها، وعن تعديلاته في نظام العطاء فضلاً عن عدد من أحكام في أمور المعاملات والأحوال الشخصية.

ونقل وكيع (ت٣٠٦هـ)، في كتابه «أخبار القضاة»، نصوصاً غير قليلة عن أوامر وأحكام عمر بن عبد العزيز أنفذها لقضاة عدد من الامصار.

وذكرت كتب الأدب، وأخصها «عيون الاخبار» لابن قتيبة، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه، و«نثر الدر» للابي، نصوصاً عن أعمال عمر بن عبد العزيز وأحكامه وأقواله، واعتمد الأخيران على كتاب ابن قتيبة، مع إضافات.

كتب التراجم والتاريخ

دونت كتب التراجم والتاريخ معلومات عن سيرة عمر بن عبد العزيز وأعماله، ضمن أبحاثها العامة، وذكر عدد منها معلومات قيِّمة مقتضبة، وأوسع الأولين الذين ترجموا له هم «ابن سعد» في كتابه «الطبقات» والبلاذري في كتابه «أنساب الأشراف». أما المتأخرون، فأوسع من ترجم له ابن عساكر في كتابه «تاريخ دمشق».

فأما «طبقات» ابن سعد، فقد خصت في الجزء الخامس سيرة عمر بن عبد العزيز بستين صفحة من القطع الكبيرة، علماً بأنها ترجمت لوالده عبد العزيز، وجده مروان بن الحكم، وعمه عبد الملك بعدة صفحات فيها معلومات لبعضها علاقة بعمر بن عبد العزيز.

ذكر ابن سعد في كتاب «الطبقات» معلومات عن نشأته الاولى، وولايته المدينة وتوليه الخلافة، وأعماله في رد المظالم (٢٥٣)، والقطائع (٢٧٥)، والخمس (٢٥٦، ٢٩٥)، وسهم ذوي القربى، وبني هاشم، وفدك، والكتيبة (٢٨٠ ـ ٢٨٧) وإقامة الخانات في خراسان (٥٣).

وأورد نصوصاً عن العطاء (٢٧٧، ٢٥٤، ٢٥٧)، وطعام الجار (٢٥٤)، وحكم البراذين (٢٥٧)، وقفول الحملات (٢٩٢). وأورد مرسوم عمر بإلغاء الضرائب الإضافية على الخراج (٢٧٦)، والمكوس (٢٥٣) ،وخرص ثمار إقليم فارس.

وأورد نصوصاً عن معاملة أهل السجون (٢٥٦، ٢٦٢)، وأهل الدعارات (٢٦٣)، والعصاة (٢٥٦)، وموقفه من القدرية (٢٨٣ ـ ٤)، والخوارج (٢٦٣ ـ ٤)، ومنعه شتم علي (٢٩١).

إن أغلب ما ذكره ابن سعد يتعلق باعادة تنظيم المالية والادارة في الحجاز والشام، وقليل منها يتعلق بالبصرة وخراسان وفارس؛ وأكثر روايات ابن سعد عن محمد بن عمر الواقدي، فقد بلغت الروايات عنه مائة وخمساً وثمانين.

ويتلوه في مصادره أحمد بن أبي اسحق، وعلي بن محمد المدائني، وعدد الروايات عن كل منهما ثلاثون رواية. ثم عفان بن مسلم، والروايات عنه اربعة عشر. ثم عبد الله بن جعفر الرقي (احدى عشر رواية)، وقبيصه (عشر روايات) وكل من أحمد بن عبد الله بن يونس، وسعيد بن منصور والأزرقي (تسع روايات).

وذكر خمس روايات عن كل من الفضل بن دكين، وسعيد بن عامر، وعبيد الله بن محمد ومسلم بن ابراهيم، وسعد بن عيسى. وأربع روايات عن كل من عارم بن الفضل، ويزيد بن الفضل، وسليمان بن حرب. وثلاث روايات عن كل من إسماعيل بن عبد الله، وروح بن عبادة، ومحمد بن مصعب، ومالك بن اسماعيل، والوليد بن مسلم، ويزيد بن هارون. وروايتين عن كل من محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، وكثير بن هشام، وعتابة بن زياد، وموسى بن إسماعيل، ومحمد بن معاوية. ورواية واحدة عن كل من اسماعيل بن ابراهيم، وأبي بكر بن عبد الله، وحجاج والحسن بن موسى، والحكم بن موسى، وزهير بن حرب، وسعيد بن عامر، وشبانة، وعباد بن عمران، وعبد الله بن ادريس، وعبد الله بن مسلمة، وعبد العزيز بن عبد الله، وعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن عبد الحميد الحنفي، وعلي بن عبد الله بن جعفر، وعمرو بن عاصم، ومالك النهدي، ومحمد بن حميد العبدي، ومحمد بن ربيعة، ومحمد بن عبد الرحمن بن محمد، ومحمد بن عبيد الله الأسدي، ومحمد بن محمد، ومحمد بن معن الغفاري، ومحمد بن موسى بن أبي بكر، ومحمد بن يزيد، ومطرف بن عبد الله، ووكيع، ووهب بن جرير.

أما البلاذري فقد خص عمر بن عبد العزيز بأربعين صفحة من كتابه «أنساب الاشراف»، فضلاً عن ست صفحات عن أولاده.

روى البلاذري في هذا الفصل أحكام عمر بن عبد العزيز في الأمصار، لا سيّما البصرة ثم خراسان، والكوفة، وأخبار قليلة عن اليمامة، وعمان، وعن المسجونين، وعلاقته بالأسرة الأموية؛ وأكثر رواياته عن علي بن محمد المدائني فقد نقل عنه سبعة وستين نصاً أكثرها يتعلق بالبصرة وخراسان.

ونَقَل عن هشام بن عمار ثمانية نصوص، وأربعة نصوص عن كل من عبد الله بن صالح، وأبي اليقظان، والواقدي، وعفان بن مسلم، والكلبي، ومنصور بن مزاحم.

ونَقَل نصين عن كل من أحمد بن ابراهيم الدورقي، وبكر بن الهيثم، والحسين بن علي الأسود، وعمرو الناقد.

ونقل نصاً واحداً عن كل من إسماعيل بن أبي زيد، وابن القتّات، وابن سلام، وأبي بكر العابد، وأبي أيوب، ومسام الجمال والحسن الحرمازي، وخلف بن هشام، وسعيد بن سليمان، وشريح، وشيبان بن فروخ، ومحمد بن مصفى، ومحمد بن أبان الطحان، وهشام بن عمر، وهدبة، والهيثم بن عدي.

وأكثر من روى عنهم البلاذري هم من أهل العراق، وكثير من رواياته عن حوادث في العراق وخراسان.

كتب التاريخ العام

بحثت كتب التاريخ العام سيرة عمر بن عبد العزيز وعنيت بذكر الحوادث في زمنه، وأبرز هذه الكتب تاريخ كل من الطبري واليعقوبي والمسعودي. أما الطبري فذكر الحوادث البارزة في زمن خلافة عمر بن عبد العزيز، ولم يخص سيرته إلا بثلاث صفحات لا تضيف معلومات على ما ذكره ابن سعد.

وخص اليعقوبي في تاريخه لعمر بن عبد العزيز ثماني صفحات (٤٤ ـ ٥٢) تفرد في بعض معلوماتها، لا سيّما في علاقة عمر بن عبد العزيز بحركات العلويين.

وتحدث المسعودي في «مروج الذهب» عن سيرة عمر بن عبد العزيز، وذكر عنه أخباراً تَفَرَّد في بعضها وتابع المتأخرون، لا سيّما ابن الاثير وابن كثير ماجاء في هذه الكتب من معلومات.

نَقَلَت كتب الصحاح الستة في الحديث، روايات وأحكاماً لعدد من الخلفاء الأمويين الأولين وولاتهم. ويتبين من فهارس الرجال الملحق بالمعجم المفهرس أن عمر بن عبد العزيز شَغَل مكاناً وسطاً في مقدار تردد اسمه من الخلفاء والولاة الاولين. إذ أن معاوية بن أبي سفيان كان أكثر من تردد اسمه من الخلفاء، فقد ذكر في قرابة اربعمائة وستين موضعاً من هذه الكتب، ويتلوه مروان بن الحكم حيث ذكر في قرابة مائتين وخمسين موضعاً. أما عمر بن عبد العزيز، فقد ذكر في حوالي مائة وسبعين موضعاً.

وإتماماً للفائدة في هذا السياق نذكر أن عبد الملك بن مروان ذُكر في حوالي خمسة وخمسين موضعاً، ويزيد بن معاوية في ثلاثين موضعاً، والوليد بن عبد الملك في أربعة عشر موضعاً. أما سليمان بن عبد الملك وهشام فقد ذكر كل منهما في خمسة مواضع.

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب فهارس الرجال، الذي عمله لوين للمعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي، ذكرت من الولاة الحجاج في قرابة خمسين موضعاً وعمرو بن سعيد في ثلاثة عشر موضعاً، وزياد بن أبيه في عشرة مواضع، وهشام بن اسماعيل في خمسة مواضع.

المؤلفات العربية الحديثة

ونشرت في الأزمنة الحديثة عن عمر بن عبد العزيز خمسة كتب أولها «عمر بن عبد العزيز» لاحمد زكي صفوت، والكتاب الثاني «الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز» لعبد العزيز سيد الأهل، والكتاب الثالث «ملامح الانقلاب الإسلامي في سيرة عمر بن عبد العزيز»، لعماد الدين خليل (١٩٧٩)، والكتاب الرابع «عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم» لفيصل زكريا (١٩٨٧)،

والخامس كتاب خالد محمد خالد «معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز» طبع سنة ١٩٦٩ وأعيد نشره سنة ١٩٨٦ ضمن كتاب «خلفاء الرسول»، كتبه بأسلوب جَذّاب أقرب إلى السرد القصصي دون ذكر مصادره.

وفي كل من هذه الكتب معلومات وافية عن المصادر القديمة وهي تبرز في هيكلها العام تقوى عمر بن عبد العزيز وعدالته وحرصه على الصلاح.

ولا ريب في أن كتب التاريخ العام، والمؤلفات عن تاريخ الأمويين خصت عمر بن عبد العزيز بصفحات يختلف مقدارها تبعاً لنطاق أبحاث كل منها، وإن كثرتها يسوغ عدم سردها في هذه المقدمة.

أما في الغرب فمن ابرز الدراسات بحث ولهاوزن ضمن كتابه «الدولة العربية وسقوطها»، وفيه فصل قيم عن أعمال عمر بن عبد العزيز، لا سيّما في ما يتعلق بالأراضي وبمعالجة أحوال الموالي في خراسان خاصة، والموضوع الأخير عالجه أيضاً فان فلوتن في كتابه «السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات».

وكتب هاملتون جب، في مجلة Arabica(2/1-16)، بحثاً حلل فيه نصّاً أورده ابن عبد الحكم. وكتب المستشرق الروسي بارتولد بحثاً شاملاً قيماً عن عمر بن عبد العزيز استوعب فيه جوانب متعددة من نشأته، وسيرته وأعماله الادارية في خلافته، وأبْرَزَ دورَ التنبؤات في توجهاته الإدارية، ونَشَرَه في العدد الخامس عشر من مجلة Islamic Quartesly.

السمات العامة لمادة المصادر

إن ما نقلته المصادر، التي ذكرنا أهمها أعلاه، عما صدر عن عمر بن عبد العزيز من أحكام وأوامر ونصائح، يفوق ما نقل عن أي خليقة عدا عمر بن الخطاب. ولا نعلم: أيعود ذلك إلى الاهتمام الخاص الذي أولاه الرواة، لا سيّما ذوي النزعة الدينية لِعُمر بن عبد العزيز أم يعود إلى كونه متفرداً عن غيره من الخلفاء في أنه يُعْنَى بكثير من الجزئيات في أرجاء الدولة لا سيّما

الأمصار. وعلى أي حال فإن تدوينها، في سياق من الرضا، يقدم مادة لدارس نُظُم الخلافة والادارة الإسلامية ومدى متابعتها الأحوال، وسلطاتها في التنظيم الاداري، وبالتالي أساس ونطاق الادارة الإسلامية بما يُغْنَى بكثير من النصوص المقتضبة في كتب الادارة الإسلامية، وأبرزها الأحكام السلطانية للماوردي، ولا سيّما أن عهد عمر بن عبد العزيز مبكر نسبياً، وأن الأحكام والأوامر التي يصدرها تصبح مبادئ واجبة التنفيذ لمن يتلو. وبهذا فان الشهرة التي اكتسبها عمر بن عبد العزيز يرجع بعضها إلى الاهتمام الواسع بشؤون الدولة وإداراتها، وإصداره أحكاماً بعضها جزئية، ولكن كثيراً منها أساسية مقبولة لانسجامها مع الروح الإسلامية والعدالة والمصلحة العامة.

إن المعلومات الواسعة التي وصلتنا عن العديد من جوانب حياة عمر بن عبد العزيز وأعماله تثير عدداً من التساؤلات عن عدد من السمات العامة التي يجدر بحث عوامل ظهورها ودلالاتها:

١ ـ التباين الكبير الذي يصل إلى حد التناقض بين حياته الشخصية في صباه إبَّانَ ولايته المدينة، وبينها بعد توليه الخلافة، وهو في هذا التناقض يكاد يتفرد عن أي من الخلفاء ورجال الدولة الآخرين. فما هي العوامل التي أدت إلى هذا الانقلاب الكبير، وقد رجحت ان مرجع ذلك تأثره بأفكار الغيبيات التي انتشرت قبيل توليه الخلافة.

٢ ـ إن عدداً من الأعمال التي فاخر الرواة بنسبتها إلى عمر بن عبد العزيز في خلافته انما حدثت في زمن خلافة سلفه سليمان بن عبد الملك، وكانت علاقته بعمر بن عبد العزيز علاقة وثيقة، فهل كانت هذه الأعمال راجعة إلى توجيهات عمر، ثم ألم يكن مبدعاً لها أو متابعاً لما كان قد قام به سلفه سليمان بن عبد الملك في معالجة الأوضاع، التي تهدد كيان الدولة والامة؟

٣ ـ المعلومات الغنية عن اهتمام عمر بن عبد العزيز بالأقاليم، لاسيّما النائية كخراسان وما وراء النهر في المشرق، وأقاليم شمال إفريقية في المغرب.

٤ ـ ما مدى قبول الناس لإصلاحات عمر بن عبد العزيز، وأي الاوساط

تحمست لها أو رضيت بقبولها، وما مدى سعة نطاق معارضيها وآثارهم عند صدورها؟

٥ ـ ما هي السمات والخصائص التي تميزت بها الأعمال التي قام بها عمر بن عبد العزيز وحظيت بالقبول؟

٦ ـ ما مدى ديمومة الأعمال الجديدة التي أدخلها عمر بن عبد العزيز وآثارها في التوجهات العامة في السياسة والادارة؟

٧ ـ ما تطور تقدير أعماله عبر مسيرة التاريخ؟

حاولنا في بحثنا الحالي استيعاب معلومات المصادر القديمة ورسم الخطوط العامة المستنبطة من الجزئيات الكثيرة المتفرقة كيما نخلص إلى تحديد الأسس التي قامت عليها شهرته وتقييمها ضمن نطاق مجرى التاريخ العام.

الفصل الثالث

الأسرة الأموية

الأمويون في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين

استجاب عدد من رجال الأسرة الأموية للدعوة الإسلامية منذ أول الدعوة في مكة، فعثمان بن عفان كان من المسلمين الأوائل، وأم حبيبة بنت أبي سفيان من مهاجرة الحبشة، ثم تزوجها الرسول (ص)، وأبو العاص زوج ابنة الرسول (ص). وتجدر الإشارة إلى أن أبا سفيان كانت داره قريبة من دار الرسول (ص)[1].

لم يكن موقف المشركين الأمويين أعنف من مشركي عشائر مكة الأخرى. وقد برز أبو سفيان زعيماً لقريش بعد مقتل أبي جهل في معركة بدر، وكان رئيس قريش في معركتي أُحُد والخندق، ولم يشارك في صلح الحديبية، ولكنه جاء إلى المدينة في السنة التالية يطلب من الرسول تمديد الصلح. ومع أن الرسول (ص) رفض طلبه، إلا أن أبا سفيان لم يُظْهر شدة في مقاومة المسلمين والتأليب عليهم، ولما تقدم الرسول (ص) لفتح مكة، لم يُبْدِ أبو سفيان أي مقاومة، وانما جاء إلى الرسول (ص) يعلن استسلامه وإسلامه. وقدّر الرسول (ص) ذلك فأعلن: من دخل داره فهو آمن. ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وهو امتياز قد يعبر عن اتفاق سابق مع الرسول (ص).

---

(١) أنظر تفاصيل أوفى في كتابنا «تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية»: فصل «الدعوة الإسلامية في مكة».

وبعد أن تم فتح مكة تجلى تعاون الأمويين مع الرسول (ص) في ظل دولة الإسلام، وولّى الرسول (ص) عتاب بن أسيد الاموي على مكة والطائف، كما عين ثلاثة من أولاد أبي العاص على بعض المناطق التي انضمت إلى الإسلام. وكان معاوية من كُتَّاب الوحي وأُسندت لأبي سفيان عدة مهمات[1].

ولما توفي الرسول (ص)، وانتُخِب أبو بكر خليفة والتاثَتِ الأحوال، ثبت على الإسلام، وتأييد الخلافة أهل المدينة وأهل مكة والطائف ومنهم الأمويون، وشاركوا في القضاء على المرتدين والمنشقين، فَثَبَّتوا الإسلام ودولته في شبه جزيرة العرب. ولم يعزل أبو بكر أياً من ولاة الرسول (ص).

تابع أبو بكر توسيع دولة الإسلام، وكان اهتمامه الأول ببلاد الشام، فأنفذ جيوشاً عليها أربعة قادة، كان منهم خالد بن سعيد بن العاص ويزيد بن أبي سفيان. وكان في هذا الجيش كثير من الأمويين. وقتل عدد منهم في المعارك الأولى. ولما استتبب حكم العرب في بلاد الشام، وَلَّى عمرُ بن الخطاب على الشام أبا عبيدة بن الجراح. فلما توفى بالطاعون ولَّى عليها يزيد بن أبي سفيان، ثم جعل بعد وفاته على بلاد الشام أخاه معاوية بن أبي سفيان الذي ظل في ولايته بقية سِني خلافة عمر، وطول سني خلافة عثمان إلى أن صار هُوَ خليفة.

اختار عمر بن الخطاب ولاة الاقاليم وقادة الجيش من أهل الحضر، ومن مكة خاصة، ولم يميز الامويين في التعيين، وعمل على الحد من استغلال الأفراد للانتصارات، فكان هذا مما يمس الامويين، ولكن المساس لا ينحصر فيهم.

ولما وُلِّيَ عثمان الخلافة أبقى معاوية في ولاية الشام، وَوَلَّى على الكوفة الوليد بن عقبة ثم سعيد بن العاص، وكلاهما أموي. أما مصر والبصرة فقد ولَّى عليهما اثنين من أقربائه من الأسرة الأموية.

---

(١) انظر كتابنا «الدولة في عهد الرسول (ص)».

واتّبع عثمان سياسة «الانفتاح» للأفراد، فأفاد منها كثير من الصحابة، ولا سيما الأمويين. ولم يكن هذا العمل انحيازاً متفرداً للامويين، ولكن هؤلاء أفادوا منه. وربما كانت إفادتهم أكبر من إفادة سواهم بحكم خبراتهم ونشاطهم.

ادى التوسع وسياسة الانفتاح إلى استقطاب الثروة وتوسُّع الشقة بين «الاغنياء» وعموم الناس، ولم يفلح استمرار توزيع العطاء على الناس في المعالجة. لان العطاء كان مقصوراً على الأمصار ولم يستوعبهم بسبب تتابع الهجرات وتزايد السكان بالولادة. والمعلومات التي وصلتنا تُظهر أن التوتر كان أظهر في المدينة والفسطاط والكوفة، إلى درجة أقل منها في البصرة. وأن الأحوال في المراكز الثلاثة الأخيرة وصلت إلى حد قيام عدد محدود بتمرد مسلح لاقصاء الولاة، مع نقد سلبي للخليفة، وأن بعض دوافع التمرد هو الاستياء من سياسة عامة مطبقة، وليس من تصرفات رجال الاسرة الاموية، ولم يحدث في بلاد الشام تمرد على معاوية، وهو الوالي الأموي. أما في المدينة فكان الاحتجاج على تصرفات متعددة منها، وليس اقواها، تصرفات مروان بن الحكم. والواقع ان المستفيدين الذين أثاروا على أنفسهم النعمة لم ينحصروا بالأسرة الأموية، وإنما كان فيهم أعداد من عشائر قريش الأخرى، وظهرت أصوات تنتقد استغلالات رجال «قريش» دون تخصيص الأمويين. وهذا لايبرئ الأمويين، وانما يضعهم ضمن دوائر أوسع، ولا بد أن الأمويين أو متنفذيهم في الأقل، كانوا يعطفون على عثمان إبَّانَ حصاره، ولكنهم لم يتخذوا موقفاً حاسماً لنصرته، شأن بقية أهل المدينة من قريش ومهاجرة الحجاز والأنصار. وهو موقف خَفَتَ فيه صوت المؤيد، واتسع همس المعارض، وكان سلمياً إلا في يومه الاخير الذي قُتل فيه الخليفة عثمان[١].

وانتُخِب علي خليفة ببيعة عامة في المدينة، شأن من سبقه من الخلفاء، وكان الصوت الأعلى في المدينة للمتمردين على عثمان والمستائين منه، وهم العدد القليل ممن قَدِم من الأمصار، والعبدان وأهل القبائل من أعمدة النقمة،

---

(١) انظر في ذلك دراسة الدكتور محمود ابراهيم المقيمة في كتابه Merchant capital in Islam.

وسرعان ما ظهرت معارضة لخلافته، كان لأهل مكة نصيب فيها. وتطورت المعارضة إلى ثورة تبلورت حول عائشة، والتف حولها بارزون من قريش، منهم طلحة والزبير وعبد الله بن عامر، وفيهم من الأمويين مروان بن الحكم. وبرزت آثار التكتلات العشائرية والأسرية والأفراد تظهر إلى السطح، فتضعف الرابطة الإسلامية العامة والتمسك بالدولة التي عمل الرسول (ص) ومن تلاه في ممارسة السلطة العليا فيها، لا سيّما أبو بكر وعمر.

اختار المنشقون على علي البصرة قاعدة لهم، ولمَّا قدم علي وقاتلهم وانتصر عليهم اتخذ مقره الكوفة وظل فيها طوال السنوات الاربع من خلافته. وكان رأس المعارضين لخلافته بعد انتصاره في معركة الجمل معاوية الذي اعتمد على أهل الشام، وكثرتهم من مقاتلة اليمن والحجاز، وناصره الأمويون، خاصة ممن نقم عليهم الثائرون على عثمان. غير أن هؤلاء كانت مكانتهم محدودة، كما أن علياً اعتمد على مقاتلي الكوفة وعدد من مقاتلي البصرة، ولم يكن له أنصار من الامويين، إلا أنه لم يضطهد رجال الأسرة الاموية الذين نُسوا في خضم الاحداث الجديدة. ولعل الأمويين وأنصارهم تعرّضوا للمضايقة في العراق إبّان خلافة علي، وهاجر بعضهم منها[(١)].

تُظْهر المعلومات عن خطط مكة والمدينة دُوراً وممتلكات لرجال من الأسرة الأموية فيهما، مما يدل على كثرة من سكنهما منهم. وتحدد المصادر تاريخ امتلاك أو تشييد بعض هذه الدور. ولبعض الأمويين، لا سيّما معاوية أكثر من دار واحدة في مكة، كما أن لبعضهم دُوراً في مكة والمدينة، ومن البديهي أن هذه الدور للسكن وليس للايجار، وأن شاغليها هم أصحابها أو المتصلون بهم، وأنها تشير إلى أماكن إقامتهم، غير أنها لا تدل على إقامة دائمة فيها، كما أنها لا تحدد بدقة زمن إقامتهم، والراجح أن كثيراً منها كان مسكوناً منذ زمن الخلفاء الراشدين وبعضها ظلّ مسكوناً في زمن الأمويين أيضاً، ولا بد أن

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١/١٦٩ فما بعد وقد اعددنا بحثاً نرجو ان ينشر قريباً عن معارضين من أهل الكوفة.

عدداً من هذه الدور كان يشغلها المتصلون بمالكيها من الامويين، وهي تشير إلى كثرة عددهم في مكة والمدينة، وربما كان لهم تأثير في توجيه الرأي العام في كل من المدينتين للتعاطف مع عثمان ثم الامويين[١].

ولعل من عوامل عدم تأييد أهل مكة علياً عند توليه الخلافة توجيه الأُمويين نفوذهم الواسع فيها ضد علي. أما في المدينة. فلا بد أن دورهم أضعف لقوة الكتل الثلاث فيها، ولعل من مظاهر ضعفهم في المدينة انهم لم يقوموا بدور مؤثر في إقصاء تجمهر الناقمين على عثمان، علماً أن عددهم لم يكن كبيراً، فظلوا في إعلان معارضتهم أكثر من شهر قبل مقتله[٢].

أما مروان بن الحكم فكانت له مكانة متميزة لسنّه وخبرته، و كان ذا نفوذ على الخليفة عثمان، وشارك في معركة الجمل مع عائشة، وجُرِح فيها، ثم ولي المدينة لمعاوية، ولما ثار أهل المدينة على يزيد كان مروان شيخ بني امية وابنه عبد الملك ناسكهم. وفي مرج راهط بايعه الأمويون بالخلافة.

الأسرة الأموية في صدر الخلافة الأموية

ولما خلصت الخلافة لمعاوية بعد مقتل علي وتنازل الحسن، عمل على «لمّ الشمل وتثبيت تماسك الجماعة»، واختار للاقاليم ولاة تبعاً لما رآه من كفاءتهم دون ان يراعي الانتماءات القبلية، وقصر في اختيار ولاة من البيت الاموي على المدينة ومكة فاختار لولاية المدينة مروان بن الحكم ثم سعيد بن العاص، ثم الوليد بن عتبة، ولولاية الديوان عبد الملك بن مروان، ثم عمرو بن سعيد بن العاص، ثم عثمان بن عتبة بن أبي سفيان ثم حبيب بن عبد الملك بن مراون. واختار لولاية مكة عتبة بن أبي سفيان ثم مروان بن الحكم فعمرو بن سعيد بن

---

(١) انظر عن ممتلكات الأمويين ورباعهم ودورهم في مكة «أخبار مكة» للأزرقي، وعن دورهم وأملاكهم في المدينة «تاريخ المدينة لعمر بن شبّه»، و«وفاء الوفا» للسمهودي؛ وانظر الفصل الذي كتبناه عن ملكيات الأراضي في كتابنا «الحجاز في صدر الإسلام».

(٢) انظر «الفتنة» لهشام جعيط، و«الفتنة الكبرى» لطه حسين.

العاص فعبد الله بن خالد بن أُسيد غير انه وَلّى قبل مروان خالد بن العاص المخزومي[1].

ولا بد أن رجال بني أمية أو كثيراً منهم استفاد من الأمن الذي ساد البلاد والحرية التي توافرت، فوسّعوا نشاطهم في الحياة الاقتصادية، معتمدين على مهاراتهم أكثر من اعتمادهم على معونة الخلافة لهم. غير أن المصادر لم تذكر مقدار ثرواتهم أو أماكن سُكْنَاهم إلا ما كان لسعيد بن العاص من أملاك في المدينة[2].

ولعل كلاًّ من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وأسرتَهما كانت تقيم في المدينة. أما معاوية وأسرته، فكانوا يقيمون في بلاد الشام؛ ولم تظهر بينهم انقسامات. غير أن هذه الأسرة لم تمنع أهل المدينة من الأنصار والقرشيينَ والحجازيين من الثورة[3] على يزيد الذي قمعها بشدة بجيش قوامه ثلاثة آلاف بقيادة مسلم بن عقبة المرّي، كما أنها لم تُفْلح في كسب عبد الله بن الزبير الذي ادعى الخلافة واتخذ مركزه في مكة.

ولما تُوُفيَ يزيد بن معاوية بعد أن لَبِثَ في الخلافة ثلاث سنوات وُلّي الخلافة بعده ابنه معاوية الذي اعتزلها بعد أربعين يوما من توليه لها، دون أن يعين من يخلفه، فخلق أوضاعاً خطرة، خلت معها دولة الإسلام من خليفة يرأسها، ولم تكن فيها جهة معترف بأحقّيتها في تعيين خليفة. وكان أبرز من في المسرح السياسي عبد الله بن الزبير الذي كان قد ثار على يزيد فلما تُوُفِيَ يزيد وتنازل ابنه معاوية عن الخلافة، أعلن نفسه خليفة، واتخذ مكة مقرّاً له واستطاع أن يبسط سلطانه على العراق واليمن وأكثر العرب من بلاد الشام.

---

(١) انظر قائمة ولاة الأقاليم في كتابنا «دراسات في الإدارة الإسلامية».

(٢) انظر «تاريخ المدينة» لعمر بن شبّه، و«وفاء الوفا» للسمهودي ١/ ٢٢٣ وانظر ما كتبناه في ذلك في كتابنا «الحجاز في صدر الأسلام».

(٣) كان القرشيون و أهل الحجاز في المدينة عظم الثائرين على يزيد الذي قضى على ثورتهم في موقعة الحرة. انظر: تاريخ خليفة بن خياط ٢٣١؛ وكتاب المحن لابن أبي الدنيا ٣١.

لم تكن علاقة الأمويين بعبد الله بن الزبير وأسرته سيئة قبل إعلان نفسه خليفة. فلما أعلن نفسه خليفة أخرج من المدينة الأمويين ومن عرف بالميل إليهم.. وكانوا قرابة ألف أعلن عداءه لهم[1].

وتجمع الامويون برجالهم ومواليهم ومؤيِّديهم في مرج راهط، واشتبكوا مع أنصار ابن الزبير وانتصروا عليهم وانتخبوا مروان بن الحكم خليفة لكبر سنّه وخبراته.

وكانت البيوتات الأموية الرئيسة في مرج راهط ثلاثة: آل معاوية وآل مروان وآل أبي العاص[2]، أما آل أبي معيط وبني أسيد فلم يذكر لهم في اخبار هذه الأحداث دور ظاهر مما يدل على ضعف إسهامهم فيها. وأما اسرة معاوية فقوامها معاوية وخالد وعبد الله وقد أسْقط معاوية فاعليته بتنازله عن الخلافة دون تعيين خلف له، أما خالد فكان له طموح فتزوج مروان أمه. غير أنه وَلَّى عبد الملك العَهْدَ، وبقي خالد يقاتل بجانب مروان عندما تقدم لقتال المصعب.

عمرو بن سعيد بن العاص

وأبرز آل أبي العاص في مرج راهط كان عمرو بن سعيد بن العاص، وكان أبوه من جُمَّاع القرآن الكريم، ثم وُلِّيَ الكوفة زمن خلافة عثمان، ثم وَلَّى المدينةَ لمعاوية وليزيد وكانت أمه تحت مروان بن الحكم وكان من أجد الناس في أمر مروان وأحسنهم معاونة له واجتهاداً في صلاح أمره وافساد امر ابن الزبير وكان أحب الناس إلى أهل الشام.

وقاتل عمرو بن سعيد مع مروان يوم مرج راهط. ولما وجَّه عبد الله بن الزبير أخاه مُصْعباً إلى فلسطين بعد بيعته مروان، وجَّه مروان عمرو بن سعيد فقاتل مُصْعباً وأصحابه وأجبره على العودة إلى المدينة[3].

---

(١) الطبري ٢/٤٦٨، وانظر ٤١٠، ٤٠٦، ٤١٥.
(٢) انظر: الطبري ٢/ ٤٧٤ فما بعد؛ انساب الاشراف ٥/ ١٣٦.
(٣) انساب الاشراف ١٥.

ولما استقام لمروان أمره وجَّه عبد العزيز إلى ابن جحدم عامل ابن الزبير على مصر، وأخذ هامته.

ولما قدم مروان بن الحكم مصر كان على شرطته فيها عمرو بن سعيد[١].

ولما توجَّه مصعب بن الزبير[٢] تقدم إليه ومعه عمرو بن سعيد لقتال عبد الملك وحدث بين الرجلين احتكاك، فعاد عمرو بن سعيد إلى دمشق، ويقال إن عبد الملك كان قد ولاه عليها ثم أعلن عصيانه الذي انتهى بأن قتل عبد الملك عمرو بن سعيد وسَيَّر أسرته إلى مصعب[٣] ولم يَظْهر مِنْ أسرته من كان ذا نفوذ.

غير أن عمر بن عبد العزيز كان يُقَدِّر مواهب ابنه سعيد بن عمرو، ويروي الواقدي انه قال: «لو كان لي من الأمر شيء، يعني الخلافة، لوليتها القاسم بن محمد أو صاحب الأعوص، يعنى اسماعيل بن عمرو بن سعيد[٤] والأعوص شرقي المدينة على بضعة عشر ميلاً منها نزله اسماعيل منقطعاً عن الناس[٥] ولم يتلبس بشيء من سلطان بني أمية»[٦]. ويقول الواقدي: «وكان اسماعيل بن عمرو مما بدا منقطعا قد اعتزل فنزل الأعوص».

وأما القاسم بن محمد، فهو حفيد أبي بكر، وكان أحد فقهاء المدينة السبعة وله اتصال بعمر بن عبد العزيز، وينقل ابن سعد أن مالك بن أنس يروي أن عمر بن عبد العزيز قال: لو أن القاسم لها، يعني الخلافة[٧].

---

(١) انساب الاشراف ٤ ـ ٢ /١/ ١٣.
(٢) الكندي: ولاه مصر ٤٧.
(٣) نسب قريش لمصعب الزبيري ١٠.
(٤) ابن سعد ٥/ ٢٥٤ الطبقة الرابعة ٢٣٦ تهذيب التهذيب ١/ ٣٢٠. التبيين في انساب القريشيين ١٦٧، ٢٧.
(٥) ابن سعد ٥/ ٢٥٤.
(٦) نسب قريش لمصعب الزبيري ١٠٨.
(٧) ابن سعد ٣/ ١٤٠.

وعمل مروان على جلب أسرة معاوية إلى جانبه، فتزوج ام خالد بنت يزيد، وتزوَّج ابنه عبد الملك عاتكة بنت يزيد فولدت له يزيد بن عبد الملك، وتزوج الأصبغ بن عبد العزيز أم يزيد ابنة يزيد بن معاوية[١].

كان لمروان تسعة عشر أخاً هم عبد الرحمن، وأبَان، وعبيد الله، وعبد الله، وصالح، ويحي، وداود، والحارث، وعمر، وعمرو، وأوس، والنعمان، وخالد، ويوسف، وعثمان، والحكم، والحارث، وحبيب. وكان لسبعة منهم عقب.

وكان له أحد عشر ولداً: عبد الملك، وعبد العزيز، وبشر، ومحمد، ومعاوية، وأبان، وعبيد الله، وعثمان، وأيوب، وداود، وعمر. وكل منهم أعقب، ماعدا عبد الله وأيوب، ولكنهم مختلفون في عدد ما أعقبوا، فداود، وعثمان وأبان والوليد أعقب كل منهم ولداً، وأعقب كل من معاوية وبشر ومحمد ستة أولاد، وأعقب عبيد الله سبعة أولاد، وعمر أربعة أولاد[٢].

وأعقب عبد الملك بن مروان ثلاثة عشر ولداً اعقبوا كلهم ماعدا الحكم والمنذر. وقد وُلِّيَ ثلاثة من أولاده الخلافة هم الوليد ويزيد وهشام.

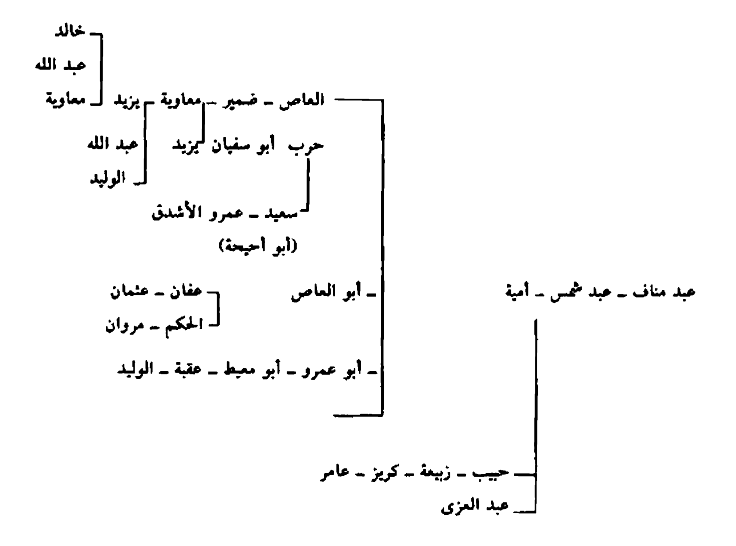
وقد كثر عقب الخلفاء، فأعقب الوليد تسعة عشر ولداً اكثرهم من امهات أولاد، وأعقب هشام ثمانية عشر ولداً، وسليمان ثلاثة عشر ولداً، ويزيد أحد عشر ولداً.

---

(١) أنساب الاشراف ٤ ـ ٢/٦٢، إبن سعد ٣/ ٢٤.

(٢) أنساب الاشراف ٥/ ١٦٤، الانساب لابن الكلبي ١/ ٢٩، وانظر: نسب قريش لمصعب الزبيري/ و«جهرة النسب» لابن حزم.

وأعقب مسلمة ستة أولاد، ومحمد خمسة أولاد.



عبد العزيز بن مروان

أما عبد العزيز بن مروان، فقد اشترك في مرج راهط بجانب أبيه[١]. ولما أمَّن مروان انتخابه خليفة أنفذ ابنه عبد العزيز في جيش إلى أيله، ورجا أن يدخل مصر من تلك الناحية[٢]، وصدَّ عبدُ العزيز قوة كان قد وجهها ابن جحدم الذي كان يهيمن على مصر باسم عبد الله بن الزبير[٣].

أدرك مروان الأخطار التي قد تنجم من عدم تسمية ولي للعهد، وكان يريد

---

(١) انساب الاشراف ٥/١١٩، ١٦٧.
(٢) الولاة للكندي ٤٣.
(٣) الولاة للكندي ٥٢.

تولية العهد عبد الملك ثم عبد العزيز، وسانده حسان بن مالك، فصدّه عمرو بن سعيد الأشدق وخالد بن يزيد، وكان كل منهما يطمع في ولاية العهد[١]، ولا شك أن يكون مروان قد عمل ما جعل عمرو بن سعيد بجانبه، فكان على شُرَط مروان[٢] عندما دخل مصر بعد عبد الملك، وبقي عمرو مؤيداً لمروان الذي أرسله لصد جيش أنفذه ابن الزبير بقيادة أخيه مصعب إلى فلسطين[٣]، ثم وجهه لصد أي تقدم يقوم به ابن جحدم عامل ابن الزبير على مصر[٤]، وظل عمرو بن سعيد بجانب عبد الملك بعدما وَليَ الخلافة، وسار معه إلى خازر لاسترجاع العراق من ابن الزبير. ولعل انشقاق عمرو بن سعيد عن عبد الملك وتمرده عليه راجع إلى أن عبد الملك أنكر على عمرو ولاية العهد، وثبّتها لعبد العزيز بن مروان[٥]. ثم إن مروان ولّى عَهْدَه عبدَ الملك وعبد العزيز[٦]، فَثَبَّت عبد العزيز ولاية عهده، عندما تقدم عبد الملك إلى الخازر للسيطرة على العراق[٧]. ولعل هذا أغاظ عمرو بن سعيد ودفعه إلى التمرد والعصيان في دمشق، فأراد خلع عبد الملك، ولكن حبراً نصحه ألا يفعل، فلما تُوُفّي عبد العزيز عين عبد الملك ابنيه الوليد ثم سليمان لولاية العهد.

ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر

جعل مروان بن الحكم صِلات مصر وخراجها لابنه عبد العزيز. فلما تُوفي مروان، واعتلى عبد الملك الخلافة، ثَبّت اخاه عبد العزيز على مصر بتوصية من مروان، واشترط عبد العزيز على عبد الملك ان تكون مصر له مدى حياته،

---

(١) الانساب لابن الكلبي ١٣٦، ١٤٥، ١٥٠.
(٢) الانساب الاشراف ٤ ـ ٢ / ١٣٧، ١٤٠.
(٣) نسب قريش لمصعب الزبيدي ١٧٩.
(٤) الانساب الاشراف ٤ ـ ٢/ ١٣٩.
(٥) انساب الاشراف ٤ ـ ٢ / ١٣٧. وانظر كتاب سيدة اسماعيل الكاشف «عبد العزيز بن مروان» في سلسلة «اعلام العرب».
(٦) انساب الاشراف ٤ ـ ٢ / ١٣٨.
(٧) الانساب لابن الكلبي ٢٠٣.

وليس لعبد الملك ان يعزله[١]. ولم يزل في ولايته عليها إلى أن توفي في رمضان سنة ٨٦.

لا ريب في أن مصر كانت أهم إقليم في دولة مروان، التي لم تكن لها سيطرة على الجزيرة والمشرق. إنَّ مصر تتحكم في شمال افريقية، وتؤثر في الحجاز بما تزوده به من حبوب وتجارات. غير ان مهمة السيطرة عليها وادارتها في تلك الأحوال لم تكن يسيرة، فقد كان فريق كبير من مقاتليها مؤيدين لعبد الله بن الزبير وخلافته، فضلاً عن أن سواحلها الطويلة على البحر المتوسط كانت مُعَرَّضة لتهديدات الروم، ولم يكن يقيم في مصر رجال من بني أمية، وقد أدرك عبد العزيز هذه الصعوبات، وقال لمروان عندما ولّاه عليها: «كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أمية؟ فقال مروان: يا بُني، عُمَّهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك، واجعل وجهك طلقاً تَصْفُ لك مودتهم، وأَوْقِعْ إلى كل رئيس منهم انه خاصَّتك دون غيره، يكن عيناً لك على غيره، ويَنْقَدْ قومه لك[٢].

أبقى عبد الملك في مصر مع عبد العزيز أخاه بِشْراً ليكون مؤنساً، وجعل له موسى بن نصير وزيراً ومشيرا[٣]، غير أن إقامة بشر بن مروان في مصر لم تَطُلْ، وإن لم تحدد المصادر مدى إسهامه في توجيه إدارة مصر إبان بقائه بجانب أخيه عبد العزيز، ولا حَدَّدت تاريخ مغادرته مصر.

أقام عبد العزيز في مصر طوال ولايته عليها، ولم يغادرها إلّا مرة واحدة حين انضم إلى أخيه عبد الملك في تَقَدُّمه الأول لمقاتلة المصعب، وهو التقدم الذي لم يحدث فيه اشتباك مع المصعب، إلا أنه كان في نهايته ظهور التوتر في علاقته مع عمرو بن سعيد الأشدق، وما تلاه من عصيان في دمشق خُتم بمقتله.

---

(١) انساب الاشراف ٥/١٣٦، ١٤٢، ١٥٠.
(٢) الولاة للكندي ٤٧، وقد افردنا للتيارات السياسية وسلطان عبد الله بن الزبير فصلاً في كتاب اعددناه للنشر عن الفسطاط.
(٣) الولاة للكندي ٤٧.

وفي خلال ولايته على مصر، خرج إلى الإسكندرية أربع مرات كانت إحداها سنة ٧٤، والثالثة سنة ٨١، والرابعة سنة ٨٣[١].

وكان مقام عبد العزيز بالفسطاط إلى أن وقع الطاعون في مصر سنة ٧٠[٢]، فخرج عبد العزيز منها مُتَبَدِّيّاً فَنَزَلَ حلوان، واتخذها سكناً، وجعل بها الحرس والاعوان والشُّرَط، فكان عليهم جناب بن مرثد بحلوان، وبَنَى بحلوان الدُّور والمساجد وغيرها، وعَمَرَها أحسن عِمارة وأحكمها، وغرس كرمها ونَخْلها[٣].

إدارة مصر

وَلَّى عبد العزيز بن مروان مناصبَ الإدارة الرئيسة رجالاً من عشائر مختلفة من أهل مصر.

فجعل على الشُرَط عابس بن سعيد المرادي. فلما توفي سنة ٧٨ جعل مكانه على الشرط يونس بن عطية الحضرمي، ثم زياد بن حناطة التجيبي[٤] ثم عبد الرحمن بن حديج[٥].

وجعل على الحرس والأسواق والخيل جناب بن مرثد بن هاني الرعيني، وضم إليه ثلاثمائة من الأمداد. ولما توفي سنة ٨٣ جعل مكانه على الأعوان والخيل عَمْرو بن كريب الرعيني، ثم سعيد بن يعقوب الشيباني ثم عبد الرحمن بن حسان التجيبي، ثم يونس بن عطية الحضرمي، ثم عبد الرحمن بن حديج التجيبي[٦].

وكان قضاة مصر في زمنه بشير بن النضر المزني. فلما توفي سنة ٦٩، تلاه

---

(١) الولاة للكندي ٥٢، ٥٣.
(٢) الولاة للكندي ٢٣٦.
(٣) الولاة للكندي ٤٨ ـ ٤٩، انظر معجم البلدان ٢/ ٢٩٢.
(٤) الولاة للكندي ٤٨٠.
(٥) الولاة للكندي ٧٢٣.
(٦) الولاة للكندي ٤٨، ٥٣.

عبد الرحمن بن مجيرة، وكان على القضاء والقصص وبيت المال[١]، وظل في القضاء إلى أن توفي سنة ٨٣، فَوَلِي القضاء بعده مالك بن شراحيل الخولاني[٢]، ثم جُعِل القضاء والشُّرَط ليونس بن عطية الحضرمي، وهو أول قاضٍ من حضرموت (٨٤ ـ ٨٦)، ثم تلاه أوس بن عبد الله بن عطية، وَوَلِيَ بعده عبد الرحمن بن حديج، وكان قبلها على الشرط[٣].

لم يذكر المؤرخون حوادث في مصر مخلة بالإستقرار إبَّان ولاية عبد العزيز، وشارك مُقاتِلَةُ الفسطاط في زمنه في بعض الحوادث العسكرية، ففي سنة ٧٢ صرف بعث البحر إلى مكة وهم ثلاثة آلاف، وأسهموا في حصار ابن الزبير بمكة ثم في قَتْله[٤].

وفي سنة ٧٨ عُزِل حسان بن النعمان عن المغرب وَوَلِيَهُ موسى بن نصير[٥]. وقد قام كلا الواليين بفتوح وتنظيمات في شمال افريقية.

وكانت له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، وكانت له مائة جفنة يطاف بها عل القبائل تُحْمل على العجلة إلى قبائل مصر[٦].

وخلال ولايته على مصر وَفَدَ مرة واحدة على عبد الملك سنة ٦٧، وحضر مقتل عمرو بن سعيد[٧]، ثم خرج سنة ٧٥ إلى الشام[٨]. وظل في مصر إلى أن تُوفي سنة ٨٤، فَعَقَدَ عبد الملك ولاية العهد للوليد وسليمان[٩].

---

(١) الولاة للكندي ٣١٥ ـ ٣١٧.
(٢) الولاة للكندي ٣٢٠.
(٣) الولاة للكندي ٣٢٣ ـ ٤.
(٤) الولاة للكندي ٥١.
(٥) الولاة للكندي ٥٢.
(٦) الولاة للكندي ٥١.
(٧) الولاة للكندي ٥٩
(٨) الولاة للكندي ٥٠
(٩) ابن سعد ٥/٩٣.

أعمال عبد العزيز العمرانية

قام عبد العزيز بن مروان، إبّان ولايته، بأعمال عمرانية في الفسطاط نذكر منها:

١ . بنى عدداً من القيساريات ذكر منها «قيسارية العسل، وقيسارية الحمال، وقيسارية الكباش، والقيسارية التي يباع فيها البز، وهي التي تعرف بقيسارية عبد العزيز، وأدخل فيها من خطط الراية، وكان فيها خطة كعب بن عدي العبادي فعوضه منها داره في بن وائل»[١]. وقيسارية العسل هي التي حَوَّل إليها قرة بن شريك المِنْبر عندما هَدَّم المسجد لتوسيعه، فكان الناس يُصلون فيها الصلوات ويجمعون الجمع حتى فرغ من بنايته، وظلت القبلة في القيسارية بعده أمداً[٢]. أما قيسارية الكباش فهي من خطة قوم من بلي يقال لهم الدحادحة[٣].

٢ . بنى حمام ابن مرة، وكانت لرجل من تنوخ وهبها لعبد العزيز فبناها حماماً لزبان بن عبد العزيز[٤].

٣ . قصر ماريه، وكان خطة لابن رفاعة الفهمي فوهبها فبنى فيها قصراً لعبد العزيز بن مروان فبناه لأم ولد رومية يقال لها مارية، وهي أم ابنه محمد[٥].

٤ . اشترى دار نصر من صاحبها ووهبها لابنه الأصبغ (القلقشندي)[٦].

٥ . بنى داراً عظيمة بالفسطاط وسماها دار الذهب، وجعل لها قبة مذهّبة، وكانت تعرف بالمدينة لسعتها وعظمتها، وكان عبد العزيز ينزلها، ثم نزلها بنوه بعده، ثم ذكر ان حرطون بن محمد عندما هرب إلى مصر أمر باحراقها[٧].

---

(١) ابن عبد الحكم ١٣٦، وانظر١٢٣.
(٢) ابن عبد الحكم ١٠٥، الولاة للكندي ١٣١.
(٣) الولاة للكندي ١٣٦.
(٤) ابن عبد الحكم ١١٢.
(٥) ابن عبد الحكم ١١٢.
(٦) ابن عبد الحكم ١١٢.
(٧) صبح الاعشى ٣/ ٣٣١.

٦. اشترى قطيعة رمانة ووهبها لابن رمانة واعطى بعضها ابنه الاصبغ[١]، ولعل هذه الدار بالقرب من الدار المذهبة.

٧. وسّع الجامع في سنة ٧٩، وزاد من ناحية المغرب، وأدخل فيه الحبة التي كانت في بحريه، ولم يزد من شرقيه[٢].

٨. عمل سنة ٦٩ على فم الخليج، اولها عندما حل الحمراء ليستوصل من فوق هذه القنطرة إلى جنان الذهبي[٣].

٩. غرس جنان كتب بالجيزة[٤].

إعمار حلوان

عندما اجتاح الطاعون الفسطاط في السنة الثانية من ولاية عبد العزيز «فنزل بحلوان في داخل الصحراء، في موضع فيها يقال له البرقرقور، وهو رأس العين التي حفرها عبد العزيز بن مروان، وساقها إلى نخله التي غرسها بحلوان»[٥]، جعل بها الحرس والأعوان، وبنى الدور والمساجد وعَمَرَها أحسن عِمارة، وغرس نخلها وكرمها، فلما كان قرة على مصر أمره الوليد بهدم ما بناه عبد العزيز[٦] وبنى بحلوان مقياساً للماء صغير الذرع[٧].

أعمال إدارية

ذكر المقريزي أن عبد العزيز بن مروان هو أول من عرّف الناس بمصر سنة

---

(١) ابن عبد الحكم ١٠٣.
(٢) خطط المقريزي ٢/٢٤٨.
(٣) خطط المقريزي ٢/٢٣، ١١٧، ١٤٦.
(٤) ابن عبد الحكم ١١.
(٥) ابن عبد الحكم ٢٠١، ٢٣٦.
(٦) النجوم الزاهرة١/١٧٣، ٢١٩.
(٧) ابن عبد الحكم ١٦، الفضائل الباهرة ١٧٨؛ خطط المقريزي ٥٧.

٧٠[١]، وذكر أنه فرض على الرهبان ديناراً وهو أول جزية تؤخذ من الرهبان[٢].

وذكر الكندي أنه لم يخلف عند موته سوى سبعة آلاف درهم، وابنية بحلوان، والقيساريَّات، وبعض الخيل والدقيق[٣].

(١) الخطط للمقريزي ٢/٣٠٢؛ ولعله قصد: أعادة تعريف الناس.
(٢) الخطط للمقريزي ١/٤٢، ٢/٤٩٢.
(٣) الولاة للكندي ٢٠٣.

الفصل الرابع

سليمان بن عبد الملك

نشأته الاولى

كان سليمان ثاني أولاد عبد الملك بن مروان بعد الوليد، وأمهما ولاّدة بنت العباس العبسي[1] صاحب حيار بني القعقاع في أطراف قنسرين[2]، ولد في دار عبد الملك في بني حديلة بالمدينة[3]، سنة ٥٤هـ، وعاش طفولته عند أخواله بني العباس، فنشأ فصيحاً لا يلحن كأخيه الوليد، وعرف بترحيبه بالشعراء البارزين الذين قصدوه إبّان خلافته، ومن أبرزهم جرير والفرزدق والأخطل[4].

ولا ريب أنه شهد الحوادث العنيفة التي اجتاحت دولة الإسلام، ولا سيّما بلاد الشام والحجاز ومصر، غير أن صغر سنّه لم يوفر له فرصة الإسهام فيها، فأثّرت، بلا شك، في توجهاته الادارية والسياسية، وما تجلى في خلافته من جديته في العمل، وما روي عن تخوفه من الآخِرة وعقابها.

ذكرت المصادر تميز سليمان بحب الطعام وشراهته في الأكل[5]، وأوردت في ذلك أخباراً قد يكون بعضها مبالغات، إلا انها في أي حال سمات شخصية ليس لها أثر في الحياة العامة.

---

(١) جمهرة النسب لابن الكلبي ١/٨٥، جمهرة الانساب لابن حزم ٩١.
(٢) فتوح البلدان ٢٧٤.
(٣) نثر الدر للآبي ٣/٦٢.
(٤) مروج الذهب ١٧/١٧٨، وانظر: عيون الاخبار ٢/١١، ٤/٧١، ١٦٧.
(٥) انظر: مروج الذهب ٣/١٧٨ ـ ١٨٠، نثر الدر، ٢/٢٢٧.

وذكر المسعودي ان سليمان «كان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشْي، وفي أيامه عُمِل الوشي الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية، ولبس الناس جميعاً الوشْيَ جباباً وسراويل وعمائم وقلانس، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا في الوشْي، وكذلك أعمامه وأصحابه ومن في داره، وكان لباسه في ركوبه وجلوسه على المنبر، وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه إلا في الوشي، حتى الطباخ كان يدخل إليه في صدره وشي، وعلى رأسه طويلة وشي، وأمر ان يكفن في الوشي المثقلة»[1].

لم تذكر المصادر من أملاكه غير مزرعة السليمانية وهي خلف عذراء على أربعة عشر ميلاً من دمشق.

كان سليمان مقرباً من أبيه عبد الملك الذي حاول عزل اخيه عبد العزيز بن مروان عن ولاية العهد ليجعلها في ابنيه الوليد ثم سليمان؛ وقد امتنع عبد العزيز عن الموافقة على التنازل، وانحلت العقدة بوفاة عبد العزيز سنة ٨٥ فتيسر لعبد الملك أن يولي عهده ابنيه الوليد ثم سليمان[2].

و كان له أحد عشر ولداً أكبرهم أيوب الذي كان سليمان ينوي تعيينه ولي عهده، غير أنه توفى في حياة أبيه[3].

ولايته فلسطين

وَلّى الوليد أخاه سليمان على فلسطين، وظل في ولايته إلى أن تُوفي الوليد واعتلى سليمان الخلافة[4]، وكان عبد الملك قد وَلّى فلسطين أخاه أبان بن مروان[5]. ولم تذكر المصادر والياً عليها بعد أبان غير سليمان الذي يحتمل

(١) مروج الذهب ٣/ ٤٧٥، اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم ١٨، الطبري ٢/ ١٨٢٨.
(٢) ولاة مصر للكندي ٥٤.
(٣) التعازي للمدائني ٤٠، ٦٤، الانساب لابن حزم ٩٠.
(٤) فتوح البلدان ١٧٠.
(٥) انساب الاشراف ٥/ ١٦٦.

توليه فلسطين بعد ولايته الحج سنة ٩١[١]، ولم يرد خبر عن إسناد الوليد أي عمل آخر لسليمان.

كانت فلسطين إقليماً غير واسع المساحة، إلا أن له مكانة متميزة، ففيه بيت المقدس عند أهل الديانات الثلاث الموحدة، وفيه المسجد الأقصى الذي أسرى منه بالرسول (ص)، وذكر القرآن الكريم هذا الإسراء ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الاسراء/ ١]. وبيت المقدس هو البلد الوحيد الذي أبرمَ فيه خليفة عقدَ صلح مع أهله. وقد أحل الأمويون بيت المقدس مكانة متميزة، ففيه تمت بيعة معاوية[٢]، ثم عبد الملك للخلافة[٣]، وفيها شيّدوا المسجد الأقصى وقبة الصخرة[٤]، وهي من روائع العمارة الإسلامية القائمة حتى اليوم.

ومن مظاهر أهمية فلسطين في أوائل العصر الأموي مكانة ولاتها آنذاك، فقد ولأها مروان بن الحكم ابنه عبد الملك[٥]، ثم وَلأها عبدُ الملك أخاه عبد العزيز[٦] ثم وَلأها بعده أخاه أبان بن مروان[٧].

وكان مركز ولاة فلسطين في اللّد التي تبعد عن بيت المقدس قرابة عشرين كيلومتراً. وبعد أن وُلّيَ سليمان فلسطين نقل مركز اقامته إلى الرملة[٨] التي لا تبعد عن اللد أكثر من ميل[٩]، وقد عنى سليمان بالرملة، وجر الماء إليها، وبنى مسجدها[١٠]، ولم يكمله، واصبحت مركز اقامة الولاة من بعده[١١].

---

(١) تاريخ خليفة ١٨٢.
(٢) الطبري ٢/ ٤.
(٣) تاريخ خليفة ٢٥٧.
(٤) احسن التقاسيم للمقدسي ١٦٧ - ١٧١.
(٥) انساب الاشراف ٥/ ١٢٧، ١٤٩.
(٦) انساب الاشراف ٥/ ١٦٣.
(٧) انساب الاشراف ٥/ ١٦٦.
(٨) فتوح البلدان ١٤٢.
(٩) احسن التقاسيم ١٧٦.
(١٠) فتوح البلدان ١٤٢.
(١١) احسن التقاسيم ١٦٤، ابن خرداذبة ٧٨، قدامة ٢٢٨.

ويبدو ان إقامته في الرملة لم تكن طويلة، فقد حضر وفاة الوليد في دمشق وصلى عليه[1]، ولا بد أنه استقبل فيها مهنئيه بالخلافة، كما أنه قام خلال خلافته القصيرة بالحج وزيارة المدينة والطائف. ولا تشير المصادر إلى أنه عاد بعدها إلى الرملة، وانما تذكر اهتمامه باعداد الحملة على القسطنطينية، ولا شك ان ذلك استغرق زمناً كان خلاله يقيم في مركز تجمع القوات الإسلامية في دابق حيث توفى ودفن.

توجُّهات سليمان الخلقية والسياسية

وردت معلومات تعبر عن توجُّهات سليمان الإدارية والسياسية، فيروى ابن قتيبة: «قال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك: السلطان سوق، فما نفق فيه أُتي عنده[2]»، ولا ريب في أن إيراد هذا الخبر وعدم الإشارة إلى استياء سليمان منه يشير إلى رضاه به وإدراكه أهمية توجُّهات الحاكم الأعلى في توجيه الرعية.

ويروى أيضاً أن رجلاً قَدِم على سليمان وكان مما قاله له «أما الرغبة فقد وصلت إلينا وفاضت في رجالنا وتناولها الأقصى والأدنى، وأما الرهبة فقد أمنا بعدل أمير المؤمنين علينا وحسن سيرته فينا من الظلم، فنحن وفد الشكر»[3].

ويروى كذلك «أن سليمان بن عبد الملك قال: قد ركبنا الفارة، ووطئنا الحسناء ولبسنا اللين، وأكلنا الطيب حتى جمنا، ما انا اليوم بشيء أحوج منه إلى جليس أضع عنه مؤنة التحفظ فيما بيني وبينه»[4].

وحضر قوم في مجلس سليمان الكلام فقال: اللهم إن من تكلم فأحسن قدر أن يصمت فيحسن، وليس من صمت فأحسن قادراً على ان يتكلم فيحسن[5].

---

(١) تاريخ خليفة ٢١٢.
(٢) عيون الاخبار/١/٢، وانظر نثر الدر ٤/ ٢٣٤.
(٣) عيون الاخبار ١/ ١٠٦، ٢/ ١٦٨.
(٤) عيون الاخبار ١/ ٣٠٨، نثر الدر ٣/ ٦٠.
(٥) عيون الاخبار ٢/ ١٧٦.

وخاطبه أعرابي فقال «إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فيه بعض الغلظة فاضحك إن كرهته، فإن وراءه ما تحبه إن قبلته، قال هات يا أعرابي، قال فاني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن من عظتك تأدية حق». ثم انتقد حاشية سليمان وعماله، وكيف أنهم باعوا الدنيا بالدين، وانهم «لم يألوا الامانة تضييعاً والأمَّة عسفاً وخسفاً، وأنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا مسؤولين عما اجترَحْت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخِرتك، فان أعظم الناس غِبِّناً من باع آخرته بدنيا غيرك، فأشاد سليمان بصراحة لسان الأعرابي ولم يعاقبه»[1].

وقال لأبي حازم: ما بالنا نكره الموت، قال لأنكم عمرتم الدنيا وأخربتهم الآخرة، فانتم مكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب[2].

ومن خطبه: «إن الدار دار غرور ومنزل باطل، تضحك باكياً، وتبكي ضاحكاً وتخيف آمناً، وتؤمن خائفاً، وتفقر مثرياً، وتثري مقتراً، ميَّالة غرّارة، لعابة بأهلها. عباد الله: اتخذوا كتاب الله إماماً وارتضوا به حكماً، واجعلوه لكم قائداً، فإنه ناسخ لما كان قبله، ولم ينسخه كتاب بعده. اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كبد الشيطان كما يجلو ضوء الصبح اذا تنفس ظلام الليل اذا عسعس»[3].

يظهر من هذه الأقوال رحابة صدره في سماع النقد، وجديته، واهتمامه بسماع الملاحظات، عن سوء الأحوال، واهتمامه بأمر الآخِرة الذي يعبر عن تقدير للقيم المرضية الخالدة، وهي النزعة التي ظهرت لعمر بن عبد العزيز إبّان خلافته.

---

(١) عيون الأخيار لابن قتيبة ٢/٣٣٧ ـ ٨.
(٢) عيون الاخبار ٢/٣٧٠.
(٣) عيون الاخبار ٢/٢٤٧.

ومما يظهر جديته ما رواه الطبري أن سليمان سمع مغنياً قرب بستانه، فأمر بجلده[1]، وما وراه ابن النديم أنه أطلق في غداه ثمانين ألف أسير وأمرهم ان يمشوا ويلحقوا بأهلهم[2].

وصف المسعودي سليمان بن عبد الملك بأنه «لا يميل إلى سفك الدماء، ولا يستنكف عن مشورة النصحاء، وفيه حسن شديد»[3].

وقال عنه ابن قتيبة «افتتح بخير، وختم بخير»، لأنه رَدَّ المظالم، ورد المسيرين، وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة[4].

وأشار الطبري إلى أعماله الحسنة فقال «أطلق الأسارى، وخلى السجون، وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز»[5].

وقال فيه الشاعر:

يا أيها الخليفةُ المَهْدِيّ ... خليفةً يدعونه السَّنِيّ

وقال فيه الفرزدق:

إنّا لَنرجو أن يُقيم ... سُنَنَ الخلائِفِ مِنْ بَني فِهْرِ[6]

ونقل المسعودي عن كتاب عند بعض المتأخرين متحيز للأمويين وفيه يَذْكر أن للخلفاء من بني أمية ألقاباً كألقاب خلفاء العباسيين، ونقل من هذا الكتاب رواية نَسَبَها إلى محمد بن عبد الله بن محمد عن مصعب بن عبد الله عن ابيه عن جده هذه الألقاب، ومنها «القب سليمان بن عبد الملك بالمهدي لما أحدث

(١) الطبري ٢/ ٥٨١.
(٢) بغية الطلب لابن العديم ٥/ ١٢.
(٣) التنبيه والاشراف ٢٧٥.
(٤) المعارف ١٥٧.
(٥) الطبري ٢/ ١٣٢٧، نثر الدر ٤/ ٦٢ (ويذكر انه اطلق ثمانين الف اسير).
(٦) المعارف ١٥٠.

من قطع ما كان على المنبر وعهده إلى عمر بن عبد العزيز وتلقب هو «بالداعي إلى الله» وعمر بن عبد العزيز «بالمعصوم بالله»[1].

تبديل الولاة

أجرى سليمان بن عبد الملك خلال المدة القصيرة من خلافته تبديلاً في ولاة معظم الأقاليم الكبيرة. وهذه التبدلات تعبر عن عدم رضاه بكثير من التوجُّهات الادارية في زمن الوليد، اذ كانت للولاة، ومنذ اوائل الخلافة الأموية، سلطات كبيرة وصلاحيات واسعة في الادارة. وقد ابقى عمر بن عبد العزيز على كثير من ولاة سليمان، مما يدل على أن الخليفتين كانا متفقين على سوء الأحوال، وعلى إمكان معالجتها بتبديل الولاة، غير أنه من الصعب البت في صاحب الفضل الاول لمن ادرك ذلك واقترح علاجه، ولعلهما اشتركا في التشخيص، وكان لعمر بن عبد العزيز دور يصعب تحديدُه في توجيه سليمان.

لا ريب في أن أبرز ولاة الوليد هو الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي كان قد قضى على حركة عبد الله بن الزبير في مكة، بعد أن حصره في المسجد الحرام، كما وَلِيَ العراق وأقاليم المشرق الواسعة كافة، ومع أنه أفلح في القضاء على الحركات المناوئة للخلافة الأموية فثبتها ووطد النظام والاستقرار، كما وسع حدود الدولة في ماوراء النهر، إلا أن الاساليب الشديدة التي اتُّبعها كانت مثار استياء عند الكثيرين. كان عمر بن عبد العزيز مستاءً من حكم الحجاج، وقد نجا الحجاج من سليمان أنه توفى قبل أن يلي سليمان الخلافة. غير أن وفاته لم تُنْجِه من آثار كره سليمان الذي امر خالد بن عبد الله القسري والي مكة أن يلعن الحجاج، ففعل خالد ذلك على مضض[2].

---

(١) التنبيه والاشراف ٢٧٩ ـ ٢٩٠.
(٢) اخبار مكة للازرقي ٢/ ١٢٢، تاريخ مكة للفاكهي ٣/ ١٦٧.

ومن ذيول موقف سليمان من الحجاج عصيان قتيبة بن مسلم الباهلي والي الحجاج على الخراسان، وكان يؤيد الحجاج في بيعة عبد العزيز بن الوليد بعد أبيه، ثم ثار لانه أدرك ما انتظره من مصير سَيِّئ على يد سليمان[1]، ولم ينج محمد بن القاسم فاتح السند، من كره سليمان[2]. وقد أمر سليمان يزيد بن المهلب واليه على العراق أن يعزل عمال الحجاج، وأمر ان يبسط العذاب عليهم واستخراج الأموال منهم.

وعزل سليمان عثمان بن حيان المري عن المدينة وَوَلَّاها أبا بكر بن عمرو بن حزم، وَوَلَّى مكة عبدَ العزيز بن خالد بن عبد الله بن أُسيد، وَوَلَّى اليمن عروةَ بن محمد بن عطية، فابقاهم عمر بن عبد العزيز لما وَلِيَ الخلافة، غير أن عمر احدث تبديلاً في ولاة اليمامة[3].

وفي بلاد الشام وَلَّى سليمان يزيد بن حصين بن نمير على حمص، والوليد بن هشام المعيطي على قنسرين، فأبقاهما عمر بن عبد العزيز في خلافته.

وكان سليمان قد وَلَّى شُرَطَهُ كعب بن حامد العبسي، ووَلَّى قضاء دمشق سليمان بن حبيب، فأبقاهما عمر بن عبد العزيز في عملهما، غير أنه جعل على خاتمه رجاء بن حيوة، وعلى رسائله عبد الرحمن بن الخشخاش، مكان ليث بن أبي زرعة الذي كان يليها زمن سليمان[4].

---

(١) الطبري ٢/ ١٢٨٤، نثير الدر ٤/ ١١٧.
(٢) فتوح البلدان ٤٣٩.
(٣) الطبري ٢/ ١٢/ ١٢.
(٤) انظر التفاصيل ومصادرها ملحق كتابنا، دراسات في الادارة الإسلامية.

حج سليمان

من أبرز الحوادث في زمن خلافة سليمان قيامه بالحج، وكان الخلفاء الامويون من قبله قاموا بالحج، كل منهم مرة واحدة في خلافته[١].

حجّ سليمان في السنة الثانية من خلافته في أثناء شهر آب وهو في عز الصيف وجاور في حجه بمكة. أي أطال البقاء فيها وزار خلالها الطائف[٢]. وينبغي أن يكون قد اطال البقاء في المدينة أيضاً. غير أن المصادر لم تذكر المدة التي قضاها في كل من المدينة ومكة؛ ورافقه عمر بن عبد العزيز[٣] وعدد من الشعراء. ويذكر اليعقوبي انه عند حجه «عزم ان يبايع لابنه أيوب بولاية العهد من بعده»[٤].

عمل سليمان خلال إقامته في المدينة على تعزيز علاقته بأهلها لا سيّما من قريش، فيروي اليعقوبي أنه «قسم بين أهل المدينة قسماً، وفرض لقريش خاصة أربعة آلاف فريضة ولم يدخل فيها حليفاً ولا مولى فأجمع رأي مشيخة قريش أن جعلوها لحلفائهم ومواليهم ثم دخلوا عليه فقالوا: إنك قد فرضت لنا أربعة آلاف فريضة ولا تدخل علينا حليفاً ولا مولى فرأينا أن نكافئك ونجعلك في حلفائنا ومواليـنا فنحن أخف عليك مؤنةً منهم، ففرض أربعة آلاف فريضة أخرى»[٥]. ولم يذكر اليعقوبي مقدار ما فرض لغير قريش من أهل المدينة، وكذلك سبَب خَصّه الأول الحلفاء والموالي ولعله أدرك كثرتهم وقلة مواردهم فخصهم بذلك، وتظهر الأربعة آلاف فريضة كثرة عددهم.

ويروي الزبير بن بكار أن سليمان بن عبد الملك فرض للناس في خلافته

---

(١) انظر: التبر المسبوك فيمن حج من الملوك للمقريزي.
(٢) تاريخ مكة للفاكهي ٢/ ٢٠٠.
(٣) اخبار مكة للازرقي ١/ ٢٢٠.
(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٥٤.
(٥) المكان نفسه.

وعرض الفرض، وأن الغلمان كانوا يتطاولون ليدخلوا في العطاء[1]، ويذكر أيضاً أن سليمان أمر للمنذر بن عبد الله بن الزبير بألف دينار في دين وألف دينار معونة عن عياله، وبرقيق من البيض والسودان وكثير من طعام الجاري[2] ولعل كل هذا قد جرى إبان سنة حجه.

ذكر السمهودي سقاية سليمان بن عبد الملك في الجرف، وهي على ميمنة من خرج إلى الشام يعسكر بها خارج المدينة[3]، في الاطراف الشمالية الغربية من المدينة، وكانت مركز تحشد القوات من أهل المدينة، وعندها مزارع لعدد من المهاجرين المقيمين في المدينة، ولعل هذه السقاية اقيمت خلال زيارة سليمان المدينة في طريق حجه.

يروي محمد بن حبيب أن سليمان بن عبد الملك، عندما حج، مر بالمدينة منصرفاً أتي بأسرى الروم وهم أربعمائة، وأنه أمر بقتلهم[4]، ولم يذكر مسوغاً لهذا العمل القاسي المباح قانونياً، ولكنه قلما نفذ عملياً ولعل الأصح أنه أطلق سراحهم.

ويروي الأصبهاني أن سليمان كتب إلى والي المدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم أن يحصي المخنثين في المدينة، وحدث خطأ في الكتاب فخصى الوالي عدداً منهم[5]، وهو قرار شديد ولكنه يعبر عن عدم رضى سليمان بالتفسخ الذي كان من عوامل انتشاره هؤلاء المخنثون.

أما في مكة فذكر الأزرقي أن خالد بن عبد الله القسري، والي مكة في زمن

---

(١) الاغاني ٤/٤؛ وانظر الفصل الذي كتبناه عن العطاء في كتابنا «الحجاز في صدر الإسلام».
(٢) الاغاني ٤/٥.
(٣) وفاء الوفا ٢/١٩٩، ويذكر البلاذري قصر سليمان بن عبد الملك «انساب الاشراف» ٣ ـ ٢/ ١٠٦؛ وانظر عن موقعه الفصل الذي كتبناه عن خطط المدينة في كتابنا «الحجاز في صدر الإسلام».
(٤) النقائض ٣٨٣ الاغاني ١٥/ ٣٤١.
(٥) الاغاني ٤/ ٢٧١.

خلافة الوليد وسليمان، «أول من استصبح بين الصفا والمروة في خلافة سليمان بن عبد الملك في الحج وفي رجب»[1].

ولعلّه، بأمر من سليمان، عمل خالد القسري مجرى من ثبير من حجارة وأحكمها وبدل ماءها وشق لها فيما يسكب من شعب في الجبل، ثم شق من البركة عيناً تخرج إلى المسجد الحرام ثم جرّه في قصب من رصاص حتى أظهره من فوارة تسكب في سقيفة من رخام بين زمزم والمقام[2].

أحدث خالد القسري أعمالاً تابعه فيها من تلاه، ومن المحتمل أن بعضها أُحدث في زمن خلافة سليمان، ومما عمله التكبير في شهر رمضان حول البيت، وإدارة الصفوف حول البيت، والتفرقة بين الرجال والنساء في الطواف والشريد الخالدي، وكان خالد القسري أول من حمل على قريش بمكة وأظهر العصبية عليهم، وهو أول من اظهر اللعن على المنبر بمكة في خطبته[3].

زار سليمان خلال هذه الرحلة الطائف «فأصابه في ذهابه إلى الطائف ما هَالَهُ وأفزعه من مطر وريح شديد ورعد وبرق»[4]، وكان برفقته عمر بن عبد العزيز الذي ذكر سليمان بهول يوم القيامة، وهذه أول إشارة إلى موقف ايجابي لعمر في التخويف من الآخرة.

متابعة الفتوح

تابع سليمان بن عبد الملك الفتوح، وكان أبرزها في زمنه فتح جرجان وما يقاربها من مناطق طبرستان، وكانت هذه المنطقة خارجة عن هيمنة الدولة الإسلامية، وتقطع الطريق بين خراسان وشمال الهضبة الايرانية، فلما تم فتحها

(١) الازرقي ١/ ٢٨٧، الفاكهي ٠/ ١٤٥.
(٢) الازرقي ١/ ١٠٧ ـ ٨، الفاكهي ٢/ ٣٥٨٢/ ١٦٠، التبر المسبوك ٣٢ ـ ٣.
(٣) الفاكهي ٣/ ١٠٦.
(٤) ابن عبد الحكم ٢٦، الفاكهي ٢/ ٣٠٠.

بجيش يقوده يزيد بن المُهلَّب، فُتح هذا الطريق ذو الاهمية البالغة للتجارات بين العراق وخراسان[١].

وفي السِّنْد عزل سليمان محمد بن القاسم الثقفي وولاها حبيب بن المهلب فوسع سلطان العرب في أطراف نهر مهران[٢].

غير أن أكبر عمل عسكري لسليمان هو الحملة التي أنفذها لفتح القسطنطينية، وهي قاعدة دولة الروم التي ظلت مصدر خطر يهدد بلاد الشام قاعدة الخلافة الأموية، فضلاً عن تهديدها مصر.

أعد سليمان بعد عودته من الحج حملة وَلَّاها أخاه مسلمة بن عبد الملك، وهو أكفأ قائد في زمنه، وحشد لهذه الحملة الإمكانيات الكبيرة المتوافرة، وقيل ان قوامها ثمانون ألفاً، وهو أكبر عدد حشده المسلمون حتى ذلك الوقت، ولا بد ان إعداده يتطلب جهوداً لتوفير الاسلحة والأموال والمستلزمات الأخرى. والراجح أن سليمان قام بهذه الأعمال بعد عودته من الحج، حيث أقام في دابق، التي كانت مركز تجمع القوات الإسلامية التي تهاجم بلاد الروم، وقد ظل فيها إلى وفاته[٣]، وكان معه فيها عمر بن عبد العزيز «واعطى الله عهداً ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى هدم القسطنطينية[٤]».

ولا شكَّ أن معظم القوة التي ارسلت إلى القسطنطينية كانت من مُقاتِلة بلاد الشام، لأن القوات في العراق كانت تقوم بالسيطرة على جرجان وشمالي هضبة إيران، أما القوات في خراسان والسند والاندلس فلم يمكن ضمها إلى هذه القوة بسبب الحاجة إليها في تلك الأقاليم.

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٤٤٠.
(٢) الطبري ٢/١٣٠٦ ـ ١٣١٦.
(٣) الطبري: ٢/١٣١٥.
(٤) الطبري: ٢/١٣١٦.

وشارك في هذه الحملة من مصر مقاتلون عليهم أبو عبيد بن عقبة بن نافع الفهري[١]، لم تذكر المصادر عدد رجالهم.

ومن المؤكد أن عدداً من مقاتِلَة أهل الحجاز شاركوا في الحملة ولا سيّما أن سليمان كان قبل إنفاذها قد زاد في فرائضهم.

وقد شارك أسطول مصر في هذه الحملة أيضاً، وكان على الاسطول عمر بن هبيرة الفزاري[٢].

(١) الولاة للكندي: ٦٩.
(٢) الطبري: ٢/١٣٠٦، وانظر كتاب الاستاذ محمد عبد الهادي أبو شعيرة La Lutte entre Byzance et les Arabes

الفصل الخامس

الأحوال العامة وسماتها

تُوُفِّيَ الرسول (ص) بعد أن قضى ثلاثاً وعشرين سنة وضَّح فيها، بعد جهود كبيرة، معالم الدين الإسلامي، وثبَّت دعائم دولته، ومدّها إلى أرجاء واسعة في شبه جزيرة العرب، وعبّر القرآن الكريم عن ذلك في آخر ما نزل منه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة/ ٣].

وشَهِدت دولة الإسلام أول أزمة فور وفاة الرسول (ص) حين انتفض أكثر أهل الجزيرة العربية في حركات ردة وانشقاق، تحدى بعضها الدين، وأكثرها تحدّى سلطة الدولة. غير أن الخليفة الأول أبا بكر الصديق استطاع، بحزم وفطنة، القضاء على هذه الحركات كافة في أقل من سنتين، وأعاد إلى الإسلام مكانته، وإلى دولة الإسلام سلطانها، ولم يتوانَ بعدها عن توجيه الجيوش ممن ثبت على الإسلام إلى أطراف الجزيرة، وأهلها من العرب، وأحرزت هذه الجيوش انتصارات أوّلية عزَّزت الثقة بالإسلام ودولته.

وتابع الخليفة عمر بن الخطاب عمل الخليفة أبي بكر، فتابع إنفاذ الجيوش التي ازداد عدد رجالها بسماحه إلى المرتدين السابقين أن ينضموا إليها، وأحرز انتصارات كبيرة على جيوش الفرس والروم، ووسّع الدولة الإسلامية لتشمل العراق، وبلاد الشام، والجزيرة الفراتية ومصر، في مدة لم تتجاوز أربع سنوات، عمل بعدها على تنظيم الإدارة مما يضمن دوام الدولة، القائم على الأمن والاستقرار والعدالة؛ وكان أهل هذه الأقاليم مرتبطين بعرب الجزيرة

بوشائج الدم والتوجهات الاجتماعية والثقافية، مما يَسَّر عمله في تثبيت سلطان الدولة.

ولما اغتيل عمر بن الخطاب، بعد أن قضى في الخلافة عشر سنوات، تلاه في الخلافة عثمان بن عفان الذي أبقى تنظيمات عمر، إلا أنه قام بتوسيع الدولة، فوصلت جيوش الإسلام إلى أطراف تونس في الغرب، وخراسان في الشرق. وهو تَوَسُّع كبير ولَّدَ كثيراً من القضايا، وأنمى عدداً من المشاكل التي أثارت استياء عدد من المقاتِلَة ذَكَرت الكتب من مراكزها الفسطاط والكوفة والبصرة، وبلغت حدّ التقدم إلى المدينة وهم يحملون السلاح؛ وكان هؤلاء المتقدمين بين مئتين من البصرة، وحوالي ثلاثمائة من الكوفة، وست مئة من الفسطاط، وكلهم من العرب؛ وعددهم قليل إذا قورن بالعدد الكبير من مقاتِلَة هذه الأمصار الثلاثة؛ ولا بد أنهم كانوا «رأس رمح» لعدد اكبر من المتذمرين لم تذكر المصادر عددهم، أو تفاصيل ما أثار استياءهم، أو سبب عدم تمكن الوُلاة من إزالة عوامل تذمرهم أو منعهم من التقدم بسلاحهم إلى الخليفة[1].

وتلا مقتلَ عثمان أحداثٌ عنيفة استعمل فيها السلاح، وتمحورت أخبارها حول رؤساء المساهمين فيها في موقعتي الجمل في البصرة، وصفين؛ وكان رؤساء كل من هاتين الموقعتين من كبار الصحابة العرب، معتمدين على أنصار من العرب، في العراق وبلاد الشام، وهم يقاتلون للدفاع عن مطامح رئيسيهما: علي ومعاوية، دون حديث عن عوامل التذمر من عثمان.

غير أن تحدُّد القتال بين مقاتلي الكوفة ومقاتلي الشام، في منطقة محدودة من منطقة الفرات، لا يعبر عن الواقع الذي يدل على أن آثار هذه الأحداث امتدت إلى مناطق أوسع. ومست عدداً أكبر من المقاتلين، ولم تفصِّل الأخبار التي وصلتنا هذه الأحداث، واقتصر كثير منها على تسميتها «الفتنة» وتأكيدهم أنها أول الأحداث التي شهدتها الأمة ولم تقتصر على الحكام أو تنحصر فيهم، وإنما شملت المجتمع والجماهير. و«الفتنة» تعبير ورد في القرآن الكريم بعدة

---

(١) أنظر «الفتنة» لهشام جعيط؛ و«الفتنة الكبرى» لطه حسين.

معانٍ بما لا يستحب، وأكثر ما وردت في الإجبار على ترك الإسلام والعودة إلى الكفر. وظل بعد ذلك يستعمل بعدة معانٍ جماعها «الابتلاء والامتحان والاختبار»، وهي أقرب إلى ما نسميه اليوم الأزمات العارمة؛ وهي بصرف النظر عن المشاركين فيها كان فيها مظاهر الفوضى والتدمير، وليس فيها من دلالات البناء؛ وهي من حيث العموم تتحدى السلطان الذي مهما كانت عيوب إدارته، فهي خير مما يحد بفقدانه[1]؛ فهي عموماً مستهجنة؛ وان كانت تظهر ما يحدثه فقدانه من نتائج يُغفل أكثر المؤرخين الأولين ذكرها، ويقتصرون على ذكر مظاهرها.

ولما اغتيل الخليفة علي على يد رجل من أهل الكوفة، وكان قد فقد قبل اغتياله، سيطرته على مصر وأقاليم غرب الجزيرة، واستتبت الخلافة لمعاوية الذي حرص على رأب الجروح ولَمّ الشمل، وتثبيت الوحدة، ولو ظاهرياً، وعُني بتنظيم الإدارة والمجتمع وإقامة مراكز جديدة في أطراف الدولة يُلْقى على مُقاتِلَتِها الواجب الأكبر في التوسع الخارجي الذي تابعه وكان من آثاره تركز الروح العسكرية في هذه المراكز الجديدة وتناقص دور الأمصار القديمة في الإسهام العسكري وما يرافقه من إضعاف الروح العسكرية في هذه المراكز لتحل محلها تدريجياً الروح الحضرية التي ازداد نموها، ولا سيّما في ميدان التجارة والصناعة، وميدان الفكر.

وبعد وفاة يزيد بن معاوية وتنازل ابنه عن الخلافة استعرت الخلافات الداخلية، واستعمل السلاح الذي يحمله المقاتلون العرب من أجل تثبيت سلطان أفراد ذوي طموحات سياسية يرأسها بيتان رئيسيان: الزبيري والأموي اللذانِ ظهر في كل منهما انقسامات قائمة على طموحات شخصية فالمنذر بن الزبير قاتل مع الأمويين أخاه عبد الله، وأقدم عبد الملك بن مروان على قتل عمرو بن سعيد بن العاص، وبرزت في هذه المشاحنات مكانة الأفراد. ولكلٍ من أفراد

---

(١) تتفق الفرق الإسلامية على ضرورة وجود خليفة، ولم يقل بعدم ضرورته إلا الاصم. انظر «الأحكام السلطانية» للماوردي.

بعضهم موالي «يقاتلون معه لتثبيت مكانته وإعلائها»، وليس لتثبيت أفكار سياسية. وشارك مقاتلو «أهل الديوان» في كثير من القتال الذي حدث، بحكم تعودهم على تنفيذ أوامر السلطة أكثر من كونهم مؤمنين بأفكارهم السياسية.

أفلح عبد الملك بن مروان، بعد جهد كلفه رجالاً وأموالاً، في القضاء على منافسيه، فَخَلَصت له الخلافة، وأعاد الوحدة الظاهرية والسلام إلى الدولة خلا الخوارج الذين لم يفلح الأمويون الاوائل في القضاء على حركتهم التي كان مسرحها في جنوب العراق والأطراف الشرقية من شبه جزيرة العرب. غير أن حركاتهم القائمة على العقائد لم تلق رواجاً في الأمصار القديمة، والمُحْدَثة، وظلت معتمدة على أهل الريف والبادية.

كانت هذه الانقسامات أساس فِرَق وأحزاب عقائدية تخالف السلطات الحاكمة التي اعتمدت على تقرير الناس لحياة السلم الذي توفره هذه السلطة، ولذا يجب طاعتها «الكافة والجماعة».

عاصر عمر بن عبد العزيز في نشأته الاولى حوادث متتابعة جرى في كثير منها قتال بين العرب، لا لتوسيع الدولة وتثبيتها، وإنما لتحقيق مطامح شخصية لرجال متنفذين يطمعون في الحصول على ما يؤمن لهم مكانة أكبر، أو لتعزيز مكانتهم، إذا كانوا في الحكم، ودحر مناوئيهم بالقوة، فالطاقات العسكرية العربية استخدمت للتناحر بينها وإضعافها من أجل تعزيز مكانة عدد محدود من المتنفذين ومن يحيط بهم، فهي، فضلاً عما تسببه من ضحايا في الأفراد وخسائر في الأموال، تسبب شرخاً في وحدة المُثُل الإسلامية، وهما مصدر القوة للإسلام، واستخدام المقاتِلَة من شأنه أن يعزز الروح العسكرية وتوجهاتها في السلوك والمثل الأخلاقية التي تمجد القوة المادية، لا الفكرية، وتعمق، بصوره لاشعورية، روح تقدير القتل الذي قد يَسْرِي إلى الحياة المدنية، وهو ما يناقض أحد المبادئ الاساسية التي حرص الرسول (ص) على تثبيتها بتحريمه القتل.

إن الحوادث التي خشي فيها القتال بين المقاتلين العرب، وكان مسرح بعضها العراق، وكثير منها في الحجاز ومصر وبلاد الشام، وهي الأقاليم التي تنقل فيها وحدها طوال حياته، بدأت منذ أواخر خلافة عثمان، إذ قام مقاتلون يتزعمهم رجال من «العسكر» بأحداث عنف، وكانت شرارتها الأولى من مصر حيث تقدم مقاتلون يقودهم معاوية بن حديج، وهو قائد أسهم في فتوح شمالي افريقية في خلافة عثمان، ثم تابع دوره في زمن الأمويين الاوائل.

دونت كتب التاريخ العربية أخبار حوادث هاتين الفتنتين، والدور البارز لعدد من كبار المسهمين فيها، ولكنها أغفلت الإشارة إلى عوامل توسعها وصداها في الرأي العام للجماهير والعامة ممن يُكوِّنون السواد الأعظم للأمة و تؤثر في توجهاتهم قوى قد تبدو خفية غير ظاهرة ولكن عند نشاطها يكون لها الأثر الأكبر في تحويل هذه الحركات إلى «فتن عارمة».

ومن أبرز الظواهر لهذه الانفجارات أنها كانت تحدث في آخر كل خمس وعشرين سنة تقريباً. فالفتنة التي أدَّت إلى مقتل عثمان وما تلاها من أحداث، استعرت سنة خمس وثلاثين، أي بعد خمس وعشرين سنة من وفاة الرسول (ص)؛ والفتنة التي تلت وفاة يزيد حدثت بعد قرابة خمس وعشرين سنة من اغتيال الخليفة علي واستتباب الخلافة لمعاوية واستقرار عام الجماعة. وبهذا التقدير كان ينبغي ان تحدث فتنة بعد حوالي خمس وعشرين سنة من استقرار خلافة عبد الملك، اي في حوالي السنة التي ولي فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة؛ وكان كثير من الناس، وربما أغلبهم، يتوقعون حدوثها، وغذت مشاعرهم تنبؤات وغيبيات انتشرت فطوت اعتقاداتهم في ذلك، بالرغم من أنها لم تقدم تبريراً لذلك، وكان انتشار هذه الأفكار ممهداً لحدوثها دون أي تقدير لِما في ذلك من أخطار تفكك تماسك الأمة واستقرارها. ولا بد أن عمر بن عبد العزيز كان يعلم بانتشار هذه الأفكار، وأخطار عدم السيطرة على هذه الفتن ومنعها. ويبدو أن هذه الأفكار تثبتت عنده مؤخراً بعد حياة الترف التي كان

يحياها في شبابه؛ ولذلك قام، بعد توليه الخلافة بأعمالٍ من شأنها طمس أسباب الفتنة، وهو ما كانت تؤول إليه أعماله التي سنبحثها في هذا الكتاب. ومن المفيد أن نذكر أن الانفجار التالي حدث بعد مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٨هـ، أي بعد خمس وعشرين سنة من خلافة عمر بن عبد العزيز.

ومع كثرة الأحاديث عن هذه التوقُّعات، إلا أنّ أحداً لم يقدم تبريراً لحدوثها. وإننا نرى أن من أقوى العوامل في تكرار «الانفجارات» كل خمس وعشرين سنة هو التطورات الناجمة من طموحات الشباب الذين يتحينون الفرص لانتزاع السيطرة من «الشيوخ». وكثيراً ماتستغل حوادث «جزئية فتدفعها إلى ثورات عارمة وفتن»؛ وهذه أحوال دوَّن البعض ملاحظاتهم عنها، ولكن لم يولها أحد شيئاً من الدراسات المستفيضة[١]. ويلاحظ أن عمر بن عبد العزيز وُلِّي الخلافة وهو في سن لا تَبْعُد عن سن الشباب الذي عايش خلالها حياتهم. ولا بد انه أدرك مطامحها وأخطارها ففقد السيطرة عليها عند انفجارها، فعمل بصورة شعورية أو لاشعورية على معالجتها.

إن الثورات التي تحدث تكون واسعة بين الجماهير، ويرافقها انتشار أفكار «من الغيبيات» يعزز انتشارها ويقوى أثرها في توجيه العامة، وتكون قوة فاعلة جديرة بالاهتمام عند دراسة الحركات العامة في التاريخ، وتستحق أن نخصها بفصل خاص لعلاقتها بخلافة عمر بن عبد العزيز وتوجهاته ومكانته.

تزداد أهمية التطلع إلى المستقبل واستباق معرفة حوادثه إبان الأزمات، وتتسع مكانة من يدّعي القدرة عليه تبعاً لشدة هذه الأزمات وامتدادها، ومن المعلوم أن من أخطر الأزمات التي واجهها المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام هو ما حدث عند موت يزيد بن معاوية حين هُدِّدَ وجود الخلافة

---

(١) أكملت بحثاً عن تركيب الشباب ودورهم ودور العامة وسماتها في تطور الأحداث في المجتمع الأسلامي.

الجامعة للامة، وتعدد المدعون بالخلافة، واستعملوا القوة العسكرية فزادوا من التأزم والاضطراب.

علم ما يكون

لم تستنكر المصادر هذه القدرة، وأوردت عن قدرات بعضهم أخباراً قليلة يتصل معظمها بأحداث بارزة في الدولة، ويمكن تصنيف قدراتهم ومصادرها إلى أصناف: منها «علم ما يكون»، والتنجيم، والملاحم، وما في كتب الاقدمين.

فأما «علم ما يكون» فهو كالتنبؤ بأحداث المستقبل واستشرافه، وهو يكتسب أهمية وشعبية في أوقات الأزمات، ويعتمد على مواهب شخصية لأفراد لهم القابلية على ذلك، ولا ينحصر في ميدان محدد من الحياة، أو الأزمات السياسية والفتن، وإنما يعتمد على الحس الصادق، وهو ما تعنى بدراسته الباراسيكولوجيا التي تلقى حديثاً اهتماماً كبيراً، وإن ادَّعت أنها توصلت إلى الحقائق الثابتة المعتمدة.

ذكرت المصادر أنه ممن كانت لهم القدرة على استشراف المستقبل «الاصبغ بن عبد العزيز، أخو عمر»، الذي كان عالماً بخبر ما يكون، ومن ولده دحية بنت مصعب بن الاصبغ التي كانت عالمة» بما يكون[1]. ويقول ابن قتيبة إن الأصبغ تنبأ بأشجّ بني مروان الذي يملكها، وكان عمر بن الخطاب يقول إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر، يملأ الأرض عدلًا، وينقل عن الاصمعي «قال هو في كتاب دانيال الدردوق الأشج»[2]. ويذكر البلاذري «الأصبغ بن عبد العزيز كان له قدر في بني امية يتعاطى الزجر والنجوم»[3].

وممن ذكرت المصادر له هذه المواهب حبيب أكبر أولاد عبد الله بن الزبير، ذكر عنه مصعب الزبيري «كان حبيب يعلم علماً كثيراً مع فضل

(١) ابن قتيبة: المعارف.
(٢) ابن قتيبة: المعارف.
(٣) انساب الاشراف: ٥/ ١٨٥.

وصلاح»[1]، وقال الزبير ابن بكار «كان حبيب قد لقي كعب الأحبار ولقي العلماء وقرأ الكتب، وكان من النساك، وأدرك أصحاباً يذكرون كان يعلم علماً كثيراً لا يعرفون وجهه ولا مذهبه يشبه ما يدّعيه الناس من علم النجوم، ويذكر أنه ذكر للناس قتل عمرو بن سعيد الأشدق ساعة قتله وهو بعيد عن الحادث[2].

التنجيم

التنجيم في الأساس معرفة تركيب الأفلاك وحركتها وهيئة الأرض[3]، ثم تطورت منه دراسة دلالات الكواكب على ما سيحدث في المستقبل، وعلى كثير مما هو الآن موجود، مما تقدم[4]، وكان أساسه أساساً علمياً صرفاً، وهو مقتصر على علماء مختصين. أما دلالات الكواكب على الأحداث الدنيوية، فقد عُنِيَ الناس بمتابعته دون الاقتصار على علماء الفلك.

وذكرت المصادر لبعض الخلفاء منجمين. وللحجاج منجم اسمه سفيان، أيد ما قاله راهب من أن يزيد سيخلف الحجاج[5]. ولعل خلفاء وولاةً آخرين كان لهم منجمون، أو أنهم يستمعون برضى عن قول المنجمين، فأما في زمن العباسيين، فإن الحارث المنجم أمَّنَ أبا جعفر المنصور من ضعف خطر ثورة محمد النفس الزكية وفشلها[6]، وكان ثوفيل بنكيا النصراني المنجم رئيس منجمي المهدي[7].

يذكر شكر زاده ما يدل على أن عمر بن عبد العزيز لم يكن يعتقد بالتنجيم،

---

(١) نسب قريش لمصعب: ٢٤٠.
(٢) جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار: ٣٦.
(٣) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ١٢٥.
(٤) المسعودي: التنبيه والاشراف ٢ ـ ٤، وانظر: نالينو: تاريخ علم الفلك عند العرب ١٨.
(٥) ابن حبيب: المغتالين ضمن نوادر المخطوطات ٢/١٧٨.
(٦) مقاتل الطالبيين: ٢٦٥.
(٧) أخبار الحكماء للقفطي ١٠٩.

فيروى أنه خرج من المدينة العصر في الأذان[1]، فلم يتشاءم وقال: «إنّا لا نخرج بشمس ولا بقمر، ولكن نخرج بالواحد القهار» غير ان المعلومات المتوفرة تشير إلى انه كان متأثراً بها.

تنبؤات أهل الكتاب

يقصد بأهل الكتاب، في المصادر الإسلامية، اليهود والنصارى، وقد ذكر «الكتاب» في آياتٍ من القرآن الكريم يدل سياقها على انه الكتاب الذي نزل على موسى، ونص على ذكر التوراة والانجيل، واعتبرها المسلمون كتباً مقدسة من حيث ان تعاليمها مطابقة لتعاليم القرآن، واشارتها إلى الرسالة المحمدية، وتشير إلى تشويه تعرض له كتاب موسى، ولا تشير إلى كتب الأنبياء الآخرين، أو احتوانها تنبؤات عن أحداث المستقبل، أو ما نسميه «الإسرائيليات» وهي معلومات تتعلق ببني إسرائيل، استقى كثير من علماء المسلمين معلوماتها من أهل الكتاب، وأشاروا في مساند رواياتهم إلى بعض من نقلوا عنهم.

في المصادر أخبار عن أقوال لعدد من اليهود والنصارى فيها سمة التنبوء عن المستقبل، ولا سيّما بما يتعلق بما يلاقيه بعض الأفراد أو الناس، وفي إنشاء المدن، وهم يذكرون أن المعلومات التنبؤية يجدونها في «كتبهم» أو «في الكتب» دون أن يذكروا أسماء هذه الكتب التي أخذوا منها معلوماتهم. وذكرت المصادر أسماء بعض القائلين، ورُتّب البعض، كأنْ يكون «رأس الجالوت» أو «راهب» وأكثر تنبؤاتهم تتصل بالمناطق التي يقيمون فيها.

لا ريب في أن المعلومات التي وصلتنا من مصادر عربية مكتوبة هي أقل مما كان قائماً في الواقع، وأن مصادرها غير الإسلامية تدل على سعة اهتمام هؤلاء بهذه الأمور، ولعل بجانب هذه الحوادث الفردية القليلة حوداث أوسع، ربما أثّرت الأفكار والتوجهات غير الإسلامية في توجيه الرأي العام العربي.

---

(١) مفاتيح السعادة: ١/ ٢٩٩.

يروي نصر بن مزاحم أن الخليفة علي بن أبي طالب مرّ بظهر الكوفة ويحث عن ماء فلم يجده، ثم دله عليه صاحب دير هناك، قال لعلي «ما بُنِيَ هذا الدير إلا بذلك الماء، وما استخرجه إلا نبي أو وصي نبي»(١).

ويروى أيضاً أن الخليفة عليًّا لما نزل الرَّقة «نزل راهب هناك من صومعته فقال لعلي: إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا كَتَبَه أصحاب عيسى بن مريم أعرضه عليك.. ثم ذكر الكتاب وفيه أن أمة المسيح تختلف فيما بينها» فيصير رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات، يأمر بالمعروف ويَنْهَى عن المنكر ويقضي بالحق، ولا يرتشي في الحكم... «وأن الخليفة حمد الله على ذكره في كتب الأبرار، وأن الراهب، صاحِبَ الخليفة، تم قتله في صفين»(٢).

روى الطبري أن عمر بن الخطاب لما فتح إيلياء (بيت المقدس) سأل يهوديّاً عن الدجال «وكان كثير المساءلة عنه»(٣)، ويَرْوي الطبري أن رأس الجالوت كان إذا مر بكربلاء يُرْكِضُ دابته، وأنه قال «كنا نتحدث أن ولد نبي مقتول في ذلك المكان، وكنت أخاف أن أكون أنا، فلما قتل الحسين قلنا هذا الذي كنا نتحدث»(٤).

وذكر ابن سعد أن محمد بن الحنفية تحدث إلى عبد الملك بن مروان، فأرسل عبد الملك إلى رأس الجالوت يسأله عن ادعاء ابن الحنفية انتقال الخلافة إليهم «فقال رأس الجالوت ما خرجت هذه الكلمة إلا من بيت نبوة»(٥).

ويروي المدائني: «قال أبو ماوية أو غيره من اليهود ليزيد بن عبد الملك

(١) وقعة صفين: ١٤٥.
(٢) وقعة صفين: ١٤٧ ـ ٨.
(٣) الطبري ٢٨٠٤/١.
(٤) الطبري: ٢٨٧/٢.
(٥) ابن سعد: ٨٤/٥.

إنك تملك أربعين سنة، فقال رجل من اليهود كذب عدو الله، إنما رأى أنه يملك اربعين قصبة، والقصبة شهر فجعل الشهر سنة[(١)].

وتنبأ رأس الجالوت لهشام بن عبد الملك بقيام دولة بني العباس[(٢)].

أما تنبُؤات النصارى فقد نُسبت إلى الرهبان، ولم يُنسب أي منها إلى رجال الإكليروس. فقد ذكر محمد بن حبيب أن الحجاج أُخبر عن راهب بطريق العلم بعلم بارع، فقال الراهب للحجاج «بلى مكانك يزيد»[(٣)].

ولما عزم الحجاج على بناء مدينة يقيم فيها جنده، بال حماره في موقع واسط، فقال راهب «نجد في كتبنا أنه يُبْنَى في هذا الموضع مسجد يعبد فيه الله ما دام في الأرض أحد يوحده، فاختط الحجاج مدينة واسط، وبنى المسجد في ذلك الموضع»[(٤)].

وتجدر الإشارة إلى أن أبا جعفر المنصور اختار موقع بغداد، والمعتصم اختار موقع سامراء بناءً على قول رهبان انهم يجدون في كتبهم أن مدينة ستبنى في ذلك الموقع[(٥)].

ولم تذكر المصادر تنبؤات لأهل الكتاب تتعلق بعمر بن عبد العزيز، ولا ذكرت أنه كان يَسْأل أحداً منهم.

كعب الأحبار

ومن أوائل مَنْ ذَكَرت المصادر خبرته في استشراف المستقبل هو كعب بن ماتع الحميري المشهور بكعب الأحبار، وهو ابن يهودي من اليمن، أسلم في

---

(١) الطبري: ٢/ ٤ ١٤٦.
(٢) اخبار بني العباس ١٧٢.
(٣) المغتالين: نوادر المخطوطات: ٢/ ١٧٨.
(٤) بحشل/تاريخ واسط: ٣٦، الطبري: ٢/ ٧ ـ ١١٥.
(٥) الطبري: ٣/ ٣٧٤؛ بغداد لابن الفقيه ٣٤.

زمن الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يسائله عن وصف البلدان[١]، ومات في الشام في زمن خلافة عثمان بن عفان[٢] ووصفه معاوية بأنه «أحد العلماء»[٣] وكان الزبير يحتفظ ببعض كتبه.

تُظهر النصوص أن كعباً في كلامه عن المستقبل كان يصرح بأن معلوماته قائمة على «ما جاء في الكتب»[٤] وفي كتبنا، وخصها في بعض النصوص «التوراة»[٥] وسماه «كتاب الله»[٦] ونقل عنه أقوالاً نسبها إلى هذه الكتب عن مكة وزمزم وفضل الحج.

ومن أبرز تنبؤات كعب قوله لعمر بن الخطاب إنه لا يموت إلّا شهيداً، وكان حاضراً جرح الخليفة ووفاته[٧].

أطرى كعبٌ عبد الله بن عباس وَوَصَفه بأنه «رباني»[٨]، وطلب شفاعة علي بن الحسين[٩]. غير أن ابن أبي الحديد يروي «أن جماعة من أهل السير [يَرْوُون] أن علياً كان يقول عن كعب الأحبار إنه لكذاب، وكان كعب منحرفاً عن علي[١٠] وينقل ابن أبي الحديد عن ابن عباس ومحمد بن حبيب أن عمر بن الخطاب ضجر من الحكم واراد أن يعهد إلى من يقوم بالأمر فقال له: «إنه يجد في كتبهم أن علياً لا يصلح للولاية» وذكر أسباب ذلك، مشيراً إلى أن كتبهم لم تنصّ على أسماء الخلفاء، وإنما أشارت إلى صفاتهم التي يراها كعب لا تنطبق على علي[١١].

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٢) تاريخ مكة للفاكهي: ١٠٨٢.
(٣) ابن سعد: ٥/ ١٤.
(٤) ابن سعد: ٢٠/ ١٥.
(٥) المحبر: ١٣١.
(٦) تاريخ مكة للفاكهي: ٣١١، ٣٧١/ ٣٦٤.
(٧) تاريخ مكة للفاكهي: ٣٠١، ٣٦٧.
(٨) ابن سعد: ٣ ـ ١/ ٤١، ٢٤٦، ٢٦٢.
(٩) ابن سعد: ٣ ـ ١٢.
(١٠) شرح نهج البلاغة ٣/ ١١٥.
(١١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٦٢.

وممن ذكرته المصادر في موضوع التنبُّؤات تبيع أبو عتبة بن زيد[١] المشهور بابن امرأة كعب الاحبار، وهو حمصي حميري[٢]، شارك في الحملة على رودس سنة ٥٤هـ[٣] وكان معه في الحملة مجاهد، فأخذ منه علم الحديث[٤] ولذلك تَرْجَمت له كتب الرجال؛ وذكر ابن سعد أن تبيع كان عالماً قد قرأ الكتب. وسمع من كعب كثيراً، ويُكْنَى أبا عامر[٥]، وكان له اتصال بخالد بن يزيد فأخبره عن كعب «أن هذا الأمر يصير إلى بني العباس»[٦]، وانه لا يليه رجل من آل أبي طالب إلا أن يخرج على والٍ فيقتل، فإنها لولد العباس إلى أن يأتي المسيح[٧]، وتنبأ بانتصار العرب في ارواد[٨]، وبمقتل عمرو بن سعيد[٩]. ويروى عن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أنه قال: لنا ثلاثة أوقات: موت الطاغية يزيد، وراس المائة، وفتق بافريقية»[١٠].

كتاب دانيال

شغل كتاب دانيال مكانة أثيرة في التنبؤات، ودانيال الذي نسب إليه الكتاب هو يهودي ممن سباهم نبوخذنصر ونقلهم إلى بابل[١١]. وصارت له مكانة عند ملوك الفرس الاخامينيين فولّاه الملك أحشويروش بن دارا القضاء بين اليهود وجعل إليه أمرهم[١٢] أجمع، وتوفي في السوس، من مدن شمالي الأهواز،

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ١١٥.
(٢) طبقات خليفة: ٣٠٨.
(٣) طبقات خليفة: ٣٠٨.
(٤) الطبري: ٢/ ٦٤.
(٥) فتوح البلدان: ٢٣٥.
(٦) ابن سعد: ٧/ ٢.
(٧) اخبار بني العباس: ٨/ ١٦، انساب الاشراف: ٣/ ٨٦، وانظر الطبري: ٢/ ٧٨٦.
(٨) الحيوان للجاحظ: ٤/ ٣٠٧.
(٩) الطبري: ٢/ ٧٨٦.
(١٠) انساب الاشراف ٣/ ٨٢.
(١١) الطبري: ١/ ٦٤٧، فتوح البلدان: ٣٧٧.
(١٢) الطبري: ١/ ٦٥٢، ٦٥٤.

ولما فتحها المسلمون بقيادة أبي موسى الأشعري، كان قبره معروفاً، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب الذي أمر بابقاء جثمانه وإجراء الماء عليه[1]، فزالت معالمه ولم يعد يُدْرَى أين قبره[2].

ذكر ابن النديم أن اليهود «لهم كتب يقال لها بطارات مستخرجة من كتب الانبياء الثمانية، ومن كتبهم كتاب عزور وكتاب دانيال»[3].

وذكر المسعودي أن دانيال هو الذي استخرج العلم وما يحدث من الأزمان إلى أن تنقضي الأرض ومن عليها، وعلوم ملوك العالم، وما يحدث في السنين والشهور والأيام من الحوادث، ودلائل ذلك من الأفلاك وإليه ينسب علم الجفر[4].

ذكر البيروني أن علم دانيال هو الذي استخرجه من غار الكنز، وهو الذي اودعه آدم أبو البشر بما علم»[5].

وذكر نشوان بن سنين في كلامه عن المشبهه قال: «قالت الجالوتية، أصحاب راس الجالوت، بالتشبيه، وذلك أنهم ادعوا أن معبودهم أبيض الرأس واللحية، واحتجوا بأنهم وجدوا في سفر دانيال أو سفر شعيا رأيت قديم الايام قاعداً على كرسي من نور وحوله الأملاك، فرأيته أبيض اللحية»[6].

وذكر ابن الفقيه أن صورة الأنبياء استخرجها ذو القرنين من خزانة آدم عند مغرب الشمس، فصورها دانيال، ثم كتب الصورة في خرقة حرير فهي هذه على عينها»[7].

---

(١) الطبري: ١/٥٦٧، فتوح البلدان: ٣٧٧، الروض المعطار للحميري: ١٤، ٣٢٩. وقد شارك ابن صياد في فتح السوس، الروض المعطار: ٣٢٩.
(٢) البلدان لابن الفقيه: ١٨٩.
(٣) الفهرست: ٢٥.
(٤) مروج الذهب: ١/ ٢٥٤.
(٥) الآثار الباقية: ٣٠٦.
(٦) الحور العين، ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٧) كتاب البلدان: ٢٤٣.

ونقل عبد القاهر البغدادي ان بعض اليهود زعموا أنه وجد في كتاب دانيال أن الله مسخ بختنصر..»[1].

ونشر عبد السلام هارون مخطوطة في صحيفتين ليس فيها إشارة إلى مؤلفها أو تاريخ تأليفها، عنوانها «ذكر ما جاء في النوروز وأحكامه مما فسره بطليموس الحكيم ووجده من علم دانيال»، وهي تبحث في آثار مواعيد فيضان النيل على الزراعة[2]. وفي مكتبات العالم عدد من المخطوطات عنوانها كتاب دانيال، وقد طبعت بهذا العنوان عدة طبعات شعبية ليس في معلوماتها ما يدل على أنها كتاب دانيال الأصلي الذي كانت له مكانة مرموقة في العهود الإسلامية، وإشارة البيروني تدل على أن الكتاب مرتب على حسب السنين، وفيه إشارات إلى بعض الحوادث المهمة في بعض السنين، وهو كتاب الألوف لأبي معشر الذي كانت له شهرة، ولم تصلنا إلا مقتطفات منه.

ذكر عمرو بن ميمون الأودي: «كنا جلوساً بالكوفة فجاء رجل ومعه كتاب، فقلت ما هذا الكتاب، قال كتاب دانيال، فلولا أن الناس تحاجزوا عنه لقتل وقالوا: كتاب سوى القرآن»[3]، وروى خالد بن عرفطة: كنت جالساً عند عمر إذ أتى رجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر أنت فلان بن فلان، العبدي، قال نعم، قال وانت النازل بالسوس، قال نعم... فقال انت الذي نسخت كتاب دانيال، قال: مرني بأمرك أتبعه، قال انطلق فامحه بالحميم والصوف الابيض، ولا تقرأه، ولا تقريه أحداً من الناس[4].

يظهر من هذين النصين أن دانيال المنسوبة إليه التنبؤات هو المدفون بالسوس، وأن تنبؤاته كانت تحظى بتقدير محلي، وأن نقلها إلى الكوفة كَوَّنَ

---

(١) الفرق بين الفرق: ١١٠.
(٢) نوادر المخطوطات: ٢/ ٤٧٠ ـ ٤٨٠. وانظر عن دانيال والابحاث الجديدة عنه دائرة المعارف الإسلامية.
(٣) «تقييد العلم» للخطيب البغدادي: ٥٧، ذم الكلام للهروي: ٦٧.
(٤) تقييد العلم: ٥١، جامع بيان العلم وفضله: ٣/ ٦٤، كنز العمال: ٥/ ٢٣٩.

مصدراً خطراً يُهَدِّد انتشار دراسة القرآن، مما حمل عمر بن الخطاب على منع تداولها بحزم. والواقع أن المصادر لم تذكر انتشار تنبؤات دانيال في العراق إبَّان القرن الاول أو بعده، ولا نعلم مدى انتشارها بين غير المسلمين، ولم يتردد ذكرها في كتب التنجيم كالذي حَظِيَ به كتاب الألوف لأبي معشر.

لم تذكر الكتب أخباراً وافية عن كتاب دانيال وأثره في العراق والمشرق، غير أن هناك إشارات تدل على رواج أثره في هذه الاقاليم، فيذكر المدائني في كتاب «الدواة والقلم» أن حلف اليهود في زمن الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد كان فيه وخالفت ما دونه دانيال واشلوما ويوحنا»[١].

وذكر محمد بن عبد الملك الهمداني أنّه «كان ببغداد رجل يعرف بالدانيالي يظهر كُتُباً عتيقة ينسبها إلى دانيال النبي، ويودع تلك الكتب أسماء قوم وحالهم، فاستوى جاهه، وقامت سوقه بين أهل الدولة وعند القاضي ابن عمرو وابنه»[٢].

وردت أخبار تذكر أن كتاب دانيال حَظِيَ منذ اوائل زمن الامويين بتقدير في بلاد الشام والمغرب، فذكر البيروني عن خالد بن يزيد «قيل أن علمه الذي استخرجه دانيال من غار الكنز»[٣]، وهذا يشير إلى أن خالد بن يزيد كان مطلعاً على هذا الكتاب.

ويروي الطبري ان عمرو بن سعيد بن العاص لما رأى الناس قد اشرأبُّوا إلى ابن الزبير ومدُّوا إليه أعناقهم بعث إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، وكانت له صحبة، وكان مع أبيه بمصر، وكان قد قرأ كتب دانيال هنالك، وكانت قريش اذ ذاك تعده عالماً، فقال له عمرو بن سعيد أخبرني عن هذا الرجل أترى تاماً له، وأخبرني عن صاحبي إلى ما ترى سواه إليه، فقال له: «أرى صاحبك إلّا أحد الملوك الذين تتم أمورهم حتى يموتوا وهم ملوك، فلم

---

(١) صبح الاعشى للقلقشندي: ١٣/٢٦٦.
(٢) تكمله تاريخ الطبري ٦٦.
(٣) الآثار الباقية: ٣٠٢.

يتردد عند ذلك إلّا شدّة على ابن الزبير وأعوانه، مع الرفق بهم والمداراة لهم»[1] وسياق الكلام يدل على تأثره بدانيال الذي كانت كتبه متداولة في مصر.

وروى مؤلف كتاب «أخبار بني العباس» عن جعفر بن محمد بن الفضل الراسبي أن الوليد بن عبد الملك علم بتولي العباسيين الخلافة من الكتب التي بعث بها إليه عامله على المغرب من كتب دانيال، وأن جعفر بن محمد قال ان «هذا الكتاب لست تقرؤه على أحد من الناس، فان أردت أن تكتبه فاكتبه، فكتبته من خطي»[2] ويظهر أن الوليد لم يعمِّم تداول هذا الكتاب.

يظهر أن أهل المغرب تابعوا الاهتمام بكتاب دانيال فيروي الحميري «في السودان، أهل أزقار، يذكر أهل المغرب الأقصى أنهم أعلم الناس بعلم الخط المنسوب إلى دانيال، وليس يدري بجميع بلاد البربر على كثرة قبائلها أعلم بهذا الخط من أهل ازقار»[3].

ويروي ابن قتيبة أن عمر بن عبد العزيز «هو في كتاب دانيال الدردوق الأشج؛ ويذكر الاستاذ ثروت عكاشة في تعليق على هذه العبارة «الاشج» كلمة أرمنية معناها «الفتى»[4].

صاحب الحمار: نهاية القرن

يقول مؤلف أخبار بني العباس «أن أبا هاشم أوصى محمد بن علي في زمن خلافة سليمان: «أمسكوا عن الجد من أمركم حتى يهلك أشج بني امية». ويروى عن محمد بن مسلم أنه «إذا هلك أشج بني أمية وانقضت سنة مائة، وهي سنو صاحب الحمار، فهناك أظهروا أمرنا» فسأله بعضهم: وما سنة صاحب الحمار، قال قوله تعالى [البقرة/ ٢٥٩][5]، وروى اليعقوبي أن ابا هاشم

---

(١) الطبري: ٢/ ٣٩٩.
(٢) اخبار بني العباس: ١٧.
(٣) الروض المعطار: ٢٨.
(٤) المعارف: ٣٦٠، طبعة ثروت عكاشة.
(٥) اخبار بني العباس: ١٩٣.

ذكره في وصيته لمحمد بن علي، فاذا مضت سنة الحمار فوجه رسلك بكتبك، ووطد الأمر قبل ذلك بلا رسول، ولا جهة، ويذكر أن محمداً سأل أبا هاشم عن سنة الحمار فأجابه «لم يمض مائة من نبوة إلا انقضت أمورها لقول الله عز وجل ﴿كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة/ ٢٥٩]، فإذا دخلت مائة سنة فابعث رسلك ودعاتك فان الله متممٌ امرك[١]. والآية الكريمة تذكر رجلاً ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ قال كم لبثت، قال: ﴿لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة/ ٢٥٩].

في الكتب إشارات إلى علاقة الحمار ببعض الانبياء، فقد ذكر الطبري في تفسيره للآية الكريمة روايتين، تذكر إحداها أن صاحب الحمار هو العزير، وتذكر الثانية انه أرميا، ويبدو من التفاصيل التي أوردها انه أرميا[٢]. وذكر الجاحظ حمار العزير في عدة مواضع من كتاب «الحيوان»[٣] دون أن يقدم عنها تفاصيل، ونقل عن مقاتل أن الخضر قال لموسى إن الحمار مركب عيسى بن مريم، والعزير، وبلعم[٤]، وليس في هذه النصوص ما يشير إلى علاقة الحمار بالغيبيات.

وذكر الحمار في أخبار الأسود العنسي الذي ادعى النبوة في اليمن، فذكر البلاذري ان الاسود سمي ذا الحمار لانه كان له حمار معلم، يقول له أسجد فيسجد[٥]، ولعل الأسود باستعماله الحمار كان متأثراً بالمسيحية.

أما في التاريخ الإسلامي فلم يعرف مَنْ ذُكِرَ مقرونا بالحمار غير مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. وتذكر المصادر أن مروان لُقِّب بالحمار لصبره في

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٢٤١.
(٢) تفسير الطبري: ٥/ ٤٦٧ ـ ٤٧٢.
(٣) الحيوان: ١/ ٢٩٨، ٣/ ٥١٣، ٤/ ٨٠.
(٤) الحيوان: ٧/ ٢٠٤.
(٥) فتوح البلدان: ١٠٤.

الحروب، وهو تعليل ضعيف، والراجح أنه اتخذ هذا اللقب لارتباطه بفكرة «صاحب الحمار» التي توضح النصوص الذي ذكرناها شيوعها عند المسلمين وارتباطها بالغيبيات.

ذكرت المصادر رواج فكرة لعل اصولها «سنة الحمار» وهي ظهور مُجَدِّد على رأس كل مائة عام، فروى أبو داود عن «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». وروى ابن لهيعة بسند عن المسور بن شداد يقول «لكل أمة أجل، وأجل أمتي مائة عام، فاذا مر على أمتي مائة سنة أتاها ما وعدها الله».

وظلت هذه الفكرة حية عند الناس، فيذكر محمد بن علي بن الحسين: سمعت أصحابنا يقولون كان في المائة الاولى عمر بن عبد العزيز، وفي المائة الثانية محمد بن ادريس الشافعي.

ويذكر السمعاني أن شيخاً من أهل العلم قال للفقيه أبي العباس بن سريج القاضي ان الله بعث عمر بن عبد العزيز على رأس المائة فأظهر كل سُنَّة وأمات كل بدعة، ومَنَّ الله تعالى علينا على رأس المائتين بالشافعي حتى أظهر السّنة واخفى البدعة، ومَنَّ الله علينا في رأس الثلاثمائة بك فرمت كل سُنّة وخففت كل بدعة.

وذكر ابن تَغرِي بردي أن «العرب تسمي كل مائة سنة حماراً، فلما قارب ملك مروان مائة سنة لقبوا مروان الحمار، وأخذوا ذلك من قوله ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة/ ٢٥٩]».

الملاحم

الملحمة في اللغة الاشتباك الدامي في المعارك، ولم تُذْكر في القرآن الكريم، وانما وردت في كتب الحديث، فذكرها البخاري في كتاب المغازي، وذكرها ابن حنبل في عدة مواضع من سنده، وأفرد لها أبو داود فصلاً خاصاً، وذكرها النسائي وابن ماجة مقرونة بالفتن. وذكر كثير مما رووه مقروناً

بالقسطنطينية والروم، وأشاروا إلى أن «فسطاط المسلمين بالغوطة»[1].

وصار تعبير الملاحم يطلق على حادثة معينة لا مناص من وقوعها، أو الحوادث المستقبلة أو العقائد التي رتبنا فيها عما يكون.

إن أقدم ذكر وجدته للملاحم في الإسلام هو ما ذكره محمد بن حبيب حيث قال «ان عبد الله بن بشار بن أبي عقب» كان رضيع الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان يجالس عبد الله بن الحر فيخبره بما خبره عن علي (رض) وهو صاحب أخبار الملاحم، ويذكر أنه كان يخبر عن الحسين (رض) أشياء يكذبها عليه، ويزعم أن ابن زياد يقتله، ثم إن ابن الحر قتل ابن بشار[2]. لم تذكر المصادر الأخرى هذا الخبر، وانما ذكر البلاذري ان عبيد الله بن يسار (؟) ابن عقب كان يحض على القتال مع الحسين[3].

لم تذكر المصادر «الملاحم» في العراق والمشرق في صدر الإسلام، بالرغم من الأحداث الكثيرة التي جرت فيها، ولعل ذلك راجع إلى أن المصادر أغفلت ذكرها لضعف دورها في التوجيه آنذاك.

وأول من ذكر الملاحم في المشرق هو قول اليعقوبي «أنه لما قتل زيد بن علي تحركت الشيعة بخراسان، وظهر أمرهم، وكثر من يأتيهم ويميل معهم، فظهر الدعاة ورؤيت المنامات، وتُدُورِست الملاحم»[4]، وواضح من هذا النص أن الذي حدث في خراسان بعد مقتل زيد بن علي هو نشاط الشيعة ودراسة الملاحم، فكأن الملاحم اقترنت بالشيعة، وأنه ازدادت دراستها، ومن الطبيعي التأثر بها، ولكن هذا لا يعني بدايتها التي لا بد انها كانت أقدم ولكن بنطاق محدود لم تقدم المصادر معلومات وافية عنه؛ وقد يكون مرجعه أن

---

(١) انظر الاحاديث ومواضعها في كتب الصحاح الستة، المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي، مادة «ملحمة».

(٢) المقتالين: ٢/١٥٣.

(٣) انساب الاشراف: ٢ ـ ٢/٦٦.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٣/٦٧.

الاضطرابات في العراق كانت «محلية» داخلية، وليست عامة واسعة.

تشير المعلومات التي وصلتنا عن الملاحم في صدر الإسلام أنها لقيت رواجاً كبيراً في مصر، فإن ابن يونس، وهو مؤلف أوسع كتاب عن رجال مصر حتى القرن الرابع، ذكر ان عبد الله بن معتب المرادي صاحب أخبار الملاحم، شهد فتح مصر لها، كان جليساً لعبد الله بن عمرو بن العاص، روى عنه أبو قبيل، وعبد الله بن مرة الردماني، وابن الحتف الخولاني وغيرهم[1].

وكان لأبي قبيل، وهو حي بن نافر المعافري علم بالملاحم والفتن، وتوفي سنة ١٢٨هـ، روى عنه عدد من علماء مصر، ومنهم الليث[2]، كما روى عنه ابن عبد الحكم أخباراً عن فتوح مصر، ويذكر الأزدي أن أبا قبيل تنبأ بالمذبحة التي أنزلها العباسيون في الموصل سنة ١٣٣هـ[3]، ولعل تنبؤاته الأخرى لم تذكرها المصادر.

وذكر اسماعيل بن عباد التجيبي صاحب أخبار الملاحم بمصر بالحدثاني، روى عنه أبو الطفيل، وروى عنه ابن لهيعة، وتوفي سنة ١٧٥هـ[4].

وكان النضر بن عامر الغافقي الغمري يروي الملاحم[5] وذكره يزيد بن أبي حبيب (ت١٢٨) وكان حليماً عاقلاً وأول من اظهر العلم بمصر والكلام في الحلال والحرام ومسائل، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن[6].

إن المذكورين في هذه النصوص كلهم من أهل اليمن الذين استوطنوا

---

(١) الاكمال لابن ماكولا: ٧/ ٢٨٢.
(٢) حسن المحاضرة للسيوطي: ١/ ٢٩٨.
(٣) تاريخ الموصل: ١٥٣.
(٤) الاكمال لابن ماكولا: ٢/ ٢٠.
(٥) الانساب للسمعاني: ٤/ ٣٠٩(طبعة حيدرآباد).
(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٢ تذكرة الحفاظ: ١/ ١٢٩، تاريخ الإسلام ٥/ ١٨٤ ـ ٥ب، حسن المحاضرة للسيوطي: ١/ ٢٤٩.

الفسطاط، ولعلهم بعض، وليس كل البارزين من المعنيين بالملاحم، وأنهم نقلوا تراثاً يمانياً قديماً لا تعلم أصوله أو محتوى اهتمام هذه الملاحم؛ وذكرهم يدل على تقدير الناس في مصر لاهتماماتهم، وقبولهم بما تذكره، أو اكثره، وأن كونهم من أهل القرن الاول والثاني قد يدل على امتداد أثرهم إلى عمر بن عبد العزيز الذي عاش في ذلك الزمن وكانت له علاقة بمصر، ولأخيه اهتمام بهذه المعارف.

لاريب في أن أثر الملاحم أقوى وأوسع في أوساط العامة منه في أوساط المثقفين والعلماء الذين يقيمون تفكيرهم على استخدام العقل والواقع، ومتشبعون بنظرة الإسلام النابعة من روح القرآن التي لاتقر هذه المعلومات الغيبية التي يقول بها الناس. ومما يزيد في تعقيد الأمر أن كثيراً من أفكار الملاحم كانت تنقل شفاهاً وبالسماع إلى أن عم استعمال الورق منذ النصف الثاني من القرن الثاني.

ومن المناسب أن نذكر أن ابن النديم لم يذكر في كتابه الفهرست الواسع سوى ثلاثة ألفوا في الملاحم هم: محمد بن مسعود العياش، وهو من أهل سمرقند ومن فقهاء الشيعة الامامية، وعبيد الله الإسماعيلي، واسماعيل بن مروان، غير أن كتباً أخرى ذكرت عدداً من كتب الملاحم ومؤلفيها واشارت إلى محتوى بعضها.

المَهدِيّة

المهدية من أبرز الأفكار المؤثرة في التوجُّهات السياسية للجماهير في صدر الإسلام، وظلت في أذهان كثير من الناس طوال العصور التالية، وإن كانت بدرجة أضعف.

ترد كلمة المهدي في المصادر بصيغة المفعول، وتدل على صفة من تنسب إليه، وليس بصيغة الفاعل الذي يشير إلى أثره في الناس.

لم ترد كلمة «المهدي» في القرآن الكريم، وإنما وردت «الهداية» ومشتقاتها

في ٣١٤ آية، يظهر منها أن الهداية ضد الضلالة، وهي من صفات الله، وتتم على البشر عن طريق النبوة بالدرجة الاولى، غير أنها لا تقتصر على الأنبياء، فقد يكون للقوم «هادٍ» لم يحدد القرآن صفاته، وإن كان سياق الآيات يشير إلى أنه ينبغي أن يكون مدركاً لما يريد من الهداية، وراغباً في تعميمها، وقادراً على ذلك، فهي غير منحصرة في فرد معين أو جماعة محددة، ولكنها دائماً مرتبطة بالجماعة، ولها أهداف دينية وأخلاقية أكثر منها دنيوية أو إدارية أو سياسية.

وردت كلمة «المهدي» في ثلاثة من كتب الصحاح في الحديث (ابن ماجة، فتن ٣٤، الترمذي فتن ٥٣، أبو داود: المهدي)، ووردت في تسع مواضع (بعضها مكررة) في مسند ابن حنبل (١/ ٤٨؛ ٢/ ٤١١؛ ٣/ ٢١، ٢٢، ٢٧؛ ٥/ ٢٧)، وهي في كثير من المواضع عامة، منها حديث يربطها بعيسى بن مريم (ابن ماجة: فتن ٣٤؛ ابن حنبل ٢/ ٤١١) وبعضها يربط بسنة «الخلفاء الراشدين المهديين»، علما بأن الأحاديث لم تجمع على تحديد الخلفاء الراشدين، ففي رواية أنهم خمسة (أبو داود: سنة ٧)، وبعضهم يذكر ان «الخلافة ثلاثون عاماً»، ثم يكون بعد ذلك الملك. وبعضهم يذكر أنها اثنا عشر خليفة، بدون أن يذكروا اسماً منهم.

تحدد بعض الأحاديث أن «المهدي من أهل البيت» (ابن ماجة: فتن ٣٤؛ ابن حنبل ١/ ٨٤) وتحدده بعض الاحاديث أكثر: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة» (أبو داوود، المهدي ١، ابن ماجة: فتن ٣٤)؛ وذكر حديث: «انا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي» (ابن ماجه: فتن ٣٤) وفي حديث آخر: يخرج المهدي من أمتي خمساً أو سبعاً أو تسعاً (ابن حنبل ٣/ ٤١) [1]، وبصرف النظر عن مدى صحة نسبة هذه الأحاديث إلى الرسول (ص) فإن أياً منها لا يصرح باسمه ولا يحدد زمن خروجه أو يفصل في دوره.

---

(١) اعتمدنا في هذا على «المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي» مادة «مهدي».

لم يشع إطلاق «المهدي» اسماً للأشخاص، ولم يذكر الطبري من سمي المهدي غير «مهدي بن علوان الحروري»[1].

إن أشهر الأوائل الذين اطلق عليهم «المهدي» هو محمد بن الحنفية، الذي كانت له عند أبيه علي بن أبي طالب مكانة طيبة، ولكنها لم تصل مكانة أخويه الحسن والحسين وَلَدَيْ فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكان الداعون لامامته الكيسانية الذين كان مركزهم الرئيس الكوفة التي لم يزرها ابن الحنفية بعد اغتيال أبيه، وانما كان يقيم في مكة التي لم يذكر أن أهلها أطلقوا عليه «المهدي»؛ ولم يستنكر ابن الحنفية تلقيبه «المهدي»، وقنعت الكيسانية بعدم اعتراضه ورضوا بالرئاسة الفعلية للمختار الذي كانت له القدرة على السيطرة على الجماهير وتوجيهها لتحقيق مطامحه السياسية، ومن دون أن يعمل على فرض عقائد على اتباعه أو يعمق فيهم فكرة المهدي التي ظلت في حينها سطحية ضيقة الانتشار بين عموم المسلمين[2].

والعلوي البارز الثاني الذي وصف بانه «المهدي» هو محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية) الذي اعلن ثورته في المدينة في اوئل خلافة أبي جعفر المنصور[3]، ويبدو أن وصفه بالمهدي كان في زمن خلافة هشام بن عبد الملك، اذ كان يدعو له المغيرة بن سعيد البجلي، ويقول هو المهدي، فقبض عليه خالد القسري والي العراق، وصلب في الكوفة وأُحرق أصحابه بالنار[4]. غير أنه بقي له اتباع لهم عقائد مغالية في محمد النفس الزكية حتى بعد مقتله وفشل ثورته[5].

---

(١) الطبري: ٣/١٠١٧.

(٢) انظر: انساب الاشراف للبلاذري ٣ ـ ٢٢، ٢ ـ ١/ ٤٠٢ «كانت الشيعة تسمي محمد بن علي المهدي»، وانظر بحث فلهاوزن «الخوارج والشيعة»، وكتاب عبد الأمير دكسن «الخلافة الاموية» ٣٠ أ، انساب الاشراف ٢ ـ ٢/١.

(٣) مقاتل الطالبيين: ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١ ـ ٥.

(٤) المحبر: ٤٨٣، الفرق بين الفرق، ١٤٦.

(٥) الفرق بين الفرق: ٣٧ ـ ٨، ١٤٦ ـ ٧.

في الأخبار إشارات إلى تسمية الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخليفة علي بن أبي طالب والحسين بالمهدي[١]. فأما الرسول (صلى الله عليه وسلم) فان حسان بن ثابت وصفه في مرثيته بالمهدي حيث قال:

ما بالُ عَيْنِكَ لا تنام كأنّما كُحِلَت مآقيها بكُحْلِ الأرمدِ
جَزَعاً على المهدي أصبح ثاوياً يا خير من وطيء الحصى لا تبعُدِ
بأبي وأمي من شهِدْتُ وفاتَهُ في يومِ الاثنينِ النبيِّ المهتدِي[٢]

وقال: «أن تؤمّروا علياً ولا أراكم فاعلين، تجدونه هادياً مهدياً يأخذ بكم الطريق المستقيم»[٣].

وقال سليمان بن صرد رئيس التوابين «اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد، المهدي ابن المهدي».

وقد وُصِف عدد من بارزي العلويين بأن كُلاًّ منهم مهدي فولَّدت انطباعاً بأن المهدية محصورة بالعلويين، غير أن معلومات وصلتنا تشير إلى نسبة المهدية لم تقتصر على العلويين، فعندما ثار الحارث بن سريج في خراسان في أواخر العصر الأموي ادعى أنه المهدي.

غير أن عدداً من الشعراء والكتاب وصفوا بعض خلفاء بني أمية بأن كلًّا منهم كان «مهدياً» فقال جرير في عبد الملك:

الله طوَّقَكَ الخلافةَ والهدى والله ليس لما قَضَى تبديلُ

وقال في سليمان بن عبد الملك:

---

(١) انظر: جولد زيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام: ٢٧٧ فما بعد. فان فلوتن: السيادة العربية ٧٦ فما بعد.
(٢) ابن سعد: ٢ ـ ٢/٩١.
(٣) الطبري: ٢/٥٤٦.

سليمانُ المباركُ قد علمتم ... هو المهديُّ قد وَضَحَ السبيلُ

وفي سليمان قال الفرزدق:

يقول أبو العباس أبوهم توارثوا ... خلافة مَهْديٌّ وخيرِ أنامِ

وألقيتَ من كفيكَ حبْلَ جماعةٍ ... وطاعةَ مهديٌّ شديدِ المهامِ

وقال جرير في هشام بن عبد الملك:

وقلت لها الخليفة خير ... هو المهدي والحكم الرشيد

وروى ابن سعد ان سعيد بن المسيهب سأله رجل فقال له يا ابا محمد من المهدي؟ فقال له سعيد: «أدخلت دار مروان» (وهي مركز اقامة ولاة الامويين في المدينة)، قال: لا، قال «فادخل دار مروان ترى المهدي.. قال هل رأيت الأشج عمر بن عبد العزيز القاعد على السرير، قال نعم، قال فهو المهدي». ويروى بسند عن سعيد العرزمي قال «سمعت محمد بن علي (ابن الحنفية) يقول النبي منا والمهدي من بني عبد شمس، ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز، قال وهذا في خلافة عمر بن عبد العزيز». ويروى بسند عن مولى لهند بنت أسماء ان محمداً بن علي قال ان المهدي من بني عبد شمس «قال كأنه عَنَى عمر بن عبد العزيز[(١)]».

وقال مجاهد «المهادي سبعة، مضى خمسة، وبقى اثنان، وعدد خارجة المهادي: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز»[(٢)]، وقال الشاعر عند تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة:

اليوم حَلَّتْ واستقرَّ قرارُها ... على عُمَرَ المهديُّ قام عمُودُها[(٣)]

(١) ابن سعد: ٥/٢٤٥.
(٢) اخبار أبي حفص للآجري: ٥١.
(٣) أخبار أبي حفص للآجري: ٥٢، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي: ٣٥.

وفي تلك الأزمنة ظهرت أفكار عن منقذين بأسماء متعددة. فيذكر المسعودي، أن عبد الرحمن بن الأشعث، عندما ثار على الأمويين في زمن خلافة عبد الملك، سمى نفسه ناصر المؤمنين. وذكر أنه القحطاني الذي ينتظره اليمانية، وأنه يعيد الملك فيها، فقيل له إن القحطاني اسمه ثلاثة أحرف، قال اسمي عبد، وأما الرحمن فليس من اسمي[1]. ولا بد أن فكرة القحطاني سبقت ثورة ابن الاشعث، ولم تحدد المصادر بدء ظهورها.

وذكر مصعب الزبيري: «زعموا أنه خالد بن يزيد، وهو الذي وضع السفياني (. . .)، وأراد أن يكون للناس فيهم طمع حين غلبه مروان بن الحكم على الملك وتزوج أمه أم هشام»[2]. ونقل أبو الفرج الاصفهاني الخبر وعلق عليه «وهذا وهم من مصعب فإن السفياني قد رواه غير واحد وتتابعت فيه الرواية الخاصة والعامة»، وذكر خبر أمره أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين وغيره من أهل البيت (ص)، ثم نقل قول محمد بن علي: «كم تعدون بقاء السفياني فيكم؟ قلت حمل امرأة تسعة اشهر، قال: ما أعلمكم بأهل الكوفة». والواقع أن خبر السفياني كان اساس ثورة في بلاد الشام في العصر العباسي الأول.

يتبين من النصوص التي أوردناها أعلاه أنه من اواسط زمن العهد الاموي انتشرت أفكار عن شخص مصلح أطلقه الناس، بمن فيهم الشعراء والكتاب، على رجال بعضهم يشغل الخلافة ويمارس الحكم، وبعضهم جدير به. وأبرز من توسموا فيه هذه المؤهلات هو «المهدي»، وقد أطلق على أفراد رأى فيهم الناس مؤهلات شخصية دون حصرها في انتماءات قبلية أو عرقية أو اقليمية، ولكنهم كانوا جميعاً من العرب، وليس فيهم أحد من الموالي أو الأعاجم، وكانت بعض الألقاب، كالقحطاني والسفياني ذات سمة محدودة، فلم تَحْظَ

(١) التنبيه والاشراف: ٢٧٢.
(٢) نسب قريش وطبعة بروفنسال: ١٢٩، وانظر كتاب خليل ابراهيم: «خالد بن يزيد»: ص٤٨٣.

بانتشار واسع أو ديمومة مثل فكرة «المهدي»، التي تبناها في أوائل ظهورها أفراد من مختلف المشارب، ومن أبرزهم رجال من العلويين وأصبحت في العصور التالية مقترنة بهم.

أُطلق لقب المهدي على رجال تميزوا بالسلوك المرضي والورع دون أن يكون هذا الشرط الوحيد الواجب تَوَافره فيهم، فهم ليسوا مجرد «عباد» أو «ورعين» أو «زهاد» أو «متألهين»، وليس لهم «خوارق»، وانما لهم أفكار سليمة لتوجيه الأمة إلى ما تتطلبه المبادئ الأساسية للإسلام من مراعاة مصلحة العموم دون حصرها بفئة معينة.

إن «المهدية» فردية جماهيرية سلمية تبتغي إصلاحاً شاملاً روحياً واخلاقياً وسياسياً. والمهدي بوصفه نظاماً «فردياً»، لا يعالج كيفية اختيار مساعديه وصفاتهم وتنظيمهم، كما أنه لا يعالج أسلوب نشر دعوته وتعزيز مكانته التي يبدو أنها كانت تحصل عفوياً من اقتناع الجماهير المتأثرين بالروح السائدة وليس بالتلقين أو الفرض القسري، غير أن عدداً ممن تَبَنّى هذه الألقاب استخدم القوة العسكرية لبسط سلطانه إدراكاً منه أن للسلطان السياسي دوراً سياسياً في التمهيد لتنفيذ الأفكار الاصلاحية الروحية والادارية التي تمس الجماهير، فمحمد بن الحنفية لم يستخدم في نشر أفكاره القوة التي استخدمها المختار الذي، وإن كان تبنى فكرة «المهدي»، إلا أنّه صب اهتمامه على استخدام «القوة»، و«السياسة» دون أن يكون لابن الحنفية صوت في توجيهها، كما لجأ محمد النفس الزكية إلى استخدام القوة العسكرية، وقضى أبو جعفر على حركته قبل أن تتاح لها فرصة التطبيق.

غير أن «المهدية»، حتى في هذه الأحوال التي استخدمت فيها القوة العسكرية، تختلف عن حركات معظم الثوار على النظام ممن استهدفت ثوراتهم إزاحة المهيمنين على الحكم ليحل محلهم آخر ممن لا تدعمهم أفكار في الاصلاح شاملة لمختلف جوانب حياة الناس وتوجيهاتها.

إن هدف «المهدية» هدفٌ روحي وأخلاقي وجماهيري بالدرجة الاولى،

ولكن تطبيقه يستلزم الأساليب السياسية والعسكرية التي، مهما كانت أهميتها، فهي ثانوية في موقعها، ومؤقتة في دوامها، وممهدة للإصلاح الجماهيري الآني الذي تتوقف ديمومته على مدى عمقه وشموله وقوة ما يضمن الديمومة. ففكرة «المهدية» كانت قوة محركة في الإثارة، ولكن لم تتح لأي منها الثبات. وإذا اعتبرنا عمر بن عبد العزيز مهدياً فانه يكون كذلك بتوفر مؤهلاته، ونظرته الشاملة، وأساليبه السلمية، علماً بأنه، شأن غيره من «المصلحين»، لم تتوافر الفرصة لدوام إصلاحاته.

ففكرة «المهدي» تقوم على أساس أن الإصلاح يحققه فرد ذو مزايا خلقية ومواهب شخصية تؤهله للقيام بتوجيه الامة، وليس من طريق الوارثة أو من طريق روح الله تعالى مما تعتقده الفرق الحلولية، وهي بالتالي ليست وراثية، فلم يدَّعِ أحد من المعتقدين بالمهدية أنها وراثية تنتقل إلى الابن أو القريب بالدم.

أشارت المصادر إلى السمات العامة للمهدي وهي الأخلاق الفاضلة في السلوك، والرزانة في التصرف، والسلامة في الحكم، والاطلاع على الفقه الذي يحكُم المعاملات الشخصية والتوجُهات السياسية العامة، ويبدو من سياق الأحداث أنه ينحدر من أسرة غير مظنون فيها، وليس من مجرد عامة الناس، وان كان تقدير العامة شرطاً أساسياً لاعتباره «مهدياً».

إن فكرة «المهدي» قائمة على نظام فردي غير وراثي، يقوم بإصلاح نظام فاسد، يملأه «الجور» فيزيله ويحل محله نظام عام يتميز «بالعدل»، فهو مصلح لوضع قائم، وليس بمبدع لنظام دائم كالذي تدعو إليه بعض الجهات في «المسيح المنتظر».

الفصل السادس

الغيبيات وآثارها في توجيه الرأي العام

إن الأحوال والأحداث التي سبقت تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة رافقها انتشار أفكار عن الفتن وتنبؤات عن ظهور منقذ يقضي على الأحوال المجلبة للدمار، لتحل مكانها أحوال تُطَمْئِن البشر وتسعدهم، ومثل هذه الأفكار لم يقتصر ظهورها على العرب وحدهم وإنما كانت في المجتمعات الأخرى، وفي مختلف الأزمنة، ويكون لها تأثير نفسي كبير عند الناس، وتساعد في تثبيت سلطان عدد من ذوي الطموح. والواقع أن دعوات الأنبياء قامت على اساس ان الله تعالى أرسلهم برسالات يبلغونها للناس لتهديهم إلى سواء السبيل وتنقذهم مما هم فيه من ضلال وفوضى، وتقودهم إلى حياة الاطمئنان والسعادة. وكان هذا جوهر دعوة الإسلام ورسالة الرسول (ص) الذي أرسله تعالى رحمة للعالمين، لِيُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى حياة تقوم على مبادئ سليمة تبعدهم عن المفاسد المدمرة كالانحرافات.

الغيب في القرآن الكريم والحديث النبوي

يؤكد الإسلام على المستقبل الذي تقوم عليه فكرة اليوم الآخِر والبعث. وذكرت عدة آيات أن الله تعالى عالم الغيب، [المؤمنون/ ٩٢]، [فاطر/ ٣٨]، وأنه وحده يعلم الغيب ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس/ ٢٠] و﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الانعام/ ٥٩]، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل/ ٦٥]. وتكرر في القرآن الكريم أن الرسول (ص) لا يعلم

الغيب ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الانعام/٥٠، هود/٣١].

روى ابن وهب بسند عن أبي هريرة أن الرسول (ص) قال «إن الله يبعث لهذه الأمة على راس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»(١).

إن معرفة الغيب في القرآن الكريم تشمل الإنسان والمجتمعات. فأما الإنسان فان أعماله في الحاضر تقرر مصيره يوم القيامة، ولابد أنه يلقى عنها الجزاء الذي يستحقه. وأما المجتمعات فقد ذكر بعض المبادئ الأساسية التي يؤدي بعضها إلى نتائج محتومة في ازدهار المجتمعات كالتقوى والسير على سنة الله، أو انهيارها كسيطرة المفسدين، وأشار إلى أن هذه المبادئ هي «قواعد» أو «سنن» كونية، وتنطبق على الماضي والمستقبل ويمكن إدراكها بالتفكير والفعل(٢).

إن حب معرفة المجهول واستشراف المستقبل هو عام عند الناس بمختلف فئاتهم واتجاهاتهم، وهو أقوى عند من لا يسيطر العقل سيطرة تامة على تفكيرهم وسلوكهم، غير أن القدرة على هذه المعرفة واستشراف المستقبل ليسا أمراً عامًّا، وإنما يكونان في أفرادٍ محدودين لهم، أو يدَّعون أن لهم مواهب في ذلك. ولم يَشُذَّ العرب في ذلك، فكان عندهم العرافون والكهنة والسحرة. وقد ذكر القرآن الكريم الكِهانة وأشار إلى أن الوحي المُنْزَل على الرسول (ص) ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الطور/٢٩، الحاقة/٦٩]، وذكر السحر في تسع وخمسين آية اكثرها عن قوم فرعون، وبعضها نفى أن يكون الوحي سحراً، وادعاء الناس بعلم الغيب في ما لم يقرّه الله تعالى. غير أن إنكاره لها لا يبلغ حد تحريمها أو اعتبارها كُفراً وخروجاً عن الإسلام. وبما أنَّ الكِهانة مرتبطة بالشرك الذي قضى عليه الإسلام، فإنها انعدمت بعد الإسلام ولم يعد لها ذكر عند المسلمين.

---

(١) اخبار بني العباس ١٩٣.
(٢) أنظر مقالنا المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية في الأردن ١٩٩٨.

الغيبيات في صدر الإسلام

ولما توسعت دولة الإسلام وضمت أقاليمها العربَ وأعداداً كبيرة من غيرهم، كان فيها من يؤمن بقدرة البشر على معرفة المجهول واستشراف المستقبل، وهو ما لم يحرمه القرآن الكريم، ولا بـ أن المهتمين بذلك تتسع مكانتهم ابان الازمات التي تواجه الأفراد أو المجتمع، وذكرت المصادر أسماء متميزين في هذه المعرفة، وهم منوعون من المسلمين وغير المسلمين، ولبعضهم مكانة متميزة في المجتمع اكتسبوها من مزاياهم الاجتماعية والسياسية أو الفكرية، وأنَّ ذِكْر المصادر قدرتهم على المعرفة يدل على أنها كانت مقبولة في الأوساط، بما فيها السياسية والدينية. ولا بد أن من ذكروا هم بعض، وليس كل من كانت لهم هذه المزايا، ولا تيسر المصادر معرفة شاملة دقيقة بآثارهم، وانما يمكن القول إن أثرهم عند العامة أوسع، وعند ذوى السلطان أقوى، وله تأثير في توجيه أعمالهم.

وروى ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أنه سمع المسور بن شداد يقول «لكل أمة أجل وأجل أمتي مائة سنة فإذا مر على أمتي مائة سنة أتاها ما وعدها الله»[1].

إن الحديث الاول الذي ينسب إلى الرسول (ص) لا ينسجم والآيات التي تنص على انكار ذلك على الرسول (ص) وهذا الحديث لم يتكرر في كتب الصحاح. أما الحديث الثاني فلا ينسب إلى الرسول، ورُواة الحديثين مصريون، مما يدلّ على أن فكرته كانت سائدة في مصر التي وَلِيَها عبد العزيز بن مروان، أبو عمر، وهي تحدد السنة التي كان فيها عمر بن عبد العزيز خليفة، فكانها تتنبأ بمجيئه مصلحاً، وكون رواتها من المصريين يدل على أن الفكرة كانت قائمة في مصر، غير أنه لا يمكن الجزم في كونها متأثرة بأفكار قبطية أو يهودية سابقة.

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/١٨٩، ٣/٥١٣، ٤/٨٤.

الفصل السابع

عمر بن عبد العزيز وحياته قبل تولّيه الخلافة

ولادته ونشأته الاولى

وردت في تحديد تاريخ ولادة عمر بن عبد العزيز عدة روايات، فقد روى خليفة بن خياط عن عمر بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أن عمر بن عبد العزيز ولد سنة ٥٩، وروى عن أبي اليقظان أنه ولد في مصر سنة ٦١[١]، وذكر الواقدي أن عمر بن عبد العزيز وَلِيَ المدينة في ربيع الاول سنة ٨٧ وسِنُّه خمسٌ وعشرون سنة[٢] أي أنه ولد سنة ٦٢. وروى الطبري والبلاذري أنه ولد يوم الاربعاء لخمس ليال بقين من رجب سنة ٦٣[٣]، وذكر ابن سعد والطبري انه توفي (سنة ١٠١) وهو ابن تسع وثلاثين سنة أي، أنه وُلِد سنة ٦٢[٤]، وكل هذه الأرقام تُظْهِر أنه وُلِدَ قبل وفاة يزيد بن معاوية، وهذه الأرقام متقاربة.

روى ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز ولد في المدينة ولم يلحق بأبيه وكان عبد الملك يجري عليه ألف دينار في الشهر[٥]، غير أن هذه الرواية غير مؤكدة، وإن كان من المعلوم أن عبد الملك وكثيراً من رجال الأسرة الأموية كانوا يقيمون في المدينة حتّى أقصاهم أهلها في ثورتهم على يزيد. ولا يَبْعُد أن

---

(١) تاريخ خليفة ٣٢٨، ١.
(٢) ابن سعد ٥/ ٣٥٤.
(٣) أنساب الاشراف ٣٦٢، (مخطوطة استامبول).
(٤) إبن سعد ٥/١: ٣، ١٣، الطبري ٢/ ٢١٣٦٢.
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ٢٥٥.

عمر بن عبد العزيز ولد أو قضى سني حياته الاولى في دمشق حيث كانت لوالده عبد العزيز دار[1].

ولا بد أنه رافق أباه عبد العزيز عندما وُلِّيَ مصر؛ ولم تذكر معلومات عن نشأته الأولى سوى أن أباه اختار له مؤدباً هو صالح بن كيسان[2] وهو من علماء أهل المدينة. وذكر الذهبي أن عبد العزيز «كتب إلى صالح بن كيسان يتعاهده، ويروي هشام بن عمار عن بعض أشياخه لما ترعرع عمر بن عبد العزيز استاذن أباه في إتيان المدينة»[3] ولعل خلالها كان صالح بن كيسان مؤدباً لعمر، ولعل الخبر الذي يذكر أن عبد الملك كان يُجرِي عليه ألف دينار في الشهر يشير إلى زمن اقامته في المدينة.

الأحوال العامة

شارك عبد العزيز بن مروان في الأحداث العسكرية التي أعقبت موت يزيد. أما ابنه عمر، فكانت سنه أصغر من أن تمكنه من المشاركة في الحركات العسكرية أو قمع الثورات الداخلية أو في الصوائف والشواتي أو التوسع الخارجي في أطراف الدولة. أخبار الترف الذي كان يعيشه قبل توليه الخلافة تدل على أنه كان أكثر انغماساً في الحياة الحضرية السلمية منه في الحياة العسكرية وما تتطلبه من قوة بدنية ومران على السلاح وتقدير لمثل القوة المادية والعنف العسكري.

لا بد أن آثار السلم وما رافقه من مظاهر الحيوية والازدهار والبهجة في الحياة المادية والفكرية في المدينة أثرت في عمر بن عبد العزيز الذي قضى فيها ردحاً من سني طفولته وشبابه التي زادت على عشر سنوات، فلما وُلِّيَ الخلافة كانت مظاهر هذه الحياة واضحة ومقدرة عنده، فعمل على إبقائها والحفاظ على

---

(١) المحبر لمحمد بن حبيب ٢٥٥.
(٢) سيرة أعلام النبلاء للذهبي ٥/١٦.
(٣) أنساب الاشراف ١٣٦٥ (مخطوطة استامبول).

أسسها والإسهام في تنظيمها وتجريدها من الشوائب المشوهة، فموقفه من الحياة الحضرية كانت إقراراً بسماتها العامة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ومعالجة تفاصيل الممارسات لتؤدي دروها في تثبيت هذه السمات وديمومتها. وقد استقرت نظرته بفضل خبراته في الحياة في الفسطاط والمدينة وبعض المدن التي اقام فيها في الشام.

ولعل هذه المظاهر في الترف امتدت إلى حياته المعاشية ومأكله وامتدت إلى سني ولايته المدينة، ولم يتفرد بها وانما كان يحياها كثير من الاشراف في المدينة.

كانت لعمر بن عبد العزيز ثلاث زوجات هن لميس بنت علي الحارثية، ولدت له عبد الله وبكر وأم عمار، والثانية ام عثمان بنت شعيب وهي كلبية من بني خباب وولدت له ابراهيم، والثالثة فاطمة بنت عبد الملك ولدت له اسحاق ويعقوب وموسى وكانت له أيضاً امهات أولاد ولدن له عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد العزيز وزبان وأمة وأم عبد الله[1].

وروى الأصفهاني شعراً لأشهب غَنَّاه (أي لحنه) عمر بن عبد العزيز، وأشار إلى أخبار لم يوثقها أن له ألحاناً[2]. ومن المعلوم أن الغناء كان فاشياً في المدينة التي ظهر فيها عدد من المغنين المبدعين في الألحان وأن الفقهاء أهل المدينة يبيحون الغناء ولا يروى تحريمه أو إنكاره[3].

ويروي المدائني أن دكين الراجز امتدح عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة فأمر له بخمسة عشر ناقة كراماً[4]. ولعل عدداً آخر من الشعراء نالوا من

---

(١) ابن سعد ٥/٢٤٢ ـ ٣، وذكر ابن حزم ان له أربعة عشر ولداً اضاف على ما ذكر ابن سعد، وموسى واسماعيل وحفص ومروان ورضيع.
(٢) الاغاني ٩/٢٦٨، ٢٧٣. انظر عن الفناء في الحجاز فجر الإسلام لاحمد امين ٢١٦ ـ ٢٢٢٠.
(٣) وأنظر: «الشعر والغناء في الحجاز» لشوقي ضيف.
(٤) الاغاني ٩/٢٦١، وانظر ٢٥٧، ١٦٣، ٢٦٥، ٢٦٨.

كرمه في ذلك، ولكن المصادر لم تذكرهم، وإنما تُظهر أنه لم يكن نافراً من الشعراء.

ثروته

وكانت موارده المالية تيسر له حياة الترف، فيروي الطبري أنه كتب إلى يزيد بن المهلب «ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد خلقه»[١].

وروى البلاذري أن أباه أعطاه أربعين ألف درهم[٢]، ورووي ابن عبد الحكم أن عبد الملك كان يجري عليه ألف دينار في الشهر[٣]، هذا فضلاً عن رزقه من الولاية، ويروي المدائني أن عمر بن عبد العزيز، لما استُخلف، نظر إلى ما كان له من عبيد والى لباسه وعطره وأشياء من الفضة فباع كل ما كان به عنه غنى، فبلغ ثلاثة وأربعين الف دينار[٤]، وروى المبرد أن ثروته كانت مئة الف[٥].

ذكر ابن عبد الحكم أراضِيَ ومزارع كانت لعمر بن عبد العزيز فقال كان عمر بن عبد العزيز نظر في مزارعه فخرق سجلاتها حتى بقيت مزرعتا خيبر والسويداء، فسأل عن خيبر: من أين كانت لأبيه؛ فقيل له كانت في نحل رسول الله (ص) فتركها رسول الله (ص) فيئاً للمسلمين، ثم صارت إلى مروان فأعطاها مروان أباكَ، فخرق عمر سجلها وقال أتركها حيث تركها رسول الله (ص). أما خيبر، فمشورة[٦]، والراجح أن المقصود بخيبر مزرعة فيها وليست كلها. وفي أي حال فانه لا توجد إشارة إلى سعتها. أما السويداء فإن

(١) الطبري ٢/ ١٣٦٤
(٢) انساب الاشراف مخطوط استامبول.
(٣) ابن عبد الحكم٢١.
(٤) ابن سعد ٥/ ٢٥٤.
(٥) الكامل للمبرد ١٣٤.
(٦) ابن عبد الحكم ٥٢.

ابن عبد الحكم ذكر أنها كانت أرضاً براحاً أصلحها عمر بن عبد العزيز وكان يحصل منها سنوياً مائتي دينار.

وذكر ابن عبد الحكم: كان جبل الورس قطيعة لعمر بن عبد العزيز[(١)]. وينقل ابن أبي الحديد ان عمر بن عبد العزيز كانت له السهلة باليمامة[(٢)].

وكان يمتلك أرضاً ابتاعها من بني بلال المزني فظهر فيها معدنٌ طالَبَ به بنو بلال وقالوا: بعناك أرض حرث ولم نبعك المعدن، فأقر دعواهم[(٣)]، ولعل هذه الأرض في القبلية في الأطراف الجنوبية من المدينة مما اقطعهم الرسول (ص).

ويروى ابن عبد الحكم عن عمر الحمصي: أول شيء بدأ به عمر بن عبد العزيز أنه لم يترك ظُلامة مزرعة ولا أجلبة لاحد قبله إلاّ ردها إليه، وباع ما كان له من المزارع من عبد أو أَمَةً أو بهيمة أو آلة، وباع ما كان له من متاع أو مركب أو لباس أو عطر وأشياء أسماها الحكم في حديثه فبلغ ثلاثة وعشرين ألف درهم ثم جعلها في سبيل الله وقال عبد الحكم: بلغ ثلاثة وأربعين ألف دينار[(٤)].

ويروي أبو زرعة أن عمر بن عبد العزيز لم يمت عن ضيعة بقيت في يده غير بدا. وحزن بارض بعلبك وأنه أورثها عشر، وردَّها أبو جعفر المنصور فصارت بأيدي ورثة عمر[(٥)].

ويروى أنه جاءه وهو خليفة سبعة عشر الف دينار من مال بني مروان،

---

(١) ابن عبد الحكم٥٠، ٤٠، وذكر النسوي املاكه في جبل الورس باليمن وقطائع باليمامة (المعرفة والتاريخ ١/ ٥٧٠؛ ٣/ ٥٧. وعن السويداء والبسيطة: المعرفة والتاريخ ١/ ١٥٠، ٥٨٦.

(٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٤/ ٥١.

(٣) فتوح البلدان ١٢.

(٤) ابن عبد الحكم ١٢٤، ابن عساكر ١/ ٢٨٨.

(٥) تاريخ أبي زرعة ٥٣.

وروى سهل بن صدقة أن عمر بن عبد العزيز خَيَّر جواريه: فمن اختارت العتق أعتقها، ومن أمسكتها لم يكن لها منه شيء[١].

ولاية المدينة

وَلِيَ عمر بن عبد العزيز المدينة سنة ٨٧هـ، أي بعد أشهر من تسلم الوليد الخلافة، وكان عمره خمساً وعشرين سنة، وظل في ولايته عليها سبع سنين، وكان ثالثَ رجل وَلِيَ المدينة من البيت الاموي والأول مروان بن الحكم الذي وَلِيَها في خلافة معاوية، والثاني يحيى بن الحكم بن مروان[٢] ولم تذكر المصادر خلال ولايته المدينة أنه غادرها إلا في ولايته الموسم، فقد كان يلي الحج بالناس طيلة السنوات السبع من ولايته المدينة ما خلا سنة ٩١هـ عندما قام الخليفة الوليد بن عبد الملك بولاية الحج، وكان يرافقه عمر بن عبد العزيز وروى خليفة وأبو معشر أن عمر بن الوليد بن عبد الملك وَلِيَ الحج سنة ٨٨هـ[٣]، ولكن المصادر الاخرى لا تذكر ذلك.

وكانت له في مكة دار اشتراها من ناس من بني الحارث بن عبد مناف وأَمَر ببنائها، ولكنه لم ينزل الدار وتصدق بها ثم أصفاها العباسيون عندما وُلُوا الخلافة حتى جاء المعتصم فَرَدَّها على ولد عمر بن عبد العزيز[٤]. وذكر ابن جبير ان القبة التي شاهدها بين الصفا والمروة هي قبة عمر بن عبد العزيز وبها الدار المنسوبة إليه وبها كان يجلس للحكم أيام تَوَلِّيه مكة[٥].

وروى الفاكهي بعض ما كان من عمر بن عبد العزيز في الحج: منها انه كان يقبِّل الحجر[٦] ويتعوذ برب الكعبة[٧] ويسعى بين الصفا والمروة مصطفاً[٨]

---

(١) ابن عبد الحكم ١٢١.
(٢) انظر قائمة ولاة المدينة في كتابنا «دراسات في الادارة الإسلامية».
(٣) تاريخ خليفة ٣٠٣ الطبري، ٢/٣١٦ عن ابن معشر ٢أ وفاء الوفا للسمهودي١/ ٢٥٠.
(٤) أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٢٤١، تاريخ مكة للفاكهي ٢١٢٠.
(٥) رحلة ابن جبير ٩٣.
(٦) تاريخ مكة للفاكهي ٩، ٢٠٨، ٢٠٣، ٢١٢.
(٧) تاريخ مكة ٤٧، ٢٤٥.
(٨) تاريخ مكة ٣٢٣.

ويصلي خلف المقام[1]، وأنه «أمر أن يوقدوا ثلاثاً ويحرسوا الحجاج، فكان الأمر على ذلك في هذه الليلة حتى كانت ولاية عبد الله بن محمد بن داود على مكة»[2].

ويروى الأزرقي «أن عمر بن عبد العزيز قدم مكة وهو اذ ذاك أمير، فطلب إليه أهل مكة أن يقيم بين أظهرهم بعض المقام وينظر في حوايجهم، فأبى عليهم، فاستشفعوا إليه بعبد الله بن عمرو بن عثمان، فقال له: اتق الله في رعيتك، وان لهم عليك حقاً، وهم يحبون أن تنظر في حوايجهم، فذلك أيسر عليهم من أن ينتابوك بالمدينة. قال: فأبى عليه، قال: فلما أبى قال له عبد الله بن عمرو: أما إذا أتيت فأخبرني لم تأبى؟ فقال له عمر مخافة الحدث. (. . .) وأخبرت ان عمر بن عبد العزيز وافقه شهر رمضان بمكة فخرج فصام بالطايف[3]. ويروي الفاكهي أن عمر بن عبد العزيز كان «إذا قدم مكة كانه على النصف حتى يخرج، وانه كان يرى إقامة المهاجر بعد قضاء ثلاث»[4].

ويروى البلاذري أن عمر بن عبد العزيز منع كراء البيوت بمكة وكتب إلى عامله بمكة يأمره ألا يكري بمكة شيء»[5]. ولعل هذا الأمر كان إبّان خلافته.

عمر بن عبد العزيز والفقهاء في المدينة

روى الطبري أن عمر بن عبد العزيز لما وصل المدينة عاملاً عليها «دعا عشرة من فقهاء المدينة: عروة بن الزبير (ت ٩٩)، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود (ت ٩٨)، وابا بكر بن عبد الرحمن المخزومي مولى ميمونة (ت ٩٤)، وابا بكر بن سليمان بن أبي حثمة وسليمان بن يسار (ت ١٠٩)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٠٢)، وسالم بن عبد الله بن عمر (ت ١٠٦)، وعبد الله بن عبد الله بن عروة (ت ١٠٥)، وعبد الله بن عامر بن

---

(١) تاريخ مكة ١٠٢٦.
(٢) أخبار مكة للأزرقي ١/٢٨٧، ١٧٥.
(٣) اخبار مكة ٢/١٣٤ - ٥.
(٤) تاريخ مكة ١٥٦٢.
(٥) فتوح البلدان، ٤٣.

ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري (ت ١٠٩)، فدخلوا عليه «وقال لهم ما أريد أن أقطع أمراً إلّا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فان رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل ظُلامة، فأحرِّجُ الله على من بلغه ذلك إلّا بلّغني»[1].

إن ستة من هؤلاء كانوا من فقهاء المدينة السبعة[2]، وقد اضاف إليهم أبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وعبد الله بن عامر بن ربيعة، ولم يدخل في هذه القائمة سعيد بن المسيب، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة، ولابد أن عدم ذكره في القائمة راجع إلى أن علاقته بالسلطة الأموية لم تكن طيبة، ومن مظاهر ذلك أنه امتنع عن تلبية طلب عبد الملك بن مروان بيعة ابنيه الوليد وسليمان لولاية العهد وقال: «لا أبايع وعبد الملك حي، فضربه هشام بن اسماعيل والي المدينة سبعين سوطاً، وألبسه المسوح، وسَرَّحه إلى ذباب»[3]، وهو تل مرتفع في طرف المدينة، كان ينفذ فيه أعلام من تحكم عليهم الدولة بذلك. ثم ان ابن شهاب الزهري لم يرد في هذه القائمة مع علاقته الوثيقة به، ولعل مرجع ذلك أن الزهري لم يكن مقيماً آنذاك في المدينة.

وذكر الطبري أن عمر بن عبد العزيز لما أقدم على هدم مسجد الرسول (ص)، وتوسيعه في سنة ٨٧، كان «معه وجوه الناس: القاسم، وسالم وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد وعبد الله بن عبد الله بن عمر يُرونه أعلاماً في المسجد ويقدّرونه فأسَّسوا أساسه»[4].

وهؤلاء الستة هم من العشرة الذين ذكرنا أن عمر اختارهم ليشيروا عليه، ويعاونوه في الإدارة، غير أن هذه النص لم يذكر من بينهم عروة بن الزبير، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار وعبد الله بن عامر بن

---

(١) ابن سعد ٥/٢٤٦، الطبري ٢/١١٨٣.
(٢) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢/٢٠٨.
(٣) الطبري ٢/١١٦٩، ١١٧١، وأنظر عنه الفصل الذي عن خطط، المدينه في كتابنا «الحجاز في صدر الإسلام».
(٤) الطبري ٢/١١٩٣.

ربيعة، والراجح أن عدم ذكرهم يرجع إلى أن النص لم يستوعب حضر هدم المسجد، أو أنهم لم يحضروا لأسباب طارئة.

إن أكثر هؤلاء الفقهاء هم من قريش، ومنهم ثلاثة من نسل الخليفتين الأولين القاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم وعبد الله بن عبد الله بن عمر، وأن اختيارهم يرجع إلى مكانتهم في العلم وفي المجتمع وليس إلى سند قبلي، ويدل تقارب سني وفاتهم، على تقاربهم في السن، وأنهم كانوا مشيخة «كبار السن».

ذكرت المصادر أن عمر بن العزيز صَرَّح برغبته في أن يعهد بالخلافة من بعده لواحد منهم (القاسم بن محمد)[1]، وروى مالك بن أنس أن عمر بن عبد العزيز قال لو أن القاسم لها[2] أي الخلافة.

لم تذكر المصادر حالات استشارهم فيها عمر بن عبد العزيز عند ولايته المدينة، مما قد يدل على أنهم لم يكن لهم دور فاعل في توجيهه في إدارة المدينة. وتجدر الإشارة إلى أنه عندما وَلِيَ الخلافة أرسل إلى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم يسأله عن بعض القضايا والأحوال التي ترجع إلى أزمنة سابقة وفدك والبغيبغة، كان المفروض معرفته بأحوالها عندما كان والياً على المدينة. وكتب الاستفسارات التي وجهها إلى واليه على المدينة طلب فيها أن يسأل عمرة بن الحسين والزهري وسالم، والأوَّلان ليسا ممن ورد في النصوص التي أوردناها عن أسماء مَن استشارهم.

علاقة عمر بن عبد العزيز بصالح بن كيسان

كان صالح بن كيسان مولى بن عامر ويقال مولى لآل معيقيب بن أبي فاطمة

(١) ابن سعد ٥/ ٢٥٤، طبقات التابعين ٢١٦، تهذيب ١/ ٣٢١ التبيين في انساب القرشيين ١٦٧، ٢٧٩.
(٢) ابن سعد ٣/ ١٤٠.

الدوسي ويُكْنَى أبا الحارث[١]، وتوفي سنة ١٤٠هـ[٢] «ضمه عبد العزيز بن مروان إلى عمر ابنه فلما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة، أمر عبد العزيز وهو عامله على المدينة أن يُنْفِذه إليه ففعل، فضمه إلى ابنه عبد العزيز بن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان»[٣]. وليس من الجازم أن ابن كيسان انضم إلى عمر في مصر حيث كان ابوه عبد العزيز والياً أو أن الانضمام تم في المدينة حيث كان يقيم صالح بن كيسان. أما إنفاذه إلى الشام لينضم إلى عبد العزيز بن الوليد فلا بد أنه تم في أواخر عهد ولاية عمر بالمدينة، اذ أسند إليه عمر في اوائل ولايته بناء مسجد المدينة عند توسيعه[٤]. ولا بد أن صلته كانت متينة بعمر بن عبد العزيز إبّان ولايته المدينة وأنها ضعفت بعد تَوَلّي عمر الخلافة، فلم تَذْكُر المصادر اتصالهما في بلاد الشام أو رواية لصالح بن كيسان عن عمر وأعماله بعد تَوَلّيه الخلافة كالذي نجده في أخبار محمد بن كعب القرظي أو ابن شهاب الزهري.

لم تورد كتب الصحاح الستة أو الموطأ لصالح بن كيسان غير ما ذكره البخاري عن رأيه في مكانته (الايمان ١٩، جزاء الصبر ٤) ولم يَرْوِ له ابن حنبل أو مالك في الموطّأ، وروى له الفاكهي في موضعين من أخبار مكة أحدهما عن إطراء أهل العراق مصعب بن الزبير (٦٢٨)، والثاني عن نزول الرسول (ص) المحصب، ولم ينقل عنه أبو يوسف في الخراج.

روى لصالح بن كيسان كل من ابن سعد والطبري والبلاذري نصوصاً متعددة جاءت عن عدة رواة. فاما ابن سعد فإنه روى لصالح بن كيسان سبعة عشر نصاً عن ابن شهاب الزهري ٤٨، ١ ـ ٢/١٤١، ٢ ـ ١/١٠، ٩٢، ٢ ـ ٢/٢، ١٠، ٣ ـ ١/٢٤٩، ٥٠، ١٨٦، ٢٥، ٤ ـ ٤٨٨، ٥٤، ٨/١١، ٤ ـ ٢/٧٣.

---

(١) الطبقات ٢٦٣، ابن سعد (الطبقة الرابعة).
(٢) ابن سعد: الطبقة الرابعة ٣٢٩، المعارف لابن قتيبة ٤٨٦، المعرفة والتاريخ للنسوي ٢/٥٦٨.
(٣) المحبر ٤٧٣.
(٤) الطبري ٢/١١٩٣.

وروى عنه واحداً عن صالح بن نبهان مولى التوائمة عن ابن هريرة (٨/ ٥٧) وروايات ابن سعد كافة جاءت عن طريق يعقوب بن ابراهيم عن أبيه ابراهيم بن سعد الزهري عن صالح بن كيسان.

أما البلاذري فإنّه في الاجزاء الخمسة المطبوعة من كتابه «أنساب الأشراف» روى لصالح بن كيسان اثنين وعشرين نصاً جاءت أكثرها عن زهير بن جعونة عن طريق الواقدي والمدائني ويعقوب بن إبراهيم بن سعد كما روى عن أحمد بن ابراهيم الدورقي، وأخذ الطبري عن صالح بن كيسان عشرة نصوص منها ثمانية عن الواقدي واثنان عن ابن اسحاق وكلها أخبار في الحوادث التاريخية.

يروي الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن ابيه «كانوا عشرة يجلسون مجلساً واحداً يعرفون به. وكانوا سِنّاً واحدة فقهاء علماء منهم يعقوب بن عتبة (ثقيف)، وعثمان بن محمد بن الاخنس، وعبد الله وعبد الرحمن، والحارث بن عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسعد بن ابرهيم، والصلت بن ربيعة، وصالح بن كيسان، وعبد الله بن يزيد بن هرمز، وعبد الله بن يزيد الهذلي[1] ولم يذكر أي منهم مع الفقهاء العشرة الذي دعاهم لاستشارتهم في شوؤن الادارة.

ويروي الواقدي عن محمد بن عبد الله بن كثير بن الصلت أن هؤلاء العشرة كانوا يجتمعون في منزل عبد الله بن يزيد بن هرمز في بني ليث فيتذاكرون الفقه ويتحدثون فما تفرقوا إلا من طعام[2]. وكل هؤلاء عرب خلا صالح بن كيسان وعبد الله بن يزيد بن هرمز، ووصف ابن سعد كلًّا من الحارث بن عكرمة، عبد الله بن عكرمة بأنه «قليل الحديث»[3] وذكر ان سعد بن ابراهيم «يقضي في

(١) طبقات التابعين ٢٧١.
(٢) طبقات التابعين ٣٢٨.
(٣) طبقات التابعين ٢٧١.

المسجد»[1] وقد يدل هذا على انهم كانوا إلى الفقه أميل منهم إلى الحديث، وأن توجهاتهم الفكرية لم تكن منسجمة مع ما يميل إليه عمر بن عبد العزيز، وسنذكر فيما بعد ان صالح بن كيسان كان يُعْنَى بالحديث ويَقْصُرُه على ما جاء عن الرسول (ص) ولا يدخل فيه ماجاء عن التابعين.

توسيع المسجد النبوي وتجديد بنائه

من أول أعمال عمر بن عبد العزيز إبان ولايته المدينة قيامه بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بتوسيع المسجد النبوي وتجديد بنائه، وفي هذا يقول خليفة «في سنة ٨٧ بنى الوليد بن عبد الملك مسجد دمشق، وأمر عمر بن عبد العزيز فبنى مسجد رسول الله (ص) وزاد فيه»[2] ويقول البلاذري إن الوليد بن عبد الملك» كتب إلىٰ عمر بن عبد العزيز وهو عامله يأمره بهدم المسجد وبنائه، وبعث إليه بمال وفسيفساء ورخام، وثمانين صانعاً من الروم والقبط من أهل الشام ومصر، فبناه وزاد فيه، وولّى القيام بأمره والنفقة عليه صالح بن كيسان[3].

كان المسجد النبوي قد أجرى فيه عمر بن الخطاب بعض التوسيع في جهة الغرب، وجعله مائة وعشرين ذراعاً[4] ثم زاد فيه عثمان بن عفان سنة ٢٩ من جهة الغرب، وبناه بالحجارة المنقوشة والقصة وبيضه بالقصة وجعل له أعمدة من الحجارة المنقوشة، وبنى عمد الحديد فيها الرصاص، وسقفه، وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه ستة أبواب على ما كان على عهد عمر[5] وبنى فيه المقصورة وكانت مرتفعة واستعمل على المقصورة السائب بن خباب، وكان رزقه على عمله دينارين في كل شهر[6]

---

(١) طبقات التابعين ٢٧١.
(٢) تاريخ خليفة ٣٠٤.
(٣) فتوح البلدان ٥ ـ ٦.
(٤) وفاء الوفا للسمهودي ١/٣٢٦.
(٥) وفاء الوفا ١/٣٥٩.
(٦) وفاء الوفا ١/٣٦٢.

وهذه أول زيادة بعد زيادة عثمان[١] وكانت زيادة الوليد في الجانب الغربي أيضاً ودخل في هذه الزيادة دار عبد الرحمن بن عوف وحجر أزواج النبي[٢] وقد هدمه بعمال من المدينة، واستغرق في الهدم وشراء الأماكن وتحضير النور ثلاث سنوات (٨٨ ـ ٩١) [٣] ونقل لبنه، ولبن عمر بن عبد العزيز ولبن المسجد ولبن الحجرات فبنى بها داره التي بالحرة[٤].

بنى عمر بن عبد العزيز بالحجارة المنقوشة المطابقة وقصة منخولة من بطن نخل، وعمل الأساس بالحجارة والجدار بالحجارة المطابقة والقصة، وجعل عن المسجد من حجارة حشوها الحديد والرصاص، وعمله بالفسيفساء والمرمر وعمل سقفه بالباج وماء الذهب[٥].

يروي الطبري عن صالح بن كيسان: «بدأ بهدم مسجد الرسول (ص) في صفر سنة ٨٨هـ، وبعث الوليد إلى صاحب الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله (ص) وان يعينه فيه فبعث إليه بمائة الف مثقال ذهب وبعث إليه بمائة عامل، وبعث إليه من الفسيفساء أربعين حملاً، وأمر ان يتتبع الفسيفساء في المدائن التي خربت، فبعث بها إلى الوليد فبعث بذلك الوليد إلى عمر بن عبد العزيز[٦].

يروي المسعودي أن الوليد كتب «الى ملك الروم إنّا نريد أن نعمر مسجد نبينا الاعظم فأعِنَّا فيه بعمال وفسيفساء فبعث إليه بحمال من فسيفساء وبضعة وعشرين عاملًا، وقال بعضهم بعشرة عمال وبثمانين ألفاً» ونقل عن قدامة بن مدس وعن زيد ان ملك الروم بعث إليه بأربعين عاملًا من الروم وبأربعين من

---

(١) وفاء الوفا ٣٥٨، ٣٦٤
(٢) وفاء الوفا ٣٦٣، ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧٠.
(٣) وفاء الوفا ٢٦٨، ٣٧٠
(٤) وفاء الوفا ٣٦٨
(٥) وفاء الوفا ٣٦٨
(٦) الطبري ٢/ ١١٩٤

القبط وبأربعين الف مثقال[١] وقد اثار هذا القول نقاشاً عند المحدثين فمع ان الاخبار تذكر ان الوليد كان يهدي ملك الروم الفلفل[٢] إلا انه يصعب قبول القول ان الوليد استعان بعمال من البيزنطيين، والارجح ان هؤلاء العمال جاؤوا من بلاد الشام ومن أصحاب المذهب الارثوذكسي الذين يدين به البيزنطيون[٣].

بنى العمال القبط مقدم المسجد، اما العمال الروم فكانت «تعمل ما خرج من السقف جوانبه ومؤخره»، ويروى أن سعيد بن المسيب قال إن عمل القبط أحكم، وكان يدفع على عمل الشجرة الكبيرة من الفسيفساء أربعين درهماً[٤] وقدر تكليف السقف بأربعين ألف دينار[٥] ولما هدم عمر بن عبد العزيز المسجد «أشهد مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالي أنه لم ينقصه»[٦].

وتدل الأحوال على أن البناء الجديد كان فخماً جذاباً، ولكنه لم يَحْظَ برضا عدد من أهل المدينة، ويروى ان الوليد بن عبد الملك قال أبان بن عثمان «اين هذا البناء من بنائكم، قال بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس»[٧].

صار عرض المسجد بعد زيادة عثمان مائة وخمسة وستين ذراعاً، وعرضه من موخره مائة وثلاثين ذراعاً من جهة الشمال[٨] ولم يزد فيه من المشرق ولا المغرب ولا القبلة شيئاً[٩].

---

(١) وفاء الوفا ١/٣٦٧.
(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٨٩، ٩٩.
(٣) انظر دراسة جب «العلاقات العربية البيزنطية» المنشورة ترجمتها في كتاب دراسات في حضارة الإسلام.
(٤) وفاء الوفا ١/٣٧٢.
(٥) وفاء الوفا ١/٣٧١.
(٦) وفاء الوفا ١/٣٦٨.
(٧) وفاء الوفا ١/٣٧٠، ٣٧١.
(٨) وفاء الوفا ١/٣٦٨.
(٩) وفاء الوفا ١/٣٨٠.

وأحدث عمر بن عبد العزيز في المسجد المحراب والشرفات وعمل الرصاص على طنف المسجد والميازب التي من الرصاص[1] وجعل مقصورته من الساج[2].

وجعل للمسجد الذي بناه اربع منارات في كل زاوية منارة طول كل منها ستون ذراعاً[3].

وخلّق عمر المسجد، وهو أول من خلقه، ورزق المؤذنين واستأجر حرساً يمنعون أن يحترف فيه أحد[4].

إعادة بناء مساجد المدينة

أعاد عمر بن عبد العزيز بناء عدد من مساجد المدينة بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك فيروي، أبو غسان عن غير واحد من أهل العلم من أهل البلد أن كل مسجد من مساجد المدينة ونواحيها مبني بالحجارة المنقوشة المطابقة فقد صلى فيها رسول الله (ص) ذلك ان عمر بن عبد العزيز حين بنى مسجد رسول الله (ص) سأل والناس متوافرون يعرفون المساجد التي صلى فيها رسول الله (ص) ثم بناها بالحجارة المنقوشة المطابقة[5].

وذكر السمهودي ان عمر بن عبد العزيز بعد أن بنى مسجد النبي بنى مسجد قباء فوسعه وبناه بالحجارة والجص وأقام فيه الأساطين من الحجارة بينها

---

(١) وفاء الوفا ١/ ٣٧٢.

(٢) وفاء الوفا ١/ ٣٦٢.

(٣) وفاء الوفا ١/ ٣٧٣؛ وانظر الدراسة المستوعبة التي نشرها سوفاجيه في كتابه عن مسجد المدينة La Mosque ed Medina.

(٤) وفاء الوفا ١/ ٣٧٦ ولا ريب في ان كتاب السمهودي فيه أوسع المعلومات عن مختلف الجوانب المتعلقة بمسجد الرسول (ص) اعتمد فيها على مؤرخي القرن الثاني وبخاصة ابن زبالة ورزين ويحيى

(٥) تاريخ المدينة لابن شبه ١/ ٧٤، وفاء الوفا ٢/ ٥٤.

عواميد الحديد والرصاص ونَقَشَه بالفسيفاء وعمل له منارة، وسَقَفَهُ بالساج وجعل له أروقة، وفي وسطه رحبة[(١)].

وذكر أن مسجد ذباب مبنى بالحجارة المطابقة على مساجد العمرية[(٢)].

وأنه كان في البقيع مسجد «كان مبنياً بالحجارة المنقوشة والقصة كالبناء العمري»[(٣)].

ولابد أن بناء هذه المساجد، وهي قرابة العشرين، استغرق وقتاً، وتَطَلَّب من الوالي جهداً لمتابعته والإشراف على إنجازه، وكان القائمون بأعمال الزخرفة وربما البناء أيضاً عمالاً من الأعاجم بنوها بأساليب تختلف عما كان في المدينة؛ وتجدر الإشارة إلى أنه في زمن الوليد جددت مساجد وأعيد تعميرها في عدد من الامصار ومنها مسجد مكة، ومسجد البصرة، ومسجد الكوفة، ومسجد الفسطاط.

---

(١) وفاء الوفا ٢/ ٢٤.
(٢) وفاء الوفا ٢/ ٥٠.
(٣) وفاء الوفا ٢/ ٥٦.

الفصل الثامن

خلافة عمر بن عبد العزيز

ولاية العهد

كان سليمان أخا الوليد، وأمهما ولّادة بنت عباس العبسي[1]، ولعله كان أكبر أولاد عبد الملك بعد الوليد، ولّاه أبوه عبد الملك على فلسطين[2] وظل في ولايتها إلى أن وُلِّيَ الخلافة، وكان عبد الملك قد سمى لولاية العهد اخاه عبد العزيز ثم ابنه الوليد، فلما توفى عبد العزيز جعله عبد الملك ولياً للعهد بعد اخيه الوليد. ولا بد ان ادارته الناجحة كانت اقوى الدوافع في اختياره لولايه العهد، فلم تذكر المصادر مشاكل وقضايا استثنائية واجهها إبان ولايته على فلسطين التي كان أكثر المُقاتِلَة العرب فيها من لخم وجذام وكندة.

ولم تذكر له محاولة لربط أهل فلسطين بولاء شخصي له، علما بأن فلسطين كانت جنداً غير كبير، ولم تشر المصادر إلى امتداد ولايته على الأجناد المجاورة بما في ذلك الأردن المجاورة لفسطين والمتداخلة معها.

سعى الوليد لخلع سليمان عن ولاية العهد والبيعة لابنه عبد العزيز، وأيد الوليد في سعيه الحجاج وقتيبة وخواص من الناس ويبدو أنه كان مدفوعاً بعزمه بدوافع شخصية من عاطفة الأبوة، وليس إلى سوء تصرف سليمان الذي لم

(١) جمهرة النسب لابن حزم ١.
(٢) تاريخ خليفة ٣٠١، ٣١٦، فتوح البلدان ٤٣.

يرض بالتنازل عن ولاية العهد، وظل مقيما بالرملة بعيداً عن الوليد الذي توفى قبل أن يفلح في عزل سليمان؛ ولا شك ان سليمان استاء ممن أيَّد الوليد في محاوله عزله عن ولايه العهد، ولا نعلم ما كان سينزله بالحجاج الذي توفي قبل اعتلاء سليمان الخلافة، اما قتيبة بن مسلم، فقد توقع العقاب الصارم الذي سينزله به سليمان فأعلن ثورة انتهت بمقتله. ولعل ما أنزله سليمان بموسى بن نصير من أذى يرجع إلى موقفه من بيعه سليمان. ولم تذكر المصادر «الخواص من الناس» الذين أيَّدُوا الوليد في محاولته عزل سليمان عن ولايه العهد، ولا بد أن عدداً منهم كان من أفراد الأسرة الأموية والمروانية، وعدم إنزال الاذى فيهم لا يدل على أن موقفهم لم يسبب شرخاً في تماسك الأسرة الحاكمة.

تُجمع المصادر على أن سليمان بن عبد الملك بعد أن وُلِّيَ الخلافة عَمِلَ على جعل ولاية العهد لابنه أيوب، وهو أكبر اولاد سليمان، أمه مليكة بنت أبان بن الحكم بن أبي العاص[1]، وزوجته ام عبد الله بنت عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان تزوجها بعد وفاة زوجها الاول الخليفة الوليد بن عبد الملك، وكانت اختها عند عبد العزيز بن مروان[2]؛ قال عنه ابن قتيبة: كان أيوب عفيفاً، أديباً[3] وكان مؤدبه عون بن عبد الله المسعودي[4]. وقد توفي في حياة أبيه في الشام ولا عقب له. وكان سليمان «حين وُلِّيَ بايع لابنه ايوب بن سليمان[5]، وذكر أن سليمان عندما حج في السنة الثانية من خلافته كان يريد الحصول على البيعة لابنه أيوب.

يروي ابن سعد عن رجاء بن حيوة أن عمر بن عبد العزيز «لما ثَقُلَ كَتَبَ كتاباً عَهِد به إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ، فقلت: ما تصنع يا أمير

---

(١) جمهرة النسب لابن حزم، ١١٠.
(٢) جمهرة النسب لابن حزم ٨٥.
(٣) المعارف لابن قتيبة ٣٦١.
(٤) المحبر ٤٧٧.
(٥) المعارف لابن قتيبة ٣٦١.

المؤمنين: ان مما يُحفَظ به الخليفةُ في قبره أن يُستخلف الرجل الصالح، وقال سليمان: كنت استخير الله فيه أنظُر ولم أعْزِم عليه، فمكث يوما أو يومين ثم خرقه، ثم دعاني فقال ما ترى في داود بن سليمان، فقلت هو غائب بالقسطنطينية وأنت لا تدري أحيٌّ هو أو ميت، قال يا رجاء فمن ترى؟ فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين. فقال كيف ترى عمر بن عبد العزيز؟ فقلت أعلمه والله خير مسلم، فقال هو على ذلك والله»[1]، ان هذا النص يظهر ان سليمان بحث أمر ولاية العهد «لما ثَقُلَ» أي في آخر خلافته، وانه أراد أن يولي أيوب وهو غلام لم يبلغ، وان المرشح الثاني الذي فكر سليمان في تَوَلِّيه هو ابنه داود، وكان يشارك في حصار القسطنطينية ولم يرد في الكتب معلومات عن داود هذا، علما بأن سياق النص يقضي أنّه كان أكبر من أيوب، وهذا يخالف ما يتردد في المصادر من أن أيوب أكبر أولاد سليمان. وعلى أي حال فان النص يظهر ان ايوب كان حياً عند وفاة والده سليمان، وهذا يخالف الروايات الكثيرة انه مات في حياة والده. والراجح أن سليمان لما ثَقُلَ أراد معالجه أمر ولاية العهد، ولم يكن من أولاده، وهم صغار قليلو الخبرة، مَنْ يَصْلُح لها، ففكر في اختيار مرشح من غير اولاده ورأى ان يرشح عمر بن عبد العزيز[2].

وكان عمر بن عبد العزيز مقرباً من الخليفة سليمان، وقد ذكرنا أنه رافقه في الحج، وكان معه في دابق عندما حضرته الوفاة، ولعله كان قريباً منه في معظم ايام خلافته. ويروى عمرو بن ميمون انه عندما زار سليمان الجزيرة الفراتية كان «عنده عمر وهو اشد الرجال واغلظهم عنقاً»[3]، أي أبرز رجال الحاشية في قوة بدنه، وربما في عزمه ومكانته. وذكر ابن عبد الحكم ان لعمر بن عبد العزيز «كانت عند سليمان منزلة وناحية دون بني مروان»[4]، وأنه خرج معه مرات،

(١) ابن سعد ٥ / ٢٤٧

(٢) لابن عبد الحكم ٢٨.

(٣) ابن سعد ٥/٣١٧.

(٤) ابن عبد الحكم ١١٨.

ومنها عندما اراد الصائفة[١]، وكان أساس هذه المكانة تَقَارُب تفكير الرجلين في ما ينبغي توجيه الإدارة للوصول إلى أسلم النتائج، يضاف إلى ذلك أن علاقة سليمان بإخوته لم تكن متينة ما عدا علاقته بمسلمة، وان عمر بن عبد العزيز أظهر إبَّان خلافة سليمان اهتمامه بمستقبل الأمة والدولة، ووجوب الانصراف إلى الجدية والسلوك المرضي بدل الانغماس في الترف.

أدرك سليمان بن عبد الملك أن إخوته يكوّنون كتلة قوية لا يصح تجاهلها، وهم يحرصون على بقاء الخلافة فيهم، ويروي ابن سعد أنه عندما عزم على اختيار عمر بن عبد العزيز قال: «والله لئن وَلَّيْتُه ولم أُوَلِّ أحداً من وُلْد عبد الملك لتكونَنّ فتنة ولا يتركونه أبداً علي إلا أن أجعل أحدهم بعده ويزيد بن عبد الملك يومئذ غائب عن الموسم، قال: فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده، فإن ذلك مما يُسَكِّنهم ويرضَونَ به»[٢].

وقد بدت ظواهر مواقفهم عندما أُعلنت خلافة عمر بن عبد العزيز إذ أن هشام بن عبد الملك لمَّا عَلِمَ بذلك «انصرف... وهو مؤسس وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو يقول فإلى من إذا نُحيّتْ عني؟ اتخرج من بني عبد الملك، فوالله، إني لَعين بني عبد الملك»[٣]. وأعلن عبد العزيز بن الوليد الثورة، فَعَقَدَ لواءه ودعا إلى نفسه. غير أنه لما علم ببيعة الناس بعهد سليمان أوقف حركته، وقَدِمَ إلى عمر بن عبد العزيز معتذراً معلناً البيعة[٤].

---

(١) ابن عبد الحكم ٢٣.
(٢) ابن سعد ٥/ ٢٤٧.
(٣) ابن سعد ٥/ ٢٤٨، ٢٥٠.
(٤) ابن سعد ٥/ ٢٤٩، الطبري ٢/ ١٣٤٥.

الفصل التاسع

مكان الإقامة

أماكن إقامة الخلفاء الأولين

لم تُذكر تفاصيل عن أماكن إقامة الخلفاء الأمويين، وإنما ذُكِرت الأماكن التي فيها تُوُفُّوا أو دُفِنوا. ومن المعلوم أن الأحوال تطلبت وجود بعضهم لمدة موقتة في مواضع الأحداث التي شاركوا فيها. فأما معاوية، فإنه قاد غزو قبرص بنفسه إبَّان ولايته الشام في زمن عثمان، وقاد الجيش إلى صفين، ثم تقدم إلى الكوفه بعد تنازل الحسن عن الخلافة، فنظم أحوالها ثم عاد إلى بلاد الشام، ولعله ظل مقيماً بعدها في دمشق ومقره في قصره «الخضراء»، ولم يُعرف عنه مغادرتها إلى وفاته.

أما مروان فشارك في الأحداث التي ثَبَّتت خلافته في مرج راهط، ثم سار إلى مصر فأمّن سيطرة الأمويين عليها، وعاد بعدها إلى دمشق حيث تُوُفي.

وأما عبد الملك، فقاد حملتين إلى العراق، وصلت أولاهما إلى أطراف تدمر، والثانية إلى مسكن في العراق حيث انتصر على مصعب بن الزبير وقضى عليه، ثم قدم الكوفة، وعاد إلى دمشق ولم يغادرها، وتوفي فيها.

غير أن عدداً من الخلفاء الأمويين تُوُفُّوا خارج دمشق، وهم يزيد بن معاوية، والوليد، وسليمان، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم عدد ممن تلاه من الخلفاء.

مقام يزيد بن معاوية

ذكرت المصادر أن يزيد عندما تُوُفِّي أبوه معاوية كان في حوّارين[1] وتوفي فيها[2]. وذكر الواقدي أنه دُفن في دمشق «في مقبرة الباب الصغير، ومات بحوارين فحمل على أيدي الرجال إلى دمشق وفيها دفن ابوه معاويه[3]. غير ان الطبري والبلاذري يرويان قصائد تذكر انه دفن بحوارين[4]. ولعله كان يقيم فيها معظم أيام خلافته.

ذكر الطبري أن حوّارين من قرى حمص، وحدّد البلاذري موقعها التقريبي عند وصفه محطات الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد عندما قَدِم من العراق إلى الشام، فيقول إن خالداً بعد أن أتى تدمر «أتى القريتين، ثم أتى حوارين من سنير. وقد جاءهم مدد أهل بعلبك وأهل بصرى، وهي، مدينة حوران. ثم أتى مرج راهط»[5]. وينقل ياقوت عن كتاب الفتوح لأبي حذيفة إسحاق بن بشر: «وسار خالد بن الوليد من تدمر حتى مر بالقريتين، وهي التي تدعى حوارين»[6].

وصف ياقوت موقع جبل سنير فقال: «يمتد مغرباً إلى بعلبك، ويمتد مشرقاً إلى القريتين وسلمية، وهي في شرقي حماة، وجبل الجليل مقابله من جهة الساحل وبينهما الفضاء الواسع الذي فيه حمص وحماه وبلاد كثيرة، وهذا جبل كورة قصبتها حوارين وهي القريتين[7]. وذكر المسعودي: «هلك يزيد بحوّارين من أرض دمشق فما يلي قارا والقُطيفية في طريق حمص في البر»[8].

---

(١) الطبري ٢/٢٠٧.
(٢) الطبري ٢/٤٢٨، انساب الاشراف ٤ ـ ٢/٦١٢٢.
(٣) انساب الاشراف ٤ ـ ٢ / ٢.
(٤) الطبري ٢/٤٨٩، انساب الاشراف ٤ ـ ٢/٦١.
(٥) فتوح البلدان ١١١، معجم البلدان ٢/٣٥٥.
(٦) معجم البلدان ٢/٣٥٥.
(٧) معجم البلدان ٣/١٢٢.
(٨) التنبيه والاشراف ٢٦٤.

قبر الوليد بن عبد الملك

أما الوليد بن عبد الملك فقد ذكر الطبري أنه «توفي بدير مرّان ودفن خارج باب الصغير، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز»[1]، ولم تذكر المصادر مدة إقامته بدير مرّان.

ويبدو أن دير مرّان كان فيها مقاتلة عرب من لخم، فلما حدثت الثورة على الوليد بن يزيد «أقبل جميل بن حبيب اللخمي في أهل دير مران والأرزة وسطراق، فدخلوا من باب الفراديس»[2].

وينقل ياقوت عن الخالدي: «هذا الدير بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة، وبناؤه بالجص وأكثر فرشه بالبلاط الملون، وهو دير كبير، وفيه رهبان كثيرة، وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني، والاشجار محيطة به، وفيه قال الصنوبري»[3]، ويذكر أن يزيد بن معاوية كان يقيم فيه[4]، وذكره في شعره:

اذا اتكأتُ على الأنماطِ مرتَفَقاً ... في دير مُرَّانَ عندي أمُّ كلثومِ[5]

وكان مقام هشام بن عبد الملك في الرصافة.

وكان الوليد بن يزيد في الحصن المعروف بالبخراء مما يلي البرية بين حمص ودمشق.

مراكز إقامة عمر بن عبد العزيز إبان خلافته

بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة في دابق حيث حضر وفاة الخليفة

---

(١) الطبري ٢/ ١٢٧١.
(٢) الطبري ٢/ ١٧٩٢.
(٣) معجم البلدان ٢/ ٦٩٦.
(٤) معجم البلدان ٢/ ٦٩٧.
(٥) معجم البلدان ٣/ ٥٥٥، ٧٧٨، ٤/ ٤٧.

سليمان بن عبد الملك[١]، وشارك في دفنه وظل طوال مدة خلافته القصيرة يقيم في بلاد الشام، ولم يغادرها إلى أي إقليم آخر، ولم يَقُم ابان خلافته بالحج وانما كان ينيب على ولايته الحج أبا بكر بن عمرو بن حزم والي المدينة.

ذكر اليعقوبي أن عمر بن عبد العزيز تنقّل بعد توليه الخلافة فقال إنه ارتحل إلى خناصرة فنزلها، وهي برية في أطراف جند قنسرين، وهمّ أن ينزل في منازل أهل بيته التي بنوها بمال الله، وفيء المسلمين، ثم كلم في ذلك وقيل له إن في نزولك البرية إضراراً بالمسلمين، فخرج إلى دمشق فنزل دار أبيه التي كانت إلى جانب المسجد، وأقام عشرين يوماً، وكثر عليه الناس، فارتحل إلى مدينة حمص راجعاً يريد أن ينزلها، فلمّا صار إلى أوائل حمص اعتل، فمال إلى موضع يعرف بدير سمعان فنزله ويقال بل ارتحل إليه ونزله بسبب قطعة أرض كان قد ورثها عن أمه فيه، فلما صار إلى دير سمعان أتاه الخبر بخروج شوذب الحروري فأمر بتوجيه جيش إليه، دُفِنَ في دير سمعان[٢].

ان هذا النص، وهو أشمل ما وصلنا عن تنقله، يُظهر أن عمر بن عبد العزيز بعد تَوَلّيه الخلافة لم يستقر في مكان واحد، وانما غيّر إقامته في عدة أماكن بالتعاقب:

١. انتقل من دابق حيث بويع، إلى خناصرة؛

٢. تحول منها إلى دمشق فأقام في دار أبيه عشرين يوماً؛

٣. انتقل إلى حلب؛

٤. تحول منها إلى خناصرة؛

٥. أقام في دير سمعان حيث توفي.

إن هذا النص لا يَذْكُر تاريخ وصوله هذه الأماكن ومدة بقائه في كل منها

---

(١) التنبيه والاشراف ٢٨٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩.

سوى قوله إنه أقام بدمشق عشرين يوماً، وهذا النص يبين تنقُّل عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة في عدة أماكن من بلاد الشام، ولكنه لا يذكر أسباب عدم استقراره في مكان واحد أو تواريخ ومدة بقائه في كل منها سوى ما ذكر أنه أقام بدمشق عشرين يوماً.

لم ينفرد عمر بن عبد العزيز في العزوف عن سكنى دمشق إذ أن معظم الخلفاء الأمويين لم يتخذوا فيها مقامهم الدائم. ولعل عمر بن عبد العزيز كان في تنقله متأثراً بنفس العوامل التي حملت الخلفاء الامويين الآخرين على الانتقال منها.

ينسب ابن الكلبي سبب هذا التنقُّل إلى كثرة الطواعين في بلاد الشام؛ ونقل عنه قوله: لما كثر الطاعون في زمن بني أمية وفشا، كانت العرب تنتجع وتبني القصور والمصانع هرباً منه إلى أن وُلِّي هشام بن عبد الملك فابتنى الرصافة[1]. وقد اشارت المصادر إلى اشتهار الشام بطواعينها في زمن الأمويين وكأنَّ ابن الكلبي يشير إلى ان هذه الطواعين كانت تصيب الحواضر ولا تنتشر في البوادي، وقد اقتصرت المصادر على ذكر ارتياد البوادي على الخلفاء، ولابد أنه كان يعم الجُمْهور مما يؤدي إلى تقلص المدن في بلاد الشام، وهو مخالف للواقع، فلا بد أن يكون انتقال الخلفاء من دمشق راجعاً إلى عوامل أخرى تتعلق بحياة الخلفاء وحدهم، فلم تعم الكافة ولم تفقد دمشق مكانتها مركزاً للدواوين المركزية وإدارة الدولة، ولعل عزوف الخلفاء الأمويين عن الاستقرار في دمشق راجع إلى عوامل أمنية من أبرزها أن دمشق كانت مستقر رجال الأسرة الأموية وما يرافقه من انقسامات يتحدى بعضها الخليفة نفسه فتدفعه إلى تفضيل الابتعاد عن دمشق، علماً بأن كثيراً منهم كان يتنقل إلى مراكز حضرية ولا يقيم منعزلًا في خيام البوادي وقصورها. ولا يصح إرجاع هذا الانتقال إلى

---

(١) بغية الطلب لابن العديم ١/ ١٦٠.
وانظر عن اقامة الخلفاء الامويين في البادية مقال لامنس «البادية» Etudes Sur Le Siècle des Omayyades.

الابتعاد عن حياة الترف أو الانغماس فيها، حيث أنّ ممن انتقل عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك اللذين لم يعرف انغماسهما في حياة المجون والأنس بعد توليهما الخلافة.

إن الأماكن التي نقل عمر بن عبد العزيز مقامه فيها شملت دابق وحلب وخناصرة ودير سمعان وكلها تقع في الأطراف الشمالية من بلاد الشام وهي أقرَب إلى بلاد الروم ومراكز تحشّد الجيش العربي لمواجهتها، واكثرها تقع بعيدة عن طرف البرية وهذا يُظهر خطل الرأي القائل إن الانتقال من دمشق يرجع إلى تجنب الطواعين.

إن نص اليعقوبي يشير إلى أن أول مكان ارتحل إليه بعد توليه الخلافة هو خناصرة من أطراف جند قنسرين، وقد وصفها بعض كتب البلدان فقال أبو زيد البلخي: «الخناصرة على شفير البرية كان يسكنه عمر بن عبد العزيز»[١]، وذكر ابن حوقل: «خناصرة هي حصن يحاذي قنسرين وكانت ناحية البادية على شفيرها وسيفها، وكان عمر بن عبد العزيز يسكن بها وكانت صالحة في قدرها مغوثة للمجتازين عليها في وقتنا، لأن الطريق انقطع في غير وقت من بطن الشأم على التجار باعتراض السلطان عليهم وبما سرح الروم بالشأم في غير وقت. فلجأوا إلى طريق البادية لبوار السلطان، واستيلاء الأعراب على الولاة...»[٢].

وذكر ياقوت: «خناصرة مدينة كبيرة مشهورة ذات قرى ومزارع بين القبلة والشمال من مدينة حلب، مدينة كان ينزلها عمر بن عبد العزيز وهي صغيرة».

ويقول ابن العديم: «خناصرة كانت بلدة صغيرة ولها حصن وبناؤها بالحجر الأسود الصلد وهي من كورة الاحص وبلاد بني أسد، وكان عمر بن عبد العزيز قد تديرها وكان يقيم بها في أكثر أوقاته، وهي اليوم قرية من قرى الأحص يسكنها الفلاحون وخرب حصنها وابنيتها ونقلت حجارتها وسميت باسم بانيها

(١) بغية الطلب لابن العديم ١/ ١٦٣ المسالك للاصطخري ٩١.
(٢) ابن حوقل ١٦٥، ياقوت ٢/ ٤٧٣ بغية الطلب ١/ ١٦٣

خناصرة بن عمرو بن الحارث». ثم ينقل نصوصاً من البلاذري وابن الكلبي أن خُناصرة من بني كنانة من كلب[1].

يظهر من هذا النص أن خناصرة مدينة عربية أول من انشأها رئيس عشيرة كلب، وأن الوليد نزل فيها وانها على طرف البادية وكانت تمر بها القوافل، ثم تعطل مرورها فاصاب البلد تدهوراً.

ان نص اليعقوبي يُظهر أن خناصرة اول بلد انتقل إليه بعد توليه الخلافة وانه كان فيها «منازل أهل بيته التي بنوها بمال الله وفيء المسلمين»، ولم يوضح من هم أهل بيته الذين بنوا فيها المنازل، ولعل منهم الوليد بن عبد الملك الذي يذكر ابن العديم أنه نزلها وعندها قَدِم عليه الشاعر عدي بن الرقاع ومدحه بقصيدة[2]. وقد يدل هذا على ان عمر بن عبد العزيز كان يعرف خناصرة قبل توليه الخلافة، ولكنه أدرك أن الإقامة في خناصرة تسبب عزلته عن الناس الذين يحتاج إلى الاتصال بهم في أوائل أيام خلافته، غير ان النص لا يذكر كم من الوقت أقام فيها.

وفي هامش كتاب الزيارات ان خناصرة من الجهة الشرقية من البرية على طريق بالس ويذكر النص ان عمر بن عبد العزيز انتقل من خناصرة إلى دمشق فاقام في منزل أبيه. ولم يبق في دمشق سوى عشرين يوماً انتقل بعدها إلى حلب حيث كثر عليه الناس فارتحل عنه ولا نجد مبرراً لتجنبه كثرة الناس عليه.

يذكر نص ياقوت أن عمر بن عبد العزيز أراد الانتقال من حلب إلى حمص، وهي أحد المراكز الكبرى في بلاد الشام، غير أنه لم يصلها إذ اعتل في طريقه إليها وأقام بدير سمعان حيث وافته المنية.

أما دير سمعان، فإن ياقوت يذكر انه «في موضع نزه وبساتين محدقة به وعنده قصور ودور، وعنده قبر عمر بن عبد العزيز»[3] وهو على نحو ثلاثين أو

---

(١) بغية الطلب ١/ ١٦١، وانظر فتوح البلدان ١٤٨.
(٢) بغية الطلب ١/ ١٦٢، وانظر عن اقامته فيها ١/ ٦٤.
(٣) معجم البلدان، ٢/ ٦٧١.

أربعين ميلًا من خناصرة من جهة قِنّسرين وذكر المسعودي أنه من أعمال حمص ما يلي قنسرين[1].

ويذكر ابن العديم أن دير سمعان من قرى معرة النعمان ويقال لها أيضاً دير النقيرة؛ لأن إلى جانبها قرية يقال لها النقيرة، قبر عمر بن عبد العزيز هو في صفين إلى جانبه من خلف ظهيره قبر أبي زكريا يحيى بن المنصور وكان احد اولياء الله تعالى، وله كرامات ظاهرة، وكان قد اقام في مسجد هذه القرية يعبد الله تعالى حتى أدرك أجله فدفن في الحائر إلى جنب عمر[2].

ويذكر السمعاني في كلامه عن معرة النعمان «قبر عمر بن عبد العزيز في سوادها بموضع يقال له دير سمعان»[3] ويقول الهروي «دير نقيرا من بلد المعري فيه قبر عمر بن عبد العزيز وعنده قبر الشيخ أبي زكريا المغربي من كبار الصالحين، وقيل قبره بدير سمعان والمشهور هذا»[4].

ويقول المسعودي إن عمر بن عبد العزيز توفي بدير سمعان من أعمال حمص مما يلي بلاد قنسرين.. وقبره مشهور في هذا الموضع يغشاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية ولم يتعرض لنبشه فيما سلف من الزمان كما تعرض لقبور غيره من بني امية[5].

وذكر ياقوت، دير مران (ولعله قصد سمعان) على الجبل المشرف على كفر قرب المعرة يزعمون أن فيه قبر عمر بن عبد العزيز وهو مشهور لذلك يزار إلى الآن[6].

---

(١) التنبيه والاشراف ٢٦٤.
(٢) بغية الطلب ١/ ١٢٣.
(٣) الانساب. مادة معرة النعمان.
(٤) الزيارات ٤٥.
(٥) مروج الذهب ٣/ ١٨١.
(٦) معجم البلدان ٢/ ٩٦٧.

الفصل العاشر

المقربون من عمر بن عبد العزيز

يروي ابن سعد عن المدائني قوله: «كان من خاصة عمر بن عبد العزيز ميمون بن مهران ورجاء بن حيوة ورياح بن عبيدة الكندي، وكان قوم دون هؤلاء عنده: عمرو بن قيس، وعمرو بن عبد الله بن عتبة، وعمرو بن الزبير الحنظلي»[1]، ومن هؤلاء ثلاثة من كندة وهم رجاء بن حيوة وعمرو بن قيس ورياح بن عبيدة، وواحد مولى بني أسد هو ميمون بن مهران، وواحد من أهل الكوفة: ولم تذكر المصادر التي اطلعت عليها معلومات عن عمرو بن الزبير الحنظلي، ولعل اغلب الكنديين من حمص.

كان ميمون بن مهران في الأصل مملوكاً لامرأة من الأزد في الكوفة، ولد سنة ٤٠هـ، وتحول إلى الجزيرة بعد ولادة عمر بن عبد العزيز ثم تولى خراج قنسرين وقضائها[2]، وولي بيت المال بحران لمحمد بن مروان وظل في ولايته أشهراً بعد وفاة عمر؛ واتصل به غيلان الدمشقي القدري فتأثر بدعوته، ولكنه لم ينخرط فيها، وتوفي سنة ١١٧هـ[3].

أما رجاء بن حيوة، فهو «من عبّاد أهل الشام وزهّادها والتابعين وعلمائهم» وتُوُفِّي سنة ١١٢هـ[4] وهو الذي نصح سليمان بن عبد الملك بتولية عمر بن

---

(١) ابن سعد ٥/ ٢٩٢.
(٢) انظر: تاريخ الرقة ٢٣ فما بعد.
(٣) تاريخ خليفة ٣١٤. ابن سعد ٧ ـ ٢/ ١٦٥.
(٤) البستي ٩٠١، ابن سعد ٧ ـ ١٢/ ١٦١.

عبد العزيز ولاية العهد[1] وكان معه عند وفاته[2].

أما رباح بن عبيدة الكندي، فلعله الذي قال عنه النبي إنه: «ممن كان الغالب عليه التقشف والزهد والورع والاجتهاد في العبادة وكان يهم في الشن بعد الشتى»[3].

أما عمرو بن قيس فهو سكوني من حمص، ولاه عمر بن عبد العزيز على الصائفة[4]، عرف هؤلاء بالتقوى والورع ولم تذكر المصادر من عرف منهم في ميادين الفقه المعروفة عندنا. ومن المؤكد ان اتصاله بهم كان قائماً عند توليه الخلافة، ولم تذكر المصادر بداية هذا الاتصال وهل كان مجرد التحدث بالأفكار العامة، أم امتد إلى استشارتهم في شؤون الادارة والمالية والمعاملات.

ذكرت المصادر اتصال عمر بن عبد العزيز بعدد من الفقهاء والمعنيين بالأمور الدينية وممن تردد ذكره الحسن البصري المشهور الذي كتب له رسالة في القدر.

وممن اتصل بهم أبو مجلز لاحق بن حميد «كان عمر بن عبد العزيز بعث إليه فاشخصه من خراسان»[5] ولم تذكر له بعد توليه الخلافة صلة بفقيه من الحجاز سوى محمد بن مسلم الزهري.

---

(١) ابن سعد ٥/ ٢٤٥.
(٢) ابن سعد ٥/ ٣٠١.
(٣) مشاهير علماء الأمصار للبستي ١١٥٨.
(٤) ابن سعد ٧ ـ ٢/ ١٧٧ ـ ٨.
(٥) المعارف لابن قتيبة ٤٦٦.

الفصل الحادي عشر

عمر بن عبد العزيز والفتوح

العقيدة أساس الدعوة الإسلامية

بدأت الدعوة الإسلامية في مكة تؤكد على نظرة كونية شاملة أساسها الوحدانية المطلقة، وأن الله تعالى هو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، وأنه رب السماوات والأرض، والمسيِّر للكون بكلياته وجزئياته، وتركزت في جهود الرسول (ص) على نشر هذه الأفكار وترسيخها عقيدة؛ وقد آمن بها ممن اتصل بهم من أهل مكة أعداد متزايدة بالرغم من المقاومة التي واجهوها. وقد كوّن المسلمون الأولون كتلة مرتبطة بالعقيدة وما يرافقها من تماسك يقوم على المثل الأخلاقية التي تؤكد عليها الدعوة، فكان كيانهم عقائدياً اجتماعياً أكثر منه سياسياً.

تنظيم المجتمع وتثبيت الحياة الحضرية

وبهجرة الرسول (ص) إلى المدينة، أصبح الإسلام في وضع جديد ملائم، ولعل هذا هو الدافع الرئيس لاعتبار التقويم الإسلامي يبدأ من الهجرة، فقد رحب العرب من أهل المدينة مسبقاً به، ووعدوه الحماية والنصرة والاستجابة إلى الدعوة، التي احتفظت بمبادئها الأساسية من عقيدة الوحدانية، وأضيف إليها التأكيد على اصلاح النفس وتنظيم علاقات إجتماعية قائمة على مبادئ أخلاقية

ترسخ هذه العلاقات لتؤدي إلى مجتمع متماسك سليم، وصرف الرسول (ص) أكثر جهده لتنظيم هذا المجتمع على أسس حضرية سليمة. ويسرت له الأحوال الجديدة ترسيخ مكانته على رأس المجمتع، وأن يكون المرجع الأعلى بموجب أوامر القرآن الكريم ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

ومما عزز سلطته وثبتها دماثة خلقه، وعمله على نشر الدعوة وتوطيد المجتمع بالإقناع العقلاني السلمي دون الفرض القسري ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾. ولم ينحصر هذا الأسلوب في التعامل بالمسلمين، وانما امتد إلى من لم يَدِنْ بالإسلام من اليهود، والى من كان موقفهم قلقاً من المنافقين.

فالسمات البارزة لجهود الرسول (ص) في المدينة هي اتّباع الطرق السلمية العقلانية، والتأكيد على إصلاح «النفس» عند الأفراد المسلمين، وتثبيت علاقات اجتماعية قائمة على مبادئ أخلاقية تُنمي ما فيه خير الأفراد وسعادة المجتمع ويظلّ كل ذلك مبدأ التعايش السلمي بين الناس بصرف النظر عن التنوعات في صفاتهم وانتماءاتهم القبلية أو العقائدية. وكانت هذه المبادئ الأساسية تتطلب جهاداً يستنزف طاقة ووقتاً. ومن هنا جاء التأكيد على الجهاد بنطاقه الواسع في السلم لإصلاح الذات وتثبيت المثل العليا. وقد عمّت هذه السمات الدولة الإسلامية بعد توسيعها، بوصفها أنسب ما يتطلبه المجتمع، وكان لها الفضل الأكبر في نشر الإسلام سلمياً، وإقبال الناس على اعتناقه حتى في البلاد التي لم يمتد إليها سلطان دولة الإسلام، ومن دون أن ينشئ الخلفاء مؤسسات تعمل على نشر الإسلام.

كوَّن الرسول (ص)، عند هجرته، دولة بالمفهوم المتعارف عليه للدولة، وكانت في أوائل الهجرة مقصورة على المدينة، فهي دولة «مدينة» محدودة بالمدينة، ومع أنه بَذَلَ كل جهده للاستقرار وتنظيم المجتمع، إلا ان هذه الدولة كانت معرضة لأخطار داخلية يتطلب صدّها استعمال قوة السلاح والإعداد للقتال، وهذا غير نابع من العقيدة الأساسية الاولى، ولكن الظروف فرضته

وتطلب الإعداد له. ومع أن القرآن الكريم سماه «القتال» إلا أن الأحوال جعلته جزءاً من الجهاد الذي أساسه الأول بذل الجهد لتحقيق المثل الأخلاقية الإسلامية ثم صار في أزمنة تالية مرادفاً للقتال.

طبيعة القتال وأهميته في زمن الرسول (ص)

منع القرآن الكريم قتل الإنسان إلا في أحوال خاصة جداً، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء/ ٣٣] ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء/ ٩٣] ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة/ ٣٢].

غير أن القتال للدفاع عن وجود المجتمع، يختلف عن قتل الفرد في المجتمع المستقر، فهو ضرورة يحتمها بقاء المجتمع، وهو من أجل البقاء، وعلى الخصوص في أحوال الدفاع ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة/ ١٩٠] ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة/ ٢١٧] ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة/ ١٩٣] ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة/ ١٩١]. إن هذا القتال واجب وهو في سبيل الله.

إن القتال في زمن الرسول (ص) ضرورة تطلبها بقاء الإسلام في مجتمعه، وحث عليه القرآن، غير أنه لم يجعله فرضاً إجبارياً على الجميع، وإنما كان يقوم به الراغبون فيه طوعاً دون إكراه، ولذلك لم يكن عدد المشاركين شاملاً، والواقع أن أكثر السرايا التي زادت على الثلاثين، والغزوات التي قادها الرسول (ص) لم يكن عدد المشاركين فيها كبيراً، ففيما عدا موقعتي أُحد والخندق اللتين هُدّدت فيهما المدينة، لم يكن عدد المشاركين في الغزوات كبيراً. ففي معركة بدر شارك أربعة وثمانون من المهاجرين، ومئتان وواحد وأربعون من الأنصار، وهذا الرقم ليس كبيراً إذا قورن بالعدد الكبير من الأنصار

في المدينة. وفي الحملة على خيبر والمستعمرات اليهودية في شمال المدينة كان عدد المقاتلين المسلمين ألفاً وأربع مئة وخمسين مقاتلاً وهم كل من شارك في الحديبية. أما بقية الحملات من الغزوات والسرايا فكان عدد المقاتلة المشاركين فيها قليلًا، وبعضها لا يتجاوز الآحاد. ويشذ عن ذلك حملة فتح مكة فقد بلغ عدد المقاتلة المسلمين عشرة الآف، وشارك أكثرهم في غزوة حنين.

وفيما عدا فتح مكة فان أية غزوة لم تفرض الإسلام على العشائر التي غزيت، وإن إقبال أهل الحجاز على الإسلام، وبخاصة بعد الحديبية، وأهل الجزيرة العربية بعد فتح مكة تم سلمياً دون فرض قسري[1].

لم يضع الرسول (صلى الله عليه وسلم) للجيش تنظيماً متميزاً من التنظيم الاجتماعي، ولم يكن الاشتراك في الحملات إلزامياً، فكان ينضمّ إليها طوعاً المتحمسون للقتال، لاسيّما الشبان، وكثير منهم لم يشترك بأكثر من حملة واحدة. وفي الحملات المتأخرة التي شاركت فيها أعداد كبيرة نظّم الجيش على أسس عشائرية؛ وجعل لكل عشيرة لواء هو مجرد عود تربط في اعلاه قطعة قماش أو ثوب لا يشترط له لون خاص.

لم يدفع للمقاتلة عطاء منظم، والمادة الوحيدة التي يحصلون عليها هي الغنائم التي لا يصح المبالغة في مقدارها المادي وما يصيب كل فرد منها، فيما عدا غنائم بني النضير وقريظة والمستعمرات اليهودية في شمال الحجاز، وقد جرى توزيعها وفق اساليب متفردة[2]. فالمشاركة في القتال دافعها الرغبة في إظهار القوة والتفوق المعزز بعقيدة القتال من أجل المثل التي رسمها الإسلام والتي يعززها إسناد رب العالمين الذي ينصرهم لأنهم على حق، وما يتطلبه ذلك من انضباط ونظام يجعله متميزاً من العراك الفردي الذي يقتصر على إظهار القوة دون التنظيم. وعلى أي حال، فإن القتال لم يَطْغَ على الروح الحضرية التي عُنِيَ الرسول (صلى الله عليه وسلم) بترسيخها.

---

(١) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا «الدولة في عهد الرسول (ص)».
(٢) انظر مقالنا «أراضي المغانم وأحكام الرسول (ص) فيها» المنشور في مجلة «المنارة».

أهمية الجيش بعد وفاة الرسول (ص)

ولما تُوُفي الرسول (ص) وَوَلِيَ الخلافة أبو بكر، انتفض معظم أهل الجزيرة العربية، وكان على أبي بكر حشد أقصى الطاقات المتوافرة عنده للدفاع عن دولة الإسلام وإعادة المرتدين إلى حضارة الإسلام، وكان أكبر اعتماده على أهل المدينة ومكة وبعض عشائر الحجاز ممن بَقِيَ محتفظاً بولائه للإسلام ودولته. وأفلح في إعادة تثبيت دولة الإسلام على جزيرة العرب، وكان أبو بكر حريصاً على اجتثاث الشرك في الجزيرة وإحلال الإسلام وتعميمه فيها، وتثبيت سلطان الدولة عليها؛ واهتم بمد هذا السلطان في اطراف الجزيرة في العراق وجنوبي بلاد الشام.

ولما وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة بعد وفاة أبي بكر تابع سياسة التوسع القائم على القوة العسكرية، وعمل على حشد أقصى الطاقات العسكرية المتوافرة في جزيرة العرب، بمن فيهم من سبق له الارتداد، ووجه الجيوش كافة إلى الأقاليم في اطراف الجزيرة العربية.

بلغ عددُ مَنْ حُشِد في جبهة وسط العراق عشرين ألفاً، وربما لم يَزِدْ على ألفين في جبهة جنوب العراق، وفي جبهة مصر قرابة خمسة عشر ألفاً، ولعله حُشِد في جبهة بلاد الشام حوالي أربعين ألفاً، ومجموعهم الكلي حوالي خمسة وثمانين ألفاً، انتصروا على الفرس والروم ومدّوا الدولة إلى أطراف ليبيا في الغرب، وجبال طوروس في الشمال، وجبال زاغروس في الشرق، وتم كل ذلك في حوالي سنة ٢٠هـ، ويبدو أن عمر أراد إيقاف التوسع عندما وصلت إليه الجيوش، وينسب إليه أنه قال عند وصول الجيوش الإسلامية إلى جبال زاغروس: «ليت بيننا وبينهم جبلًا من نار، فلا يصلون إلينا، ولا نصل إليهم»[١]. وفي المغرب طلب القائد عمرو بن العاص من الخليفة عمر أن يأذن له في التوغل إلى إفريقية (تونس)، فكتب إليه عمر ينهاه عنها ويقول: ما هي

---

(١) الطبري ١/ ٢٤٦٤.

بإفريقية، ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها[١] ونسب إليه مثل هذا القول عن التقدم في الجزيرة الفراتية.

كانت الأقاليم التي ضمتها الدولة الإسلامية وثيقة الصلة بجزيرة العرب، فهي متصلة بها جغرافياً، لا يفصلها حاجز معرقل من الأرض، ومناخها قريب الشبه بمناخ الجزيرة، ومعظم أهلها ذوو صلة عرقية ولغوية وحضارية مع أهل الجزيرة، وهذه الصلات تجعلها ذات «وحدة حضارية» متميزة يدركها المهيمنون على توجيه الدولة الإسلامية ويتفهمونها، مما ييسر تعاملاً ناجحاً معها.

كانت كل من هذه الأقاليم مركز حضارات ذات نُظُم وتقاليد استقرت وتأصلت عبر قرون طويلة، وكانت تهيمن عليها منذ أزمنة قديمة دولتان، هما الفرس في المشرق، والروم في المغرب، ولكل من الدولتين نُظُم تختلف عن نُظُم الدولة الأخرى، وتسود في البلاد التي تحكمها، ولها سمات عامة تغطي أعرافاً محلية منوعة؛ وكان معظم شعوب هذه الأقاليم مستائين من إدارة حكامهم ولا بد أنهم بُهروا بانتصارات العرب ورضوا بحكمهم الذي اتسم بالعدل والروح الإنسانية، ولم يتذمروا من نفاق موارد بلادهم على هذه الجيوش التي تسير بإمرة حكام عادلين يعملون على نشر الأمن والسلام.

ولما تم ضم هذه الأقاليم إلى الدولة الإسلامية واستقرت الهيمنة عليها، انصرف عمر بن الخطاب إلى تنظيم إدارتها، وأولى اهتماماً خاصاً بالمقاتلة العرب الذين استقروا في مراكز من هذه الأقاليم، فأضافوا إليها عنصراً جديداً كبير العدد، له سمات خاصة من أُصوله في الجزيرة ومن توجهات الإسلام الجديدة، وكانوا عماد الدولة وركيزتها الأساسية. وتطلب وضع أسس هذه التنظيمات جهوداً خاصة كيما تؤمن المصلحة العامة والعدالة وتحظى برضا العموم، وتكون قادرة على الاستمرار. وامتدت الجهود إلى تنظيم السيطرة الادارية والتنسيق المالي لجباية الموارد المالية، وكل ذلك من أجل استقرار

(١) فتوح البلدان، ٢٢٥: فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٧٣.

حياة حضرية بما تتطلبه من انسجام في العلاقات وأخلاقية في المعاملات، مما أكد عليه القرآن الكريم وعمل الرسول (ص) على تثبيته؛ وحرص على تأمين حاجات المقاتلة، وكذلك على توطيد الاستقرار والتعاون وما تتسم به الحياة الحضرية من اهتمام بالعلاقات الاجتماعية السلمية وبالحياة الفكرية[1].

وظلت القوة العسكرية مهمة للدولة، ولكن أهميتها تناقصت في السنوات الأربع الأخيرة من خلافة عمر بن الخطاب، فأصبحت مقصورة على حركات محدودة في أطراف الدولة الشمالية والشرقية، وعلى حماية الحدود وتثبيت الأمن والاستقرار، ولم تكن هذه تحتاج إلى قوات كبيرة، فكان يرسل إليها من أطراف العراق ثلث قوات الكوفة، سنوياً ولمدة لا تزيد على ثلاثة أشهر في الصيف، أي أن المقاتل يخدم كل ثلاث سنوات ثلاثة أشهر، وقلما «يجمّر» أي يبقى طوال السنة، وهي مدة قصيرة نسبياً، وتوفر للمقاتلة وقت فراغ كبير يشغلون معظمه في الأحاديث التي تمتد من الأخبار والآداب إلى ما يهتمون به من جوانب العلم والمعرفة، وقليل منهم من يشتغل بالصناعات وأعمال التجارة.

متابعة التوسع في خلافة عثمان

وفي زمن خلافة عثمان بن عفان تتابع قدوم «الروادف» ممن لم ينضمّ من قبل إلى الجيوش الإسلامية، وتابع الخليفة عثمان توسيع الدولة خارج الحدود التي وقف عندها عمر بن الخطاب، وامتد هذا التوسع في شمال إفريقية إلى تونس، وفي شمال الجزيرة وأرمينية، وهي المنطقة الجبلية الوعرة في شرقي آسيا الصغرى. وأهل هذه الأقاليم الجديدة صلتهم العرقية والحضارية ضعيفة بكيان عرب الجزيرة وحضارتها، وإن كانت امتداداً جغرافياً للجزيرة، لا يفصلها ماء أو جبال قاطعة، وبذلك امتدت الدولة في الطول بدرجة كبيرة، وليس في العرض الذي حده في الجنوب البحر العربي والصحراء الكبرى الإفريقية، وفي

(١) انظر أنموذجاً مفصلاً لتنظيم البصرة كتابنا «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة» وكتاب هشام جعيط «الكوفة».

الشرق هضبة البامير وجبالها. أما في الشمال فحدها جبال طوروس وقوات الروم التي تدافع عنها.

إن هذا التوسع كان عماده المقاتلة العرب من أهل الجزيرة العربية، وقد استوعب طاقاتها البشرية القادرة على القتال، واستنزفتهم الروادف التي قدمت في زمن عثمان، ولم يعد في طاقتها إمداد أعداد كبيرة بعد ذلك، فلجأ العرب إلى الإفادة من القوات الأعجمية، وقد بدأ ذلك منذ زمن الخليفة عمر الذي قبل أن تنضمَّ إلى الجيوش الإسلامية الأساورة والسيابجة في جبهة البصرة[١] وحمراء الديلم في الكوفة[٢]، وأعداد من الحمراء، وهم على الأرجح من الروم والفرس، في مصر[٣]، وقد أبيح للاساورة الاحتفاظ بتنظيماتهم، وكوّن الموالي في مصر وحدة عليها عريف[٤]. كما ذكرت المصادر عريفاً على الفارسيين[٥]، وعريفاً على موالي قريش[٦]، وعريفاً على موالي مذحج[٧]، ولم يرد خبر عن إلزامهم كُلّهم أو جُلّهم باعتناق الإسلام وان كانت روح العصر قضت أن يعتنقوا الإسلام.

التوسع في زمن الأمويين: إنشاء قواعد جديدة

تابع الأمويون سياسية عثمان بن عفان في التوسع في الأطراف البعيدة من مركز الدولة، بما في ذلك شمال افريقية والأندلس في الغرب، وما وراء النهر في الشرق، وأرمينية في الشمال، والسند في الجنوب الشرقي، وكان توسعهم كبيراً في الغرب والشرق. وكل هذه البلاد بعيدة عن جزيرة العرب، قلب

---

(١) فتوح البلدان ٣٧٢ ـ ٤.
(٢) فتوح البلدان ٢١٩.
(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٢٩.
(٤) الاكمال لابن ماكولا ٣/ ١٨٣.
(٥) الاكمال ٤/ ١٨٦.
(٦) الاكمال ١/ ١٨٠.
(٧) الاكمال ٢/ ١٢١.

الدولة، ولما كان هذا البعد يُعَقِّد إنفاذ الحملات، فقد أنشأوا قواعد جديدة تقيم فيها دائماً المقاتلة في جبهاتها، فأنشئت القيروان في شمالي افريقية، وجعلت مرو قاعدة في خراسان، ثم أنشئت قواعد أصغر في عدد من مناطق الحدود، ومنها قزوين، والريّ، وشيراز في الهضبة الإيرانية، وعدد من المراكز في أطراف بلاد الروم، ثم في الأندلس[١].

ظل العرب قوام المقاتلة في الجيوش الإسلامية الذين احتفظوا بروحهم العسكرية والتدرب على القتال. غير أن الحروب أضعفت صلتهم بالأقاليم التي في قلب الدولة، وأرهقتهم واستنزفت كثيراً من رجالهم، مما حمل الولاة إلى استخدام قوات أعجمية محلية لتقاتل مع العرب ولا سيّما البربر في المغرب، وأهل خراسان وما وراء النهر في المشرق؛ وكانوا بعيدين عن الهيمنة القوية للخلافة، ولم يشاركوا في أكثر الحركات التي حدثت في العراق والحجاز خاصة.

تنوعت الواجبات القتالية باختلاف الاقاليم، ففي العراق كان العمل الأكبر للمقاتلة قمع الاضطرابات والثورات الداخلية المتحدية للخلافة الاموية، ولاسيّما حركات الخوارج.

مقاتلة العراق وخراسان

قام مقاتلة العراق في الحقبة التي سبقت خلافة عمر بن عبد العزيز بحركتي توسع أولها في الجنوب حيث قاد محمد بن القاسم الثقفي حملة أفلحت في فتح السند في زمن الوليد بن عبد الملك؛ والراجح أن قوامها كان مقاتلة البصرة؛ والثانية فتح جرجان وما حولها قام بها يزيد بن المهلب معتمداً في الأرجح على قوات من مقاتلة الكوفة؛ ولا بد أن كلاً من الحملتين جلبت موارد مرفهة محدودة للمقاتلة.

كانت خراسان أكثر الجبهات إشغالاً في الفتوح التي وُضِع عِبْئُها منذ زمن

(١) انظر تفاصيل اوفى في كتابنا «امتداد العرب في صدر الإسلام».

الخليفة معاوية، على الخمسين ألفاً ممن نقلوا إليها، واستقروا في مرو وعدد من المدن الأخرى القريبة. وقاموا بحملات متعددة على البلاد التي في جنوبي خراسان وشرقيها، وحدثت بينهم بعد موت يزيد بن معاوية انقسامات مرهقة مؤقتة. ومع أن هذه الحروب قادتهم إلى انتصارات وجلبت لهم مغانم، إلا أنها كانت مرهقة ومستنزفة، فاستعانوا بعدد من أهل البلاد، ثم نظم قتيبة ذلك بأن فرض على كل بلد يفتحه المسلمون عدداً من الرجال يقاتلون مع المسلمين، فعوض ذلك ما يفقده المسلمون في القتال، وكان من شأنه أن يزيد عددهم بزيادة التوسع. ويبدو أن قتيبة نجح في جلب رضاهم بوسائل لم توضحها الأخبار التي وصلتنا، ولكنها تتجلى من تأسفهم على مقتله، إلا أنهم لم يعاملوا على قدم المساواة مع العرب.

مقاتلة بلاد الشام: واجباتهم ونفقاتهم

لبلاد الشام وضع خاص له تأثير في أحوال مقاتلتها العرب، ففيها مقام الخلفاء الأمويين الذين لا بد لهم من قوة كالحرس الخاص لحماية مراكزهم والقضاء على التمرد عليهم لا في بلاد الشام فحسب، وإنما في الأقاليم التي تعجز المقاتلة فيها عن القضاء عليها كالذي حدث في الحجاز عندما ثار أهل المدينة في زمن يزيد، وعبد الله بن الزبير بعد ذلك؛ وكذلك في العراق عندما سيطر الزبيريون، ثم عندما ثار عبد الرحمن بن الأشعث.

ثم إن بلاد الشام تتاخم الروم الذين يحتفظون بجيش قوي واحتياطي عسكري كبير في آسيا الصغرى وفي حدودها الشمالية والبلقان، وكانت السواحل الطويلة لبلاد الشام معرضة لهجمات الروم. وهذا استلزم وضع قوات عسكرية من المقاتلة العرب في بلاد الشام، وتوزيعها على مراكز متعددة في داخل البلاد، وعلى السواحل والمناطق الشمالية، كما ألقى على هذه القوات واجبات خاصة تمثلت بالحملات السنوية من الصوائف والشواتي، والقيام بتوسيع الدولة في المناطق الجبلية. ولابد أن هذه الواجبات قضت أن توليهم الخلافة عناية خاصة في توفير العطاء والرزق والمستلزمات العسكرية معتمدة في

ذلك بالدرجة الأولى على موارد بلاد الشام المحدودة نسبياً، حيث أن ما يرسل من الأقاليم إلى مركز الخلافة لم يكن كبيراً.

ثمار الفتوح

وسّعت الفتوح رقعة الدولة، وجلبت غنائم وُزّع بعضها على المقاتلة، وكان ما يصيب الفرد منها محدود المقدار، وذهب كثير منها إلى الخلافة، فكانت من أهم مصادر ثرواتها، بخاصة من التحف الثمينة التي كان الخليفة يتصرف فيها، فيهدي بعضها ويحتفظ بأكثرها، وبذلك تكون مصدراً لثروته وتعزز قوته، إلا أنها تزيد من عزلته عن «عموم» الناس.

وأنعشت الفتوح التجارة، فكان التجار يرافقون الحملات لتزويد المقاتلة بما يحتاجون إليه من السلع، ولشراء كثير من الغنائم التي لا يمكن قسمتها على المقاتلة، وانما «تباع فيمن يزيد» وتوزع أثمانها، ولا بد أنها كانت تباع بالرخص، فيفيد منها التجار ببيعها محلياً أو بنقلها إلى البلاد التي يشتريها أهلها بأسعار أعلى[1].

إن الفتوح في الميادين البعيدة في زمن الامويين وسعت أراضي الدولة، إلا أنها اتسمت بالربح المادي، ففتر حماس المتمسكين بالدين في تأييدها، ولم تُعَدَّ «جهاداً في سبيل الله» إلا عندما تُهَدَّدُ أراضي الدولة الإسلامية. وأصبحت المشاركة فيها عملاً «مفروضاً» من الدولة، وليس بدافع داخلي، وصارت البعوث «عبئاً» على من تفرض عليهم، وكثيراً ما كانوا يتهربون منها بارسال «بدلاء» أو «أجراء»[2]، وتخفف الأجور التي يأخذونها بعض الأعباء المعاشية الضنكة، ولكن هذه الأجور قليلة، فآثارها وقتية محدودة، تفتقر إلى الحماس الديني.

وَسَّعت الفتوح رقعة الدولة التي تُظَلِّلُها «كلمة الله» العليا، وعلت مكانة

---

(١) انظر كتاب الاستاذ محمود ابراهيم: "Merchant Capital in Islam" ص١٨٢ فما بعد.

(٢) انظر الفصل الذي كتبناه عن العطاء في كتابنا «الحجاز في صدر الإسلام».

الخلافة، ولكن صلتها كانت ضعيفة بالعقيدة وبنشر الدين الإسلامي الذي يعتمد في الأساس على الاقتناع الشخصي للناس. وحرصت الخلافة على إرسال القادة والولاة الذين عرفوا بقدرتهم الادارية لضبط الأمن والنظام دون اهتمام كبير بمدى تعلقهم بالدين وحماسهم في نشره، ولا ريب في أن قادة الفتوح الأولى ومعظم مقاتلتها كانوا مشربين بالدين ومُثُله، يسرهم نشره، أما الفتوح المتأخرة فليس لقادتهم ومقاتلتهم مثل ذلك الحماس الديني.

أما الحملات العسكرية الكبيرة فكان عِبئُها الرئيس على المقاتلة في المراكز العسكريه القريبة من الحدود في الجزيرة الفراتية وأرمينية وخراسان، والقيروان، ثم الأندلس. وهي تتطلب استعدادات مادية ومعنوية خاصة ميزتها من بقية الحملات الداخلية للدولة.

أصبحت المشاركة في الحملات العسكرية «بعوثاً» وواجبات لتنفيذ أوامر يصدرها الخليفة لأغراض يقررها تبعاً لما يراه وباستشارات، ان وجدت، لعدد محدود من المقربين له، وبذلك ضعفت قوة إدراك المقاتلة المشاركين فيها لإغرائها، وتدنت قوة الحيوية فيها.

كانت هذه الحملات منوعة الأهداف، فبعضها لقمع الاضطرابات واخضاع الثائرين على الخلافة، وبعضها للتوسع في جبهات نائية عن المركز، وبعضها لمجرد إظهار القوة كالصوائف والشواتي.

فأما الحملات العسكرية المنفذة لقمع الثورات والقضاء على الثوار، فإن هدفها تثبيت مكانة شخص الخليفة وتعزيز سلطانه، فالسمة الشخصية في الهدف واضحة، والحماس لها منحصر بشخص الخليفة والعدد المحدود الذي حوله والمقتنع بضرور تثبيته. أما المُقاتِلة المشاركون في المعارك، فليس لهم الإدراك العميق لهدفها، والتقدير لأثرها في مصالحهم الشخصية، ولذلك فهي في الغالب «واجب مفروض من الخارج»، ودوافعه الداخلية ضعيفة، علماً بأن هؤلاء المُقاتِلة يقاتلون خصوماً من المسلمين. لهم عقائد ذات قوة دافعة ليست خارجة عن الإسلام كما أن هؤلاء الثوار هم، أو أكثرهم، من العرب،

ولبعضهم وشائج قربى في الدم، مما يُضعف الحماس في القتال، خاصة إذا كان المقاتل غير مدرك قلبياً لسلامة تصرف الخليفة. ولا يخفى أن قتال الثوار يواجه خصوماً متحمسين لا يقدمون لمن يقاتلهم غنائم كبيرة؛ فهي تكون عبئاً على المتمسكين بالمبادئ العليا للدين دون جزئيات الفرق، فضلاً عن آثارها على الريف وإخلالها بموارد الحياة التي يعتمد عليها المقاتلة في معاشهم، وإرهاقها للفلاحين.

موالي الأفراد المتنفذين

تنظمت المقاتلة العرب على الأسس القبلية المتأصلة في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام؛ وقد روعي في هذا التنظيم تخطيط الأمصار الأولى وإدارتها، وكان لرؤساء العشائر مكانة بارزة وصلات وثيقة بعشائرهم، وكانت علاقتهم بالخلفاء والولاة تقوم على ولائهم للدولة، ولم يحاول الخلفاء الأولون ربط الأفراد والرؤساء بولاء شخصي لهم، وهذا ينسجم مع جوهر الدين الإسلامي الذي يجعل الولاء للإسلام والأمة، وليس للأفراد. ولم يبدل الأمويون هذا التوجه، فظل ولاء المقاتلة للدولة وليس لشخص الخليفة أو أسرته، علماً بأن الأسرة الأموية لم تكن متماسكة في علاقاتها أو مجتمعة في مساكنها أو موحدة في مواقفها، فكان كثير من أسرها وأفرادها يقيمون في الحجاز خاصة، وبعضهم يقيم في الأمصار الأخرى، وتشير الأخبار إلى منافسات ومنازعات بين أفرادها وأُسَرها وبخاصة بين السفيانيين والأعياص، كما أن دمشق لم تكن مقصورة على الأمويين، ففيها عدد كبير من السكان من العرب القدماء الذين، وإن كانت علاقتهم طيبة بالخلافة، إلا أنهم لم يكونوا حزباً متمسكاً بالأمويين، فالقاعدة دمشق لم تكن منصهرة بهم، وبلاد الشام كانت في أطرافها ديار قبائل لرؤساء بعضها صلات وثيقة تعزز وترفع مكانة عشائرهم ولم تؤثر الروابط الدينية بين النصارى وفرقهم على علاقة هذه القبائل بالدولة.

أشارت أخبار الحوادث التي جرت في أواخر خلافة يزيد بن معاوية وما

جرى بعد وفاته وتنازل ابنه معاوية عن الخلافة إلى أن عدداً من البارزين كان يسند كلاً منهم مواليه.

فيروي أبو مخنف أن عمرو بن سعيد الاشدق كان له الف عبد، وكان يلي المدينة وَوَلّاه يزيد بن معاوية الموسم «وحج في تلك السنة في جماعة من مواليه»[١]. ويروي الطبري أنه في قتال الحرة كان على الموالي يزيد بن هرمز[٢]، وكان عبد الله بن هرمز مولى عتبة بن مروان أبي سفيان[٣].

وكان المسور (بن مخرمة) قد أعان ابن الزبير بمواليه وسلاح كثير[٤].

ولما تقدم عمرو بن الزبير لقتال أخيه عبد الله كان «في أربعمائة من الجند وقوم من موالي بني أمية وقوم من غير أهل الديوان»[٥] وكان ابن الزبير قد أمر بإخراج بني أمية ومواليهم من مكة والمدينة إلى الشام فخرج منهم أربعة آلاف[٦].

وعندما بويع مروان بن الحكم خليفة، كان ممن بايعه الأمويون وبايعه مواليهم وأتباعهم[٧]. ولما قتل عمرو بن سعيد الأشدق تقدم ابنه يحيى للثأر له في ألفٍ من مواليه من أهل حمص[٨]. وعندما ثار الجراجمة أرسل إليهم عبد الملك جيشاً من موالي بني أمية وجند من ثقات جنده... فلما استسلموا ثبت عبد الملك عبيد الجراجمة في الديوان «وجُعِل لهم ربع على حدة منهم يسمون الفتيان إلى اليوم»[٩].

---

(١) انساب الاشراف ٤ ـ ٢/ ٢١.
(٢) انساب الاشراف ٤ ـ ٢/ ٣٥.
(٣) انساب الاشراف ٤ ـ ٢/ ٢٣
(٤) انساب الاشراف ٤ ـ ٢: ٤٨، ٥٤ عن المدائني.
(٥) انساب الاشراف ٤ ـ ٢/ ٢٥.
(٦) انساب الاشراف ٤ ـ ٢/ ٣٧.
(٧) انساب الاشراف ٥/ ١٤١.
(٨) انساب الاشراف ٤ ـ ٢/ ١٤٣.
(٩) انساب الاشراف ٥/ ١٠٣.

وفي حركات مروان لبسط سلطانه على بلاد الشام كان من رجاله «خالد بن يزيد يقاتل أهل قرقيسيا في موالي بني معاوية وغيرهم»[1] وكان خالد بن يزيد له أربعمائة عبد يعملون في المسجد ثم أعتقهم[2].

وأشار البلاذري إلى «بني أمية ومواليهم وأتباعهم»[3] وإلى موالي معاوية وأتباعهم[4].

وكان عبّاد بن زياد اعتزل الفتنة وموقعة مرج راهط واتى دومة الجندل، وكان معه «سبعمائة من مواليه واتباعه» فقاتل بهم ابن ورس الذي انفذه المختار لقتال عبّاد «فقتل من أصحاب ابن ورس أكثر من الف، ولم يقتل من أصحاب عبّاد إلا الوليد بن قيس مولى عبيد الله بن زياد»[5] وقد ذهب لعبّاد بن زياد في احدى معارك سجستان ألف مملوك أقل ما مع أحدهم عشرة آلاف[6].

وكان للحصين بن غير موالي أحرقوا جثة ابن الأشتر[7].

وعندما ثار يزيد بن المهلب جمع محمد بن المهلب رجالاً من مواليه من أهل بيته مواليه فكونوا «كتيبة يهول من رآها»[8].

وإتماماً للفائدة نذكر ان عثمان بن قطن بن الحصين كان له موالٍ شاركوا في قتال الخوارج[9].

وذُكِر انه كان مع مروان بن محمد عشرون من مواليه من الغُزّ والصقالبة والروم[10].

---

(١) انساب الاشراف ٥/ ٣٠١
(٢) انساب الاشراف ٤ ـ ٢/ ٦٩.
(٣) انساب الاشراف ٥/ ١٤١.
(٤) انساب الاشراف ٥/ ١٥٦.
(٥) انساب الاشراف ٥/ ٢٦٧، وانظر ١٣٧.
(٦) الطبري ٢/ ٣٩٢.
(٧) الطبري ٢/ ١٢٨٠
(٨) الطبري ٢/ ١٢٨٠
(٩) الطبري ٢/ ٩١٩.
(١٠) انساب الاشراف ٣/ ١٢٠.

وضع موالي المتنفذين

إن الموالي المذكورين في النصوص التي أوردناها هم ممن شاركوا في القتال الذي نشب بين الطامحين إلى السلطة من المتنفذين، وربما كان بعضهم من الأرقاء المحررين، والراجح أن كثيراً منهم أحرار مرتبطون باشخاص من المتنفذين ممن لهم صلة بالسلطان وما يتطلبه استخدام القوة العسكرية، وهم مؤهلون للقتال مع سادتهم لأغراض تقررها المصالح الشخصية لهؤلاء السادة، فهم يختلفون عن المقاتلة من أهل الديوان الذين يرتبطون بالدولة والسلطة الحاكمة، ويخدمون أغراضها التي هي في الغالب موجهه للمصلحة العامة من حماية الحدود وتوسيع أراضي الدولة على حساب دولة معادية تخالف دولة الإسلام في الدين وفي المصالح.

تقوم مشاركة هؤلاء الموالي على النخوة والعصبية لمن يرتبطون به، وهي رابطة دائمة وغير موقتة، وفيها بعض الشبه من العصبية القبلية، إلا أنها تختلف عن هذه من حيث أنها مرتبطة بشخص المولى الذي يقرر توجيههم لما فيه مصلحته التي قد تطابق المصلحة العامة، أو قد تقتصر على مصلحته الشخصية، وهي بهذا تختلف عن دوافع المُقاتِلة من «أهل الديوان» الذين يقاتلون بأوامر من السلطة العليا المتمثلة بشخص الخليفة أو من يخوله من الولاة، والذي يوجههم للقتال من أجل المصلحة العليا العامة للدولة. أما هؤلاء الموالي فهم يقاتلون لمصلحة أفراد، وارتباطهم بهم يُقَوِّيه ويعزز نفوذه الذي قد لا يتطابق مع المصلحة العامة للدولة.

إن هذا النمط من الولاء لا يقوم على رابطة الدم، إذ أن الموالي هم في الغالب من غير أرومة سادتهم، كما أن فيه سمة التبيعة الدائمة، فهو يختلف عن الحلف القائم بين متكافئين، ولأغراض محددة لا تكون دائمية، لأن الحلف، مهما كان مكيناً، فإنه يمكن فسخه بإرادة أحد الطرفين. أما الولاء، فهو أثبت. ولما كانت فيه سمة التبعية، فان المولى الأدنى ينفذ مطالب المولى الأعلى، ويخدم مصلحته التي قد لا يعرفها أو يعتقد بها؛ إنه قائم على الطاعة وليس

على الإقناع، فهو بهذا يختلف عن التبعية في الأحزاب والفرق السياسية والدينية.

كان هذا النمط من الولاء قائماً في الحجاز عند ظهور الإسلام، وربما كان قائماً أيضاً في مناطق أخرى من جزيرة العرب، لا سيّما في اليمن. وبهذا المفهوم ورد ذكره في عدد كبير من الآيات القرآنية.

لم تذكر المصادر الموارد المعاشية لهؤلاء الموالي. ومن المحتمل أن بعضهم كانوا يحصلون على بعض مواردهم للمعيشة من أعمالهم في السوق أو الأراضي التي يمتلكها أسيادهم؛ ولعل بعضهم كانوا من أهل الديوان، غير أن الخدمات التي يقدمونها تقضي بأن يحصلوا على بعض موارد معيشتهم من المولى الأعلى، إن لم نقل إنهم كانوا يحصلون على كل الموارد.

وقد يؤيد هذا أن من ذُكِرَ لهم مَوالٍ هم من رجال الأسرة الأموية المتصلين بالخليفة، أو ذوي المكانة المتميزة، ولكل منهم ثروات كبيرة، وخاصة من الأراضي والزراعة، وان العلاقة لا تقتصر على تقديم الخدمات العسكرية عندما يطلب منهم ذلك، وإنما تمتد إلى الحياة في وقت السلم أيضاً. فرابطة الولاء دائمة تعززها المصالح المادية التي تربطهم في أحوال السلم الطويلة، وخاصة اذا لم يشارك الموالي السادة في الحروب والمعارك.

إن هذا الولاء يعزز مكانة المولى الأعلى، ويمكنه من القيام بدور نافذ في أوقات الشدائد خاصة، ولكنه لا يورث، فهو يعزز مكانة الأفراد وليس مكانة أسرته، ويعتمد على شخصية المولى.

سياسة عمر بن عبد العزيز: إيقاف الفتوح

عندما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة كان من أول أعماله إيقاف التوسع في المناطق النائية في أطراف الدولة، ومحاولة سحب القوات الإسلامية من مناطق القتال.

وأول أعماله في هذا المضمار كان في القوات التي عُنِيَ الخليفة سليمان

بحشدها وإنفاذها بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية، وظلت تحاصرها مدة سنتين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح في تحقيق هدفها، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة «كتب بِقَفْلِ مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها براً وبحراً. فاشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع، حتى يتنحى الرجل عن دابته فتقطع بالسوق.. ولجّ سليمان في أمرهم، فكان ذلك يغم عمر. فلما وَلِيَ، رأى أنه لا يسعه فيها بينه وبين الله عز وجل شيءٌ من أمور المسلمين ثم يؤخر فعله ساعة. فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب»[1] وقد «وجه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة ،وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسملين، فوجه إليهم خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً، وحَثَّ الناس على معونتهم، فكان الذي وجه إليه الخيل العتاق فيما قيل خمسمائة رأس»[2].

ويروي خليفة أنه في سنة ٩٩هـ «حمل عمر بن عبد العزيز الطعام والدواب إلى مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم وأمر من كان له هناك حميم انه يبعث إليه وبعث معه بعثاً فأغاث الناس، وأذن لهم بالقفول»[3]، أي أنه أمر الناس بالقفول بعد أن لم تفلح إمداداته من الطعام في إغاثتهم.

وفي الأندلس وَلَّى عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني، وعهد إليه «بإخلاء الأندلس من الإسلام إشفاقاً عليهم، اذ خشى تغلب العدو عليهم.. لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين»[4]. غير أن السمح لم ير الانسحاب الكامل من الأندلس، وكتب إلى الخليفة يقول: «إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها، فأضرب عن ذلك، وأزال الأندلس عن عمالة افريقية»[5].

---

(١) ابن عبد الحكم ٣٢.

(٢) الطبري ٢/ ١٣٦٤.

(٣) تاريخ خليفة ٣٢٦، تاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ٢٣٣.

(٤) تاريخ افتتاح الاندلس: لابن القوطية ١٢ ـ ١٣.

(٥) رحلة الوزير الغساني ٦٢٣، وانظر تفاصيل أوفى في كتاب «فجر الاندلس» لحسين مؤنس ١٣٦ ـ ٧.

وفي المشرق، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الرحمن والي خراسان يأمره بإقفال مَنْ وراء النهر من المسلمين بذراريهم، فأبوا وقالوا: لا يَسَعُنا مرو (قاعدة خراسان) فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر، اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تغزُ بالمسلمين، فحَسْبُهم الذي قد فتح الله عليهم[1]. ويقتصر خليفة على القول بأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمي: «لا تَغزُ، وتمسكوا بما في أيديكم»[2].

وفي جبهة بلاد السند «كتب عبد العزيز إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم جيشه والملوك، وتسموا بأسماء العرب وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر[3].

إن إيقاف عمر بن عبد العزيز التوسُّعَ القائم على استخدام المُقاتِلَة في الأطراف النائية للدولة، وعَمَلَهُ على إحلال الحوار السلمي في إخماد الحركات المسلحة للمعارضة، لا يعني أنه أراد الغاء المؤسسة العسكرية التي تمتد جذورها إلى زمن الرسول (ص) وكان لها الدور الأكبر في حماية الدولة وتوسيعها وتثبيت الأمن والاستقرار فيها. والواقع أن التنظيمات المتصلة بالمُقاتِلة كانت تَمَسُّ صميم الحياة المدنية، فالعطاء يُؤَمِّن موارد معيشية للمُقاتلة وييسر أيضاً تكريس جهودهم لانماء الحياة المدنية. يضاف إلى ذلك أن أحوال الدولة لم تبلغ حد إمكان الاستغناء عن استخدام المقاتلة لحفظ الأمن الداخلي، فإن خلافته القصيرة لم تخل من انتفاضات مهددة من أبرزها حركات الخوارج وشوذب، وثورة يزيد بن المهلب في جنوب العراق.

لذلك كان لا بد من إبقاء الجند والمؤسسات المتصلة به، فظلت الأمصار، وهي مراكز إقامة المقاتلة العرب، قائمة دون أن يلغيها، أو يبدلها، أو يدخل

---

(١) الطبري ٢/ ١٣٦٥.
(٢) تاريخ خليفة ٣٢٦.
(٣) فتوح البلدان ٢٤.

تعديلات في تنظيماتها السكانية والادارية. وقضت الأحوال أن يتابع خلال مدة خلافته القصيرة استمرار الحركات العسكرية المحدودة النطاق في عدد من الجبهات. ففي أذربيجان أغار الترك على المسلمين «فقتلوا من المسلمين جماعة ونالوا منهم، فَوَجَّه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتمَ بن النعمان الباهلي، فقتل أولئك الترك، فلم يفلت منهم إلا اليسير، فَقَدِمَ منهم على عمر بخناصرة خمسون أسيراً»[١]. وفي سنة ١٠٠هـ، أغارت الروم في البحر على ساحل اللاذقية، فهدموا مدينتها وسَبَوْا أهلها، فأمر ببنائها وتحصينها[٢]. وفي ١٠١هـ، «أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي، وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص، الصائفة»[٣].

وأمر بترحيل أهل طرندة وهم كارهون، وذلك لإشفاقه عليهم من العدو[٤].

وأراد أن يهدم المصيصة لتعرُّضها لغارات الروم، ثم أمسك عن ذلك، وبنى لأهلها مسجداً جامعاً من ناحية كفربيا، واتخذ فيه صهريجاً وكان اسمه عليه مكتوباً[٥].

العطاء

للعطاء صلة وثيقة بأحوال المقاتلة، فعليه اعتمادهم في معاشهم، فضلاً عن أثره في الإدارة وفي الحياة الاقتصادية، إذ أنه يكون أكبر أبواب النفقات في موارد الدولة، ولتأمينه أثر كبير في الاستقرار السياسي والسيطرة على العدد الأكبر ممن يسبب استياؤهم قلقاً قد يصبح مهدداً للأمن وزعزعة سلطان الحاكمين.

---

(١) تاريخ خليفة ٣٢٦، الطبري ٢/ ١٣٦٤.
(٢) فتوح البلدان ٢٢٠.
(٣) الطبري ٢/١٣٤٩.
(٤) فتوح البلدان ٢٢٠.
(٥) فتوح البلدان ١٦٣.

وضع الخليفة عمر بن الخطاب العطاء وفق أُسُس لم تَلْقَ اعتراضاً، واستوعبت موارد جباية الأقاليم المفتوحة[1]، وحصرها على المقاتلة في الأمصار، وجُلُّهم من العرب، وأدخل فيه من انضم إليهم من المقاتلة الأعاجم الذين ساواهم بالعَرَب في العطاء، وفي هذا يقول أبو عبيد أن عمر كتب إلى ولاته «من أعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم كلهم، ولهم مالهم وعليهم ما عليهم، وإن أحبُّوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم اسوتهم في العطاء والمعروف»[2]، وبموجب هذا أُدخلت فيه الأساورة في البصرة وحمراء الديلم في الكوفة، والحمراء في الفسطاط.

وقرر عمر للمقاتلة وأُسَرِهم رزقاً شهرياً من المواد العينية، توزع عليهم لتسد حاجاتهم المعاشية.

كانت الأسس، التي وضعها عمر لتوزيع العطاء، تعالج الأحوال القائمة في حينه، ولم يضع قواعد لمواجهة التطورات التالية التي تقضي بادخال تعديلات، فمن ذلك أنه خص أعلى مقدار في العطاء بالصحابة الأولين الذين شاركوا في المعارك الأولى منذ معركة بدر إلى فتح مكة، كما خص المقاتلة الذين شاركوا في المعارك الكبرى في الفتوح (القادسية واليرموك وعين شمس) بأعلى العطاء، ولم يعالج من سيَحُلُّ محلهم في أعلى العطاء عند وفاتهم.

وصنف عمر مقادير العطاء المتعددة، تَبَعاً لِقِدَم مشاركة العشائر في الفتوح، ولم يقرر قواعد لنقل المقاتلة ممن يأخذ المقادير الواطئة إلى الأعلى منها، وخاصة بعد أن تمت الفتوح.

وقَدَّرَ عمر ان يستوعب المقدارُ الكلي للعطاء مواردَ الجباية، ويُوَزَّع حسب التقويم القمري، ولم يقدِّم توصية بمعالجة الاختلال بين مقدار الجباية والمقدار الكلي للعطاء، أو عندما يَحْدُث اختلاف بين موعد العطاء في المُحَرَّم، وموعد

(١) انظر فصل العطاء في كتابنا «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة» و«الحجاز في صدر الإسلام».

(٢) الأموال لأبي عبيد ٢٣١، فتوح البلدان ٤٥٧.

الجباية في غير هذا الشهر، إذْ كان يقوم على التقويم الشمسي الذي تزيد سنته أحد عشر يوماً على التقويم القمري.

وفرض عمر للمولود، منذ ولادته إلى أن يبلغ الخامسة عشر، مائة درهم في السنة، ولم يتطرق بوضوح إلى معالجة تزايد عدد أولاد كل رجل.

إن بعض هذه القضايا عولجت في أزمنة تالية لعل أوسعها ما تم في زمن الخليفة معاوية، فَوُضِعت قواعد لإقرار من يُعْطَى شَرَفَ العطاء، وهو الحد الأعلى الذي ثبت في ألفين وخمسمائة درهم أو مائتي دينار، كما أنه صار يُدْفع العطاء أحياناً بثلاث دفعات في السنة، وقد يؤخر عن موعده. وظلت قضايا لم تحسم منها شروط مَنْ يدخل في العطاء، وأمر فرائض الأولاد دون سن الخامسة عشرة الذي يحدد فيه العطاء، ومقدار عطاء الموالي. وذكرت الأخبار معالجة عمر بن عبد العزيز هذه القضايا في الحجاز، ولعله راعاها في الأمصار الأخرى.

عمر بن عبد العزيز والعطاء

ثَبَّتَ عمر بن عبد العزيز دفع العطاء في أول السنة وليس أقساطاً[(١)]، وقرَّر ألا يَحْرِمَ الرجلَ من عطائه السنوي، حتى في حالة وفاته خلال السنة، أو يرسل عندها جعيلاً عنه في البعث[(٢)]. ولم يُدْخِل في العطاء من يعمل في التجارة[(٣)]، ورد العطاء للعصاة، وكانوا يحرمون منه. والمقصود بالعصاة الذين يعلنون انشقاقهم عن الخليفة.

وحدد الرباط بأربعين يوماً[(٤)]. ولا بد أن هذا لا تدخل فيه مدة الذهاب والعودة.

---

(١) ابن سعد ٥/ ٢٥٥.
(٢) المكان نفسه.
(٣) الأموال لأبي عبيد ٢٦١.
(٤) ابن سعد ٥/ ٢٦١.

وصلتنا معلومات عن معالجة عمر بن عبد العزيز أمر العطاء ببعض الاقاليم ولعل مثل هذه الأعمال تمت في الأقاليم الأخرى، ولكن المصادر لم تشر إليها.

ففي مصر ذكر الكندي أن عمر بن عبد العزيز أعاد تدوين الديوان في الفسطاط، وألحق لأهل مصر خمسة آلاف، وكتب بالزيادة في أعطيات الناس، وكتب إلى واليه عليها بفريضةٍ للجُنْد وقال: «ألْصِقْ ذلك بأهلِ البيوتات الصالحة، فانما الناس معادن». غير أن يزيد بن عبد الملك، لمّا وُلِّيَ الخلافة بعد عمر، كتب بمنع الزيادة التي كان عمر بن عبد العزيز أولاها لأهل الديوان بها فمنعوها[1]. يبدو من النص ان يزيد بن عبد الملك قصر منعه على الزيادة، ولم يَمُدَّه إلى ممن ألحق بالديوان. وليس في الأخبار ما يدل على أن الأحوال في مصر تستوجب تفردها بإضافة أعداد إلى الديوان. ولعل عدم ذكر حدوث مثلها في المناطق الأخرى يرجع إلى سكوت المصادر أكثر مما يرجع إلى عدم حدوثها.

وفي خراسان ذكر الطبري أن صالح بن طريف، وهو مولى، كان في الوفد الذي أرسله الجرّاح الحكمي والي خراسان إلى عمر بن عبد العزيز لعرض الأحوال في خراسان، وأن صالحاً هذا قال لعمر بن عبد العزيز: «يا أمير المؤمنين عشرون ألف من الموالي يغزون بلا عطاء ولارزق، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج»، ويأمر عمر واليه برفع الجزية عمن يسلم»[2].

ولا بد أن عمر عالج موقف الموالي الذين يغزون بلا عطاء ورزق، ولكن المصادر لم تذكر كيف عالجها، ولعله أدخلهم في العطاء والرزق كالعرب، أو أقل من ذلك.

ذكر ابن سعد عن محمد بن مصعب القرقساني عن أبي بكر بن أبي مريم أن

(١) الولاة الكندي ٦٨ ـ ٦٩.
(٢) الطبري ٢/ ١٣٥٤.

عمر بن عبد العزيز «جعل للعرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، غير أنه جعل فريضة المولى المُعْتَق خمسة وعشرين ديناراً»[1]. إن أبا بكر بن أبي مريم راوي هذا النص هو شامي، وقد يشير هذا إلى أن النص يتعلق بالشام أو الجزيرة الفراتية. وهو صريح في مساواة الموالي بالعرب، إلا في الفريضة التي كانت خمسة وعشرين ديناراً للمولى، ولعلها أقل مما للعرب الذين لم يذكر النص أو غيره مقدارها.

أما فرض الأولاد فإن «عُمَر بن الخطاب فرض للمولود في عشرة، فإذا بلغ، يفرض له الحق بالفرض. فلما كان معاوية، أفرد للمولود، وجعل ذلك للفطيم، فلم يزل كذلك حتى قطع عمر بن عبد العزيز بن مروان ذلك كله إلا لمن شاء»[2]، غير أن البلاذري يروي في مكان آخر أن عبد الملك بن مروان قطع ذلك كله إلا لمن شاء»[3]، ويروي البلاذري وأبو عبيد أن «عمر بن عبد العزيز أنكر الوراثة وقال أقْطَعُها وأعُمّ بالفريضة، فقلت: أتخوف ان يُسْتَنَد لك من بعدك في قطع الوراثة، قال صدقت فتركهم»[4]. ويروي أبو عبيد أن عمر بن عبد العزيز «أقرع بين الفطيم»[5]، إن الوراثة تدل على استمرارية العطاء للأبناء، أما القرعة فتدل على أن الوراثة لا تشمل كل الأولاد وإنما بعضهم، ولعله واحد منهم يتم اختياره بالقرعة، وليس بصورة عشوائية.

وذكر ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز أعطى المنفوس أول سنة ديناراً فلما كان قابل أعطاه ديناراً آخر[6].

---

(١) ابن سعد، ٥/٢٧٧، وانظر عن ابن أبي مريم، ابن سعد ٧ ـ ١٢، ١٨٤.
(٢) فتوح البلدان ٤٥٧، أبو عبيد، الأموال ٢٤١.
(٣) فتوح البلدان ٤٥٨.
(٤) فتوح البلدان ٤٥٧، أبو عبيد، الأموال ٢٤ ـ ٤١.
(٥) الأموال لأبي عبيد ٢٣٨.
(٦) ابن سعد ٥/٢٥٠، وعن عطاء العيال عشرة دنانير او مئة درهم انظر: فتوح البلدان ٤٥٨، أبو عبيد ٢٣٨.

طعام الجار

روى الواقدي عن محمد بن هلال: «سَوَّى عمر بن عبد العزيز بين الناس في طعام الجار، وكان أكثر ما يكون طعام الجار أربعة أرادب ونصف لكل إنسان». ونقل عن أفلح بن حميد: «إنما سَوَّى عمر بن عبد العزيز بين من فرض له طعام الجار. وأما من كان له شيء قبل ذلك، فإنه كان يأخذه وقد فضل عمر بن الخطاب بين الناس في طعام الجار». ونقل عن ابراهيم بن يحيى: «كان لي في طعام الجار عشرون إرْدَبّاً، فلما استخلف عمر أقرت وسوى بين من فرض له من أهل بيتي»[(١)].

تُظْهر هذه النصوص:

١. أن حصة الأفراد من الطعام الجاري غير متساوية، وأن أكثر مقدار فيها هو أربعة ارادب ونصف، ولم تذكر المصادر أقل مقدار فيها.

٢. أن عمر بن عبد العزيز أبقى الاختلافات، وسَوَّى بين فرضه الجديد.

وهذا يدل على أن عمر بن عبد العزيز أدرك الخلل في اختلاف توزيع طعام الجار ولم يعالجه جذرياً، وانما اقتصر على المساواة فيه بالفرض الجديد الذي سيؤدي بمرور الزمن إلى المساواة.

وإتماماً للبحث نشير إلى أن طعام الجار كان من حنطة مصر، وأنه لم يكن شيئاً أساسياً يعتمد لمعيشة أهل المدينة، ولاسيمّا الأنصار الذين كانوا يعملون في الزراعة، ويذكر اليعقوبي أن شحنة الحنطة التي وصلت من مصر في زمن عمر بن الخطاب كانت ثلاثة آلاف أردباً[(٢)]، واشارت مصادر متعددة، ومنها كتب الفقه، أن الناس في المدينة كانوا يتسلَّمون صكوكاً ليأخذوا بها حصصهم

(١) ابن سعد ٥/ ٢٥٥ ـ ٦.
(٢) التاريخ ٢/ ١٧٧، وانظر فتوح مصر، ابن عبد الحكم ١٦٦.

من الجار، وانهم كثيراً ماكانوا يبيعون الصكوك. وذكر مالك بن انس بيع الصك بدينار[1].

يتبين من العرض العام الذي قدمناه أن عمر بن عبد العزيز أبقى نظام العطاء والرزق ولم يُجْرِ فيهما تبديلات أساسية، وانما عمل على متابعته بانتظام أدق.

(١) الموطأ ٥/٦٣، وانظر المدونة ١٣/٤٠، ابن حنبل ٢/٣٢٩، لسان العرب ٣٤٤٨٢.

الفصل الثاني عشر

اهتمام عمر بن عبد العزيز بنشر الإسلام

موقف الإسلام من أهل الأديان

الدعوة إلى الإسلام سلمية تكون بالإقناع الذاتي، وليس بالقسر: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة/ ٢٥٦] ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل/ ١٢٥]. ولم يتشدد إلا على الشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء/ ٤٨، ١١٦].

وكان يسكن المدينة عند الهجرة عدد كبير ممن يدين باليهودية، تعامل معهم الرسول (ص) وناقشهم. وفي القرآن آيات كثيرة عن أنبيائهم وبعض معتقداتهم وتطوراتها، قدّر بعضها، وأنكر ما لا ينسجم مع أفكار الدعوة الإسلامية، ولم يستخدم القوة العسكرية إلّا ضد ثلاثة من عشائرهم الكثيرة: قينقاع والنضير وقريظة، لأسباب غير عقائدية، ولا بد أن الباقين ظَلُّوا مقيمين في المدينة، ولم تذكر الأخبار احتكاكهم بالرسول (ص) أو سُوءَ معاملةٍ نزلت بهم، ثم أخضع المستعمرات اليهودية في شمال الحجاز، وفرض على أهلها نصيباً من منتوج مزارعهم، ولم يُقْصِهِم أو يُقَيِّد حركتهم، أو يُلْزِمْهم بتبديل أو تعديل أساليب حياتهم وممارساتهم[1].

وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى النصارى وعقائدهم وبعض نُظُمهم،

---

(١) انظر بحثنا «أراضي المغانم وأحكام الرسول (ص) فيها» المنشور في مجلة المنارة.

مما يدل على تواجدهم في مكة، وربما في المدينة أيضاً، وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾.

أهل الذمة في الدولة الإسلامية

ولما توسعت الدولة في أواخر حياة الرسول (ص)، كان فيها أعداد من غير المسلمين ذَكَر منهم القرآن الكريم اليهود والنصارى والصابئين والمجوس [الحج/١٧]، واكتفى القرآن منهم أن ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

ودَفْعُ الجزية مظهر لخضوعهم للسلطة السياسية، وهي تُعْفيهم من الخدمة في الجيش والقتال، ولم يلزمهم بتغيير عقائدهم أو أساليب حياتهم، وظل هذا المبدأ قاعدة عامة في سياسة الدولة، وإن اختلفت مقادير الجزية وأساليبها[1].

يُرْوَى أن عمر بن الخطاب قال: «لا يجتمع في الجزيرة دينان» ويقضي تطبيقه إخراج مَنْ في الجزيرة من أهل الأديان الأخرى، وذكرت المصادر أنه نقل أهل نجران إلى العراق وأوطنهم النجرانية في جنوب الكوفة[2]، وأنه أخرج أهل المستعمرات اليهودية في شمال الحجاز[3]، ولم تَرِدْ أخبار عن إخراج غيرهم، ولعله أبقاهم ولم يخرجهم، وإن كانت الأخبار لا تذكر عن وجودهم في الحجاز والجزيرة إلا في أطرافها حيث ظلت على النصرانية تغلب، وربما أيضا عدد من بكر واياد.

ولا ريب في أن معظم أهل الشام ومصر والعراق والهضبة الايرانية كانوا عند ظهور الإسلام نصارى أو يهوداً أو مجوساً، وأعدَّتهم الدولة «أهل ذمة»

---

(١) انظر الجزية والإسلام، لدينيت.

(٢) الطبري ١/٢٥٩٥ وينقل عن الواقدي ان ذلك تم سنة ٢٠ هـ، فتوح البلدان ٦٥، الخراج لأبي يوسف ٧٤.

(٣) فتوح البلدان ١٣٤ (اجلى أهل فدك وتيماء وخيبر)، وانظر دراستنا «مغانم الاراضي وأحكام الرسول (ص) فيها».

عليها حمايتهم وأباحت لهم حقّ الاحتفاظ بتنظيماتهم الدينية ورجالها المشرفين عليها، وممارسة نشاطاتهم الاقتصادية وإبقاء تنظيماتهم المدنية والإجتماعية إلى الحد الذي قال فيه البلاذري: قال أبو يوسف: اذا كانت في البلاد سُنَّة أعجمية قديمة لم يغيرها الإسلام ولم يُبْطلها، فشكاها قوم إلى الإمام لما ينالهم من مضرتها فليس له أن يغيرها. وقال مالك والشافعي يغيرها وإن قدمت، لأن عليه نفس كل سُنَّة جائرة سَنَّها أحد من المسلمين فضلاً عَمَّا سن أهل الكفر[١]. والواقع أن أهل الذمة هيمنوا في بعض ميادين الادارة، ولاسيمّا تنظيم الخراج وأعمال ديوانه[٢]، وربما في سك النقود، وميادين أخرى من الادارة.

نشر الإسلام

وردت معلومات عن اهتمام عمر بن الخطاب بنشر الإسلام وتشجيع تدارس القرآن الكريم، وإثابة قرائه، وتَجَنُّب ما يثير الخلافات الخطرة[٣]، دون أن يلزم أحداً باعتناقه، والواقع أن أعداداً متزايدة أقبلت على اعتناقه لما في مبادئه من مُيَسِّرات للحياة الروحية مُتَحَدِّين ما يحتمل من مواقف أهلِ مِلَّتهم المعارض.

لم تذكر المصادر جهوداً خاصة للخلفاء أو الولاة بعد عمر في العمل على نشر الإسلام بين أهل الذمة من البلاد المفتوحة، ومع هذا فقد تابع الإسلام إنتشاره، وخاصة بين عامة الناس، لا لأغراض ومنافع مادية، وإنما لقناعة معتنقيه بما يؤمن لهم من طمأنينة روحية ونفسية، وملاءمة لتطورات الحياة الواقعية، وخُلُوّه من التعقيدات الفكرية والطقوس المرهقة، ولابد أن بعض ذلك قد تم بجهود «شعبية» قام بها أفراد في توضيح معالمه ومزايا مبادئه، غير أن المصادر لم تقدم معلومات وافية عن هؤلاء الأشخاص وأساليب دعوتهم، كما

---

(١) فتوح البلدان ٤٤٧، الخراج لأبي يوسف «يبقون على شرائعهم ومللهم»، وانظر «أحكام أهل الذمة في الإسلام» للدكتور عبد الكريم زيدان.

(٢) انظر «أحوال النصارى في خلافة بني العباس»، لجان موريس فيّيه.

(٣) أنظر «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر ١/.

أن الدراسات الحديثة القليلة لم تستوعب بحث ذلك[1] ولاسيّما في أقاليم الشرق الاوسط، ما عدا بلاد المغرب، وأقاليم خراسان وما وراء النهر.

اهتمام عمر بن عبد العزيز بنشر الإسلام

أولى عمر بن عبد العزيز اهتماماً خاصاً بنشر الإسلام وتوضيح تعاليمه، ولم يقتصر اهتمامه على فئات محددة، أو أقاليم معينة، وهذا يعبر عن سياسته في الاهتمام بالعقائد والأفكار وأساليب الحياة المؤدية إلى الطمأنينة النفسية وتماسك المجتمع وتأمين سعادته؛ والواقع أن انتشار الإسلام سبق تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، إلا أن سياسة عمر تتميز بجعل هذا «النشر» رسمياً تقوم به الخلافة، وهي أعلى سلطة في الدولة، فتلزم الولاة على متابعته، وقد اتَّبَع أساليب متعددة تؤمن توضيح عقائد الإسلام ومبادئه، وكان من هذه الاساليب دعوة أصحاب السلطان في الاقاليم النائية خاصة إلى اعتناق الإسلام، ولعله كان يدرك أن إسلامهم يجر معه إسلام كثير من رعاياهم وأتباعهم.

انتشار الإسلام في خراسان والمشرق

كان لخراسان وضع خاص في الدولة الإسلامية، فهي تقع في أقصى الشمال الشرقي من الدولة، وهي متصلة ببلاد الصغد والترك التي لم تخضع للدولة الساسانية وكانت ملجأ لعدد من الفرق المعارضة للساسانيين، وبخاصة المانويين الذين أفادوا من الحرية التي وفرها الصغد لهم ولعدد من الآخرين بمن فيهم البوذيُّون، وكانت تزخر بالمدن المزدهرة التي أفادت من خصوبة أرضها، ومن مرور الطرق التجارية.

اهتمت الدولة بخراسان، فتقدمت فأنفذت في زمن الخليفة حملة عسكرية سيطرت عليها وضَمَّتها إلى الدولة الإسلامية، ثم نُقل، في خلافة معاوية، خمسون الف مقاتل عربي مع أسَرِهم، وأوطنوا في عدد من مدن خراسان،

(١) انظر «الدعوة الى الإسلام» لارنولد تكلسون.

ولا سيمّا مرو مركز خراسان، ونيسابور، ومروالروذ، وهراة وطوس، وعدد من القرى القريبة من هذه المراكز. وقد استقر هؤلاء في مواطنهم الجديدة ولم يعودوا إلى البصرة والكوفة اللتين جاء أكثر المقاتلة منهما[١].

قام المقاتلة العرب بتوسيع الدولة في بلاد الصغد ثم الترك، فكان واجبهم الأول قتالياً، وكانوا معتزين بلغتهم وعروبتهم ودينهم، ولا بد أنه كان فيهم عدد من الحريصين على نشر اللغة العربية والدين الإسلامي في هذه البلاد، وأنهم عملوا على نشرهما في خراسان. والواقع أنه ينسب إلى مدن خراسان وماوراء النهر عدد من أبرز علماء الحديث والعلوم الصرفة، فضلًا عن ميادين أخرى من المعرفة، وليس من المصادفة ان ينسب إلى هذه المدن خمسة من أصحاب كتب الصحاح الستة في الحديث. محمد بن اسماعيل البخاري (الجعفي)، ومسلم النيسابوري (القشيري)، وأبو داود السجستاني، والنسائي، والترمذي. أما ابن ماجه، وهو السادس، فمِنْ قزوين، علماً بأن جلة شيوخهم الذين تعلموا منهم هم من أهل العراق أو الحجاز. وفي الرياضيات، نذكر الخوارزمي والبوزجاني، والبيروني، والفارابي.

ان اللغة العربية السليمة التي كتب فيها العلماء المنسوبون إلى مدن المشرق تدل على أنهم امتلكوها منذ الصغر، مما يدل على أن إسلام أهلهم كان مبكراً، ولم يظهر فيهم من عرف بالشعوبية والحقد على العرب، وإنما يتجلى فيهم تقدير الإسلام وتَفَهُّم مبادئه، وأن الحركات المناوئة من المحمرة الأعاجم لم تَلْقَ قَبولًا شعبياً.

يتجلى التبكير في اعتناق الخراسانيين من غير العرب للإسلام من أخبار المقاتلة «الموالي» الذين انضمّوا إلى المقاتلة العرب، دون أن يعاملهم الولاة على قدم المساواة مع المقاتلة العرب. وقد ذكرت الأخبار معلومات عن أحوالهم قبل تَوَلّي عمر بن عبد العزيز الخلافة، يظهر منها أن عدداً من غير

(١) انظر كتابنا «امتداد العرب في صدر الإسلام»؛ وانظر «تركستان حتى الفتح المغولي» لبارتولد. ترجمة صلاح عثمان.

المقاتلة أقبلوا على اعتناق الإسلام بالرغم من أن هذا الاعتناق لم يخفف عنهم الأعباء المالية التي تفرضها الدولة، وإنما كان في بعض الأحوال يجاوز ما يدفعه من لم يعتنقه، وهي تُظهِر أن كثيراً من سوء التصرفات كان يقوم بها ذوو النفوذ المحليون المسؤولون عن الجباية، وأن الولاة المسلمين لم يعملوا على الحد منها إلى أن وُلِّيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة. فقد ذكر الطبري أن الجراح والي خراسان، أوفد إلى عمر بن عبد العزيز وفداً: رجلين من العرب، ورجلاً من الموالي.. فتكلم العربيان والآخر جالس، فقال له عمر: أما أنت من الوفد؟ قال بلى، قال فما يمنعك من الكلام، قال يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يَغْزُون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يأخذون الخراج[1]. ولا بد أن هؤلاء العشرين ألف مولى الذين كانوا يَغْزُون بلا عطاء و لارزق، كانوا مقاتِلةً مدرَّبين عل حمل السلاح، وهم غير مَنْ فَرَضَ قتيبة على المدن المفتوحة تقديمَهُم ليقاتلوا مع المسلمين. وأنهم ممن أسلم طوعاً دون إجبار، ومن دون أمل في الحصول على مغنم مادي من إسلامهم، وأن عددهم اصبح ثلاثة اضعاف ما كانوا عليه في زمن خلافة سليمان بن عبد الملك، فقد كانوا سبعة آلاف ويُكَوِّنُون وحدة منفردة، وأن إسلامهم وانضمامهم إلى الجيش كان طوعيّاً.

ويذكر الطبري، بعد كلامه على العشرين ألفاً من الموالي، الذين يَغْزُون بلا عطاء ورزق: «ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج»، وأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الجراح والي خراسان: «أنظر من صلى قبلك إلى القبلة فضع عنه الجزية، فسارع الناس إلى الإسلام، فقيل للجراح إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام، وإنما ذلك نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان، فكتب الجراح بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز إن الله بعث محمداً (ص) داعِياً، ولم يبعثه خاتِناً[2].

---

(١) الطبري ٢/ ١٣٥٤؛ وانظر «الدولة العربية وسقوطها» لهاوزن، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة؛ و«السيادة العربيه والشيعة والاسرائيليات» لفان فلوتن، ترجمة حسن ابراهيم حسن.

(٢) الطبري ٢/ ١٣٥٤.

يظهر من هذا النص أن عشرين ألفاً من أهل البلاد كانوا في أول خلافة عمر بن عبد العزيز مسلمين عن عقيدة وايمان، وليس لمصالح مادية، إذ لم تقدر الدولة إسلامهم ولم تخفف عنهم الخراج، وأن عددهم ازداد عندما أمر عمر بن عبد العزيز برفع الجزية عمن يسلم. ولا بد أن الدافع لإسلام عدد من هؤلاء كان العقيدة أكثر من المصالح المادية التي من أبرزها تخفيف الجزية عنهم. لم تشر المصادر إلى عددهم أو إلى أساليب نشر الإسلام فيهم. ومن الواضح أن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يسبقه أي خليفة أموي أو والٍ لها، اهتم بنشر الإسلام حتى اذا كان ذلك يؤثر سلبياً على موارد الدولة، وسياسته في هذا تشبه سياسة عمر بن الخطاب.

لم تذكر المصادر تَدَخُّل عمر بن عبد العزيز في أساليب الجباية كالذي فعله في العراق، ولعله تركها تجري وفق التقاليد، بالرغم من احتمال التعسف في بعضها. ولم تذكر الأخبار إرسال من «يفقه في الدين» كالذي فعله مع القيروان في المغرب، وإنما ذكرت استشارته أبا مجلز لاحق بن حميد فيمن يولي خراسان[1]، وهو فقيه نقَلَتْ عنه كتب الخراج روايات مفردة في شؤون الضرائب[2].

يذكر البلاذري أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك ماوراء النهر يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم، وأنه رفع الجزية عمن أسلم، وفرض لمن أسلم وأبقى الخانات[3]. وذكر أنه كتب إلى ملوك الهند فأسلموا[4]؛ ولا بد أن عمر بن عبد العزيز كان يدرك أن إسلام الملوك يرافقه إسلام أتباعهم من العامة وهو الهدف الرئيس الذي كان ينشد تحقيقه.

إن السياسة التي اتبعها عمر بن عبد العزيز في تشجيع نشر الإسلام كانت

(١) الطبري ٢/١٣٥٦.
(٢) الخراج لأبي يوسف ١٣١، الخراج ليحيى بن آدم ٢٥، وانظر «موارد البلاذري» لمحمد المشهداني ٨٨١، ٨٨٤.
(٣) فتوح البلدان، ٤٢٥.
(٤) فتوح البلدان، ٤٤٠.

مثمرة للدولة، وقد تابعها عدد من ولاة خراسان بعده فيذكر الطبري أنه، في سنة ١١٠هـ، «دعا الأشرس أهل الذمة من أهل سمرقند وما وراء النهر إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية، فأجابوا إلى ذلك، فلما أسلموا وضع عليهم الجزية وطالبهم بها، فنصبوا له الحرب، فاراد الأشرس أن يولي العمل أبا الصيداء». قال أبو الصيداء: أَخرُج شريطة أن من أسلم لم يؤخذ منه الجزية، فإنما خراج خراسان على رؤوس الرجال، قال أشرس: نعم. قال أبو الصيداء لأصحابه: فإني أخرج، فإن لم يَفِ العمال أعنتموني عليهم، قالوا نعم: ويتابع الطبري كلامه فيقول «فدعا أبو الصيداء أهل سمرقند ومن حولها إلى الإسلام، على أن توضع عنهم الجزية، فسارع الناس، فكتب غُوزك إلى أشرس أن الخراج قد انكسر، فكتب أشرس إلى ابن أبي العمرطة (وكان على حرب سمرقند وخراجها): إن في الخراج قوة للمسلمين، وقد بلغني أن أهل السغد وأشباههم لم يسلموا رغبة، وإنما دخلوا في الإسلام تَعَوُّذاً من الجزية، فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه.. فقام أبو الصيداء بمنعهم من أخذ الجزية ممن أسلم، فكتب هاني (والي سمرقند بعد ابن أبي العمرطة): إن الناس قد أسلموا وَبَنُوا المساجد، فجاء دَهاقين بخارى إلى أشرس فقالوا: ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً؟ فكتب أشرس إلى هانئ والي العمال: خذوا الخراج ممن كنتم تأخذون منه، فاعادوا الجزية على من أسلم، فامتنعوا واعتزل مِنْ أهل السُغد سبعة آلاف[1]. (...) فألح هانئ والعمال في جباية الخراج، واستخفوا بعظماء العجم وسلط المجشر عميرة بن سعد على الدهاقين، فأقيموا وخرقت ثيابهم وألقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذوا الجزية ممن أسلم من الضعفاء، فكفرت السغد وبخارى واستجاشوا الترك»[2].

ذكر الطبري أن أسد بن عبد الله القرشي، بعد أن عاد من غزو ماوراء النهر

(١) الطبري ٢/١٥٠٧ ـ ٨.
(٢) الطبري ٢/١٥٠٩ ـ ١٠.

إلى مَرْوَ سنة ١٢١هـ، خطب فقال: «ألا إن بهرامسيس كان مانح المجوس، يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم على المسلمين، ألا إن اشبداد بن جريجور كان مانح النصارى؛ ألا إن عقيبة اليهودي كان مانح اليهود يفعل ذلك، ألا إني مانح المسلمين، أمنحهم وأدفع عنهم وأحمل أثقالهم على المشركين، ألا إنه لا يُقْبل مني إلا توفّي الخراج على ما كُتِب ووُضِع، فأيما رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه، أو ثقل عليه في خراجه، وخفف مثل ذلك عن المشركين، فيرفع ذلك إلى المنصور بن عمر (متولّي الخراج) يُحَوّله عن المسلم إلى المشرك، فما كانت الجمعة الثانية حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدُّون الجزية عن رؤوسهم، وثمانون ألف رجل قد أُلقِيت عنهم جزيتهم، فحول ذلك عليهم والقاه عن المسلمين، ثم صَنَّف الخراج حتى وضعه مواضعه، ثم وظف الوظيفة التي جرى عليها الصلح، قال فكانت مَرْوُ يُؤخذ منها مائة ألفٍ سوى الخراج أيام بني أمية»[١].

يصف هذا النص الأحوال في مرو، ويظهر أن أهلها كَوَّنوا ثلاث مجموعات قائمة على أسس دينية، هم المجوس والنصارى واليهود، ولم يدخل في ذلك المقاتِلَةُ العرب ومواليهم، ويُظْهِر ذلك أن الإسلام انتشر بين أهلها عن رغبة وليس لمصلحة مادية إذ أن من يُسْلِم كانت الجزية تؤخذ من رأسه أو يَثْقُل عليه في خراجه، ويظهر كذلك أن انتشار الإسلام يخفف الاعباء المالية عن غير المسلمين.

ويُظهر من هذا النص أن عدد رجال أهل مرو كان مائة وعشرة آلاف، غير أنه لا يشير إلى عدد أفراد كل مجموعة، ولعلهم كانوا متقاربين في العدد، وأن هذا التنظيم كان شائعاً وقَبِلت الدولة بقاءه ولم تبدله رغم إضراره بمن يعتنق الإسلام. أما المسلمون، فلم يكن لهم تنظيم خاص بهم، فلم يذكر لهم رئيس، والمفروض أنهم كانوا تابعين للدولة، وليس كمنظَّمة دونها.

(١) الطبري ١٦٨٨/٢ ـ ٩.

ويُظهر هذا النص كذلك أن جباية الجزية على غير المسلمين كانت بيد رؤساء المجموعات الدينية وبمقدورهم تعديل مقدار ما يُفرض على الأفراد، فيَزِيدون مقدار ما يفرض على من يسلم. ولم تذكر المصادر أن أحداً من أصحاب السلطان، بمن فيهم الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي كان حريصاً على نشر الإسلام والتخفيف عمن يعتنقه، عالج هذا الوضع الذي يُثْقل الأعباء على من يسلم، ولعل مثل هذا الوضع كان قائماً في عدد من المدن الخراسانية الأخرى، ويذكر أن أسد بن عبد الله القسري عالجه إذ «خَفَّف الخراج حتى وضعه مواضعه، ثم وظف الوظيفة التي جرى عليها» ولعله عَمَّم ذلك على المدن أخرى في خراسان وماوراء النهر، ولم تذكر المصادر تفاصيل عن معالجته.

ومن الجدير بالذكر أن أبا جعفر المنصور، لمَّا أسس مقره في بغداد، جعل مدينته المدورة مقصورة على قَصْرِه وبيوت بعض أولاده وحرسه ودواوينه، وأوطن حول المدينة المدورة من هم في الراجح جيشه في قطائع منظمة تَبَعاً لأهل مدن خراسان وماوراء النهر، فكل قطيعة مسماة بالبلد الذي كانوا ينسبون إليه، ولهم رئيس منهم، ولعل أُصولهم في المدن التي سميت القطائع بهم[١]، ولعل كثيراً منهم من غير العرب، ولكنهم مسلمون ومن جند الدولة، وأن إسلامهم يرجع إلى ما قبل قيام الثورة العباسية، وربما كان بعضه يرجع إلى زمن عمر بن عبد العزيز، أو من آثار سياسته وتوجهاته في هذا الميدان.

---

(١) انظر تفاصيل القطائع والمدن التي نسب إليها اهلها ورؤساءهم ودورهم في المجلد الثاني من كتابنا «بغداد مدينة السلام» م٢.

الفصل الثالث عشر

نشر الإسلام وتثبيته في شمالي إفريقية

أهل شمالي إفريقية

تتوافر، عن سياسة عُمر بن عبد العزيز في نشر الإسلام بشمالي إفريقية، معلومات تفوق ما يتوافر عن غيرها من الأقاليم الأخرى، وتتميز بذكر أسماء من اختارهم لتحقيق هذا الغرض وخدمته.

إن شمال افريقية بلاد واسعة، تمتد في وسطها جبال الأطلس العريضة الشاهقة، وتنبسط بينها وبين البحر الأبيض المتوسط، سهولٌ ضيقة خصبة تتوافر فيها المياه والمزارع، وتكثُر فيها المستوطنات والمدن. أما الجنوب فأراضيه صحراوية جرداء، تغطيها الرمال، وتمتد إلى مسافات شاسعة، وليس فيها إلا قليل من الينابيع، وتحجزها هذه الصحراء عن أواسط افريقية، وتحدد طرق المواصلات فيها. وتطغى البداوة على حياة سكانها القليلين المتفرقين.

وأكثر سكان هذه المنطقة بربر مكونون من عشائر كثيرة أبرز مجموعاتها البتر، وهم منتشرون بين مصر وبرقة، ومن قبائلهم زناته ولواته والبرانس وديارهم في جبال الاطلس. ومن أبرز قبائلهم صنهاجه وأوْرَبَه ومصمودَه.

يزدحم السكان في السهول الساحلية الشمالية والمناطق الجبلية القريبة منها. وقد استوطن في هذه المناطق بجانب البربر أقوام من أبرزهم القرطاجنيون، وقد كَوَّنوا مستوطنات في إقليم تونس خاصة، وكان لهم نشاط في الملاحة والتجارة

في البحر المتوسط، وكَوَّنوا دولة غنيَّة قضى عليها الرومان بقسوة في القرن الأول قبل الميلاد، وهيمنوا على البلاد، ولا سيّما الساحلية، ودخلت البلادَ، في زمنهم المسيحية على المذهب الآريوسي، ولكن أنتشارها كان محدوداً. ولما ضعفت الدولة الرومانية، قَدِمَت أعدادٌ قليلة من الفاندال الجرمان، واستوطنوا بعض المناطق الساحلية.

وفي زمن خلافة عثمان، غزا العرب الأطراف الشرقية من البلاد، وأحرزوا انتصارات وغنائم. ولما استتبت الخلافة لمعاوية، اهتم بضم هذه البلاد إلى دولة الإسلام، فجهز قوات من مصر، تقدمت وتغلبت على مقاومة القوات البيزنطية (الرومية) الضعيفة، وأسست لها قاعدة، وهي التي صارت مدينة القيروان؛ وتابعت حركاتها العسكرية بقيادة عقبة بن نافع لتثبيت فتح مستقر ثابت، ولقيت مقاومات متفرقة، بعضها قوية من البربر الذين، مع كثرة عددهم، لم يكونوا موحدين، ولم تنتظمهم عقيدة فكرية أو روحية عميقة توقفهم بوجه الإسلام الذي انضم إليه بعضهم منذ وقت مبكر.

ولم تذكر المصادر عدد من أسلم من البربر عند تأسيس القيروان، ولكن من المؤكد أن الدخول في الإسلام، لم يكن بالقسر، ولم تذكر المصادر الطرق التي اتبعت في ضمهم الطوعي للإسلام.

ولما تقدم حسان بن النعمان الغساني لقتال الكاهنة، وكانت تتولى رئاسة البربر في مقاومة المسلمين، كان مع حسان جماعة من البتر، تولى عليهم الأكبر من ولد الكاهنة فأكرمه وتهرب من البتر[١].

ولما دَحَر حسان الروم، ورَكَنَ البربر إليه، لم يقبل أمراءهم حتى يعطوه من

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٢٠١، معالم الايمان لابن الدباغ ٦٥/١.

جميع قبائلهم اثنى عشر ألف فارس يكونون مع العرب برسم الجهاد، فأجابوه إلى ذلك وأسلموا على يديه، فَرَعَى والذي الكاهنة بعد إسلامهما، وعَقَدَ لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس من البربر جعله والياً عليهم، وأخرجهم مع العرب يفتتحون إفريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر. فمن ذلك صارت الحُظْوَةُ بإفريقية للبربر، فكان يُقْسم الفيء والأرض بينهم فحقت طاعتهم له[1]، واذعنت إفريقية، ودوَّن الدواوين[2]، ووضع الخراج على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على النصرانية وعامتهم من البرانس إلا قليلاً من البتر[3].

لا ريب في أن إسلام البربر يجعلهم مؤيدين لدولته، عاملين على خدمة أهدافها، مسهمين في الأعمال التي تتطلبها، ومنها تثبيت الأمن ومتابعة الفتوح فهي تحقق الأهداف السياسية للدولة، كما أنها توثق الصلة بالعرب، فتشاركهم بجامعة الإسلام الجامعة، وتميل إلى تبنى مثلها في الحياة الاجتماعية والخلقية، فإسلامهم يبذر نواة الوحدة السياسية والروحية وتعزيز علاقة البربر بالعرب.

انتشار الإسلام في شمال افريقية

تَتَابع إسلام البربر في شمال إفريقية في زمن خلافة عمر بن عبد العزيز، ولا بد أن بعض الفضل في ذلك يرجع إلى وُلاتها: فقد تتابع على ولاية المغرب: إسماعيل بن عبد الله الأنصاري، ثم إسماعيل بن أبي المهاجر.

فأما إسماعيل بن عبد الله الأنصاري، فإن ابن عذارى يؤكد أنه «عمل على نشر الإسلام فيه»[4].

وأما إسماعيل بن أبي المهاجر، فإن البلاذُري يقول: إنه في زمنه «غَلَبَ

---

(١) تاريخ افريقيا والمغرب للرقيق: ١٤.
(٢) رياض النفوس ١/ ١٧٤، معالم الايمان لابن الدباغ ١/ ٦٧.
(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٢٠١.
(٤) البيان المغرب لابن عذاري ١/ ٤٥.

الإسلام على المغرب»[1]. ويقول ابن عبد الحكم: إنه «ما زال حريصاً على دعوة البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه»[2]، وينقل ابن عذارى عنه هذا الكلام ويضيف إليه أن ذلك حَصَلَ في دولة عمر بن عبد العزيز»[3]، وهو الذي علّم أهل افريقية الحلال والحرام[4].

لا ريب في أن إسلام البربر كانَ يرافقه تحقيق أهداف الإسلام، وتَفَهُّم عقائده وأفكاره ومتطلباته. وكانت الحاجة إلى ذلك لا تقتصر على البربر، وانما تمتد، وإن كان بدرجة أقل، إلى العرب أيضاً، ذلك أنَّهم، وإن كانوا يتميزون بمعرفة لغة القرآن الكريم، وكان كثير منهم يعيشون كثيراً من المثل العليا التي دعا إليها الإسلام، إلا أنهم يفتقدون عدداً من مثله التي لم يألفوها، كما أن الاقتصار على الاهتمام بالقتال دون الحياة الحضرية ومتطلبات الانسان في السلوك الجيد قد يؤدي إلى إغفال تلك الحياة والسلوك، ومن ثم الانحدار إلى حياة بعيدة عن متطلبات الإسلام. لذلك كان من الضروري العمل على تغذية الناس بالروح الإسلامية، سواء في ذلك العرب أم البربر، ولا بد أن عدداً من الأتقياء الورعين، من ذوي الفطنة والذكاء، كانوا يقومون بذلك طوعاً وبدافع ذاتي، وليس بتكليف رسمي.

نَشْر الإسلام وتوجُّهاته في القيروان

كانت القيروان المِصْرَ الذي أنشأه العرب في شمال إفريقية في زمن خلافة معاوية، وكان أهلها مقاتِلَة تميزوا بالتدريب العسكري لأداء واجبهم في توسيع الدولة وحِفْظ الأمن والنظام فيها، وغالبيتهم المطلقة من أهل الجزيرة العربية في الأصل. وقد اجتمعوا من أرجاء متعددة فيها ولا سيّما من اليمن والحجاز

(١) فتوح البلدان ٢٣٠.
(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٢١٤.
(٣) البيان المغرب ١/ ٤٥.
(٤) ابن أبي العرب: طبقات علماء إفريقية ٢٦؛ البيان المغرب ١/ ٤٨.

وأطراف بلاد الشام، وقد قَدِموا إليها بعد استقرار موقت في الفسطاط وأمصار بلاد الشام.

غير أن السمة العسكرية التي تَمَيَّزَ بها المقاتِلَةُ العرب لم تجتث اهتمامهم بالفكر، وتقديرهم للكلمة الطيبة، والحكمة والشعر وتَنَاقُل المأثور؛ ولا بد أنَّ اجتماعاتهم من الأرجاء المتفرقة في الجزيرة عَمِلت على تنويع الثقافة وتعدُّد جوانبها ضمن النطاق العام الذي تجمعه لغتهم الموحّدة. وجاء الإسلام مؤكِّداً الاهتمام بالفكر بوصفه الأداة الرئيسة لفهم تعاليمه وتوجيهاته. وكان المنبع الرئيس للأفكار الإسلامية هو القرآن الكريم الذي يقرأ منه المسلمون في صلواتهم الخمس يومياً، ويتداولونه، وقد حَرِص عمر بن الخطاب على نشر تعلُّم القرآن وتدارسه فصار مصدراً أساسياً مضافاً إلى مصادرهم الثقافية الأخرى.

ولم يرد ذكر لتأثُّر أهل القيروان الأولين بالتيارات السياسية و الفكرية، وكان بُعْدُهم عن مراكز النشاط الفكري وانغمارهم في الفتوح، من اسباب عزلتهم الفكرية.

وأدرك الخليفة عمر بن عبد العزيز ذلك فعمل على معالجته، ومما رددت فعله في ذلك أنه أرسل عشرة من التابعين ليفقهوا أهل القيروان[1] ذكر منهم:

١ - موهب بن حي المعافري[2].

٢ - سعد بن مسعود التجيبي[3].

---

(١) طبقات علماء افريقية لأبي العرب ٣٠، رياض النفوس للمالكي ١/٧٦. معالم الايمان للدباغ ٢/١٩٢، ٢١٥، الاكمال لابن ماكولا ٧/١٣٦.

(٢) رياض النفوس ١/١٩ - ٧٢، معالم الايمان ١/١٤٦.

(٣) رياض النفوس ١/٦٦، البيان المغرب لابن عذاري ١/٤٣.

٣. عثيل بن هاعان بن عرو الرعين القتباني. «كان قاضي الجند بإفريقية لهشام ابن عبد الملك وكان عمر بن عبد العزيز قد أخرجه من مصر إلى المغرب لِيُقرِئهم القرآن، وكان أحد القراء[١] وبثَّ فيهم علماً كثيراً[٢].

٤. عبد الرحمن بن نافع[٣].

٥. اسماعيل بن عبيد الانصاري[٤].

٦. اسماعيل بن عبيد الله بن المهاجر: استعمله عمر بن عبد العزيز على أهل إفريقية ليحكم بينهم ويُفَقِّههم في الدين[٥].

تذكر المصادر أن عمر بن عبد العزيز بعث هؤلاء لِيُفَقِّهوا أهل القيروان في الدين. ولم تذكر هذه المصادر التوجُّهات التي طلب عمر بن عبد العزيز ممن أرسلهم أن يوجِّهُوا الناس إليها، ومن المعروف أن عمر بن عبد العزيز لم يفرض مذهباً سياسياً أو فقهياً مُعَيَّناً طلب من الناس السير عليه، وإنما عُنِيَ بإثارة الاهتمام بالأفكار الدينية العامة المقبولة عند المسلمين.

اختار عمر بن عبد العزيز عَشَرةً من عشائر متعددة بعضها يمانية، وتم أختيارهم لمواهبهم واتجاهاتهم الفكرية العامة المُرْضِية له، وإدراكه لكفاءتهم في إثاره الاهتمام بما أُرْسِلوا إليه: فدورهم هو في إثارة التفكير العام. وقد أشادت المصادر بمكانتهم ولكنها لم توضح الأساليب التي اتَّبعُوها ومدى تأثيرهم وإن كان سياق الحوادث يدل على أنه لم تكن لهم اتجاهات حزبية ضيقة؛ والمفروض أن أكثر إهتمام عمر بن عبد العزيز كان موجَّهاً إلى دراسة القرآن الكريم والحديث النبوي والسنة. غير أن المصادر لم تذكر متميزاً من أهل

(١) رياض النفوس ١/ ٦٤، معالم الايمان ١/ ١٨٠.
(٢) تهذيب الكمال ١/ ٥٢٨، معالم الايمان ١/ ١٨١.
(٣) رياض النفوس ١/ ٧١، البيان المغرب ١/ ٣٤، ٤٨.
(٤) رياض النفوس ١/ ٦٤، معالم الايمان ١/ ١٣٨، ١٩٢.
(٥) رياض النفوس ١/ ٦٤، معالم الايمان ١/ ٢٣٠؛ ولم اجد ذكراً لأسماء الاربعة الاخرين.

القيروان غير «أبو خالد بن عبد الخالق: كان من قراء القرآن وإليه نُسِبَ اللحن السحنوني»[1].

الاهتمام بتعميق مفاهيم الإسلام في بوادي جزيرة العرب

كان الإسلام مُثْبتاً في أهل الجزيرة والأقاليم التي حولها، منذ زمن الرسول (ص) والخلفاء الأولين؛ ولكن أهل البوادي لم يتعمقوا في تفهمهم مبادئ الإسلام وروحه، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآية ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ونزلت آيات أخرى تعبر عن ضحالة أفكارهم. ولا ريب في أن استقرار الأعراب من الأمصار رافقه زيادة تَفَهُّمهم لمبادئ الإسلام وتَشَبُّعهم بروحه. أما الذين ظَلُّوا مقيمين في البوادي، فيبدو أنهم ظلوا على ضحالة فهمهم وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بهذا الأمر، وعمل على معالجته.

يذكر ابن سعد «بَعَثَ عمر بن عبد العزيز بنَ مالك الدمشقي، والحارث إمام مسجد الاشعري يُفَقِّهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رزقاً»[2]. وأكَّد على وُلاتِه أن يَحُضُّوا الناس على تعلم القرآن[3]. وذكر ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز قال: الحقوا ببلادكم فإني أذكركم في بلادكم وأنساكم عندي[4]؛ ولا بد أنه قصد في ذلك البدو الأعراب الذين يبدو أنه ازداد تقاطُرهم على الأمصار حيث كانوا يذكرون فيها عند الولاة، وتُحْدِث هجرتهم مشاكل غير قليلة.

وهذا يظهر شمولية نظرته التي لم تقتصر على مراكز محدودة، وإنما كانت شاملة. غير أن المصادر لم تستوعب ذكر غير شمال أفريقية وخراسان.

---

(١) أبو العرب: تاريخ افريقية و المغرب.

(٢) ابن سعد ٥/ ٢٦٠.

(٣) الأموال لأبي عبيد ٢٦، مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٣.

(٤) ابن سعد ٥/ ٢٥٧، المعرفة والتاريخ للنسوي ١/ ٥٧٤.

الفصل الرابع عشر

عمر بن عبد العزيز والفرق الإسلامية

كان المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه الدولة هو الإيمانَ برابطة عامة يُقَرُّبها الكافة، تقوم على الاعتقاد بالإسلام وتَجَمُّع «عباد الله» عليه، وتُعَزِّز هذه الرابطة لغةٌ عامة هي العربية السليمة، ومُثُلٌ دينية أبرزها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. غير أن هذه الرابطة العامة واجهت عند التطبيق واهتماماً بجزئيات متباينة أبرزها في الميدان السياسي: البحث في الخلافة، والبحث في أن شاغلها هو صاحب السلطة العليا، ويتفرع عن هذا، بنطاق أدنى، البحث في أعمال كبار الولاة الذين كانوا يتمتعون بسلطات واسعة مستمدة من الخليفة.

بدأت ظواهر هذه التيارات منذ زمن الخليفة أبي بكر حين جرى نقاش في من يتولى الخلافة، وفي الموقف من الممتنعين عن دفع الزكاة والإقرار بالتزام الولاء للخليفة. وكان النقاش الأول محصوراً في المدينة، وعولج بالإقناع السلمي الذي أمَّن وحدة أهلها، وهم المُسَيِّرون لسياسة الدولة. ثم تلا ذلك القضاء على حركات الرِّدَّة والانشقاقات التي تُفَكِّك وحدة الامة، وتُضْعف كيانها السياسي الموحَّد: ولكن هذا لم يقض على أُسُس الخلافات التي ظهرت في الفرعيات منذ زمن خلافة عمر بن الخطاب، وتجلت في احتجاجات أهل الكوفة على وُلاتهم، وفي بعض ما عَرَضَتْه وفودهم. وقد عالج عمر هذه المشاكل بما أَمَّن الحفاظ على الوحدة العامة، وبأسلوب من الإقناع الفكري. وظهر تَعَدُّد التيارات في زمن خلافة عثمان بن عفان، وكانت على أشُدِّها في

الفسطاط والكوفة والبصرة. ولُجئ فيها إلى السلاح والقوة، وكانت ظواهر إثارتها المواقفَ من أعمال الولاة في الأمصار. ولم يكن مركز الخلافة في المدينة بمنأى عنها. وقَوَّى الخليفةُ هذه المواقف بعدم اعتراضه على الولاة، وقيامه شخصياً بأعمال لم يُقِرَّها عدد من المعارضين، وكان الخلاف فيها على الأعمال والتطبيقات. ولا بد أنْ أفكاراً تسند هذه المواقف قد رافقته، غير أن الأفكار في هذه المرحلة كانت متفرقة تتعلق بالجزئيات دون الكليات.

وفي خلافة علي، حدث انفجار واسع عندما تَحَدى الخليفةَ عددٌ من كبار الصحابة وبعض الولاة، تناولوا شرعية إشغاله المنصب، ولجأ كثير من المعارضين إلى السلاح، واستعملوا المقاتِلَة مِن أهل الديوان خاصة لتنفيذ أغراضهم الشخصية المحلية. وتجلى الصدام المسلح في موقعتي الجمل وصفين[1]. ونمت في هذه الصدامات الواسعة العنيفة أفكار عن مؤهلات الأشخاص المتنازعين، وامتدت إلى البحث في أفكار عامة لعل بعضها كان كامناً «تحت السطح» فبدأ يطفو، ثم تجلى في بذور الشيعة ثم الخوارج. ولعله امتد إلى بحث أسس السلطة.

ولما خَلَصَت الخلافة لمعاوية، بعد اغتيال الخليفة علي في مركز إقامته بالكوفة، بايعه من كانوا من تابعيه من أهل الكوفة ومسانديه من قبل، وعمل معاوية على إزالة أسباب استعمال القوة، وعلى «لَمِّ الشمل»، وتثبيت مكانة الجماعة وتقوية الروابط العامة بالدولة ورمزها الخلافة. ولا بد أن الخليفة وولاته والمتصلين به قد روجوا أفكاراً تساند هذه الاتجاهات وتبررها وتعمل على نشرها بين الناس. وقد وصلتنا عن هذه الأفكار إشارات قليلة، غير أن قلتها لا تعبر عن ضعف أهميتها التي تتجلى في سير الناس عليها، علماً بأن الأحوال في القرن الأول الهجري لم تيسر تدوين كثير من الأفكار السائدة في السياسة أو غيرها. ولا ريب في أن هذا لم يمنع وجود توجُّهات في ميادين السياسة الدولية والإدارة لا تتفق مع التوجُّهات الرسمية، وفي المصادر معلومات

---

(١) انظر كتاب «الفتنة» لهشام جعيط.

متفرقة عن أفكار وتوجهات خاصة لأفراد أو جماعات لا يمكن تحديد عددهم أو مدى تماسكهم، وأبرز التوجهات السياسية الأولى المخالفة لتوجُّهات الدولة توجُّهات الشيعة العلويين والخوارج والقدرية.

مَيْل عمر بن عبد العزيز إلى الجبرية

أشارت المصادر إلى أن عمر بن عبد العزيز كان يقول بالجبر، فيروي ابن أبي الحديد أن «عمر بن عبد العزيز كان أعظم خلق الله قولاً بالجبر حتى يتجاوز الجهمية، ويرى على كل ذي غاية صاحب شفعة، وكان يضع في ذلك الكتب على جهله بالكلام وقلة اختلافه مع أهل النظر[1]. ويذكر ابن سعد ان جماعة من أهل الكوفة دخلوا على عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة يناظرونه في الإرجاء.

إن الفكرة الاساسية للجبرية هي أن «الإنسان ليس له حول فيما يفعل بل إن الله تعالى هو الذي يسيِّر البشر[2]. وأبرز أوائل القائلين بها هو الجعد بن درهم، وكان مولى نزل الكوفة ورحل إلى الرقَّة واتصل بواليها محمد بن مروان، فجعله مؤدب ابنه محمد، ثم رحل إلى دمشق وأظهر القول بخلق القرآن، فطلبه الأمويون فهرب إلى الكوفة، وهاجم بني أمية وانضم إلى يزيد بن المهلب في ثورته على عمر بن عبد العزيز، ثم ناصبه هشام بن عبد الملك العداء واضطهده[3].

كان الجبرية يندِّدون باستئثار بني أمية بالحكم، ويرفضون نظريتهم في الخلافة ووراثة الملك، ويناهضون ممارساتهم المختلفة، ويندِّدون بمفاسدهم المالية، ويرددون القضاء على سلطانهم، وهذه الأفكار تنسجم مع كثير من توجهات عمر بن عبد العزيز، غير أن المصادر لم تقدم معلومات تدل على

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣/ ١٧٤.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية. مادة «الجبرية» ٣أ ابن سعد ٦/ ٢١٨، ٢٣٦.
(٣) انظر تفاصيل اوفى في كتاب «الفرق الإسلامية في بلاد الشام» لحسين عطوان ٨٣ ـ ٩٨.

اتصاله بدعاة الجبرية، مما يجعل الشبه بين آرائها يرجع إلى توارد الخواطر أكثر مما يرجع إلى الاتصال المباشر. ومما يؤيد ذلكَ أن ابن أبي الحديد يقول بصراحة إن عمر بن عبد العزيز له موقف مؤيد للجبرية وليست له آراء واضحة عن معتقداتهم ويذكر ابن سعد أن جماعة من أهل الكوفة رحلوا إلى عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة يناظرونه في الإرجاء[(١)]

موقف عمر بن عبد العزيز المعادي للقدرية

رُويت أقوال كثيرة عن كُرْه عمر بن عبد العزيز للقدرية. يَرْوي ابن سعد عن رجاء بن حيوة قال عمر بن عبد العزيز لمكحول «إياك أن تقول عن القدرة ما يقول هؤلاء، يعني غيلان وأصحابه»[(٢)]، وأنه قال لنافع بن أبي سهل: «أرى ان يُسْتتابوا، فإن تابوا وإلّا ضربت أعناقهم»[(٣)]. ويروى أنه كتب إلى عدي بن ارطأة والي البصرة، يطلب منه أن يستتيبهم، فإن تابوا فَخَلِّ سبيلهم، وإلّا فانفهم من دار المسلمين[(٤)]. ويقول ابن قتيبة إن هشام بن عبد الملك لمّا صلب غيلان الدمشقي رأس القدرية «كانوا يرون أن ذلك بدعوة عمر بن عبد العزيز عليهم»[(٥)].

إن تعصب عمر على القدرية أضْعَفَ مكانته عند المعتزلة التي كانت تفضل في الدين يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز[(٦)].

ظهرت القدرية في بدئها ببلاد الشام، وكان رأسها غيلان الدمشقي، وهو قبطي مصري الأصل، اتصل بيوحنا الدمشقي حفيد سرجون الرومي والي خراج الشام في زمن معاوية، وأخذ آراء يوحنا، واتصل بعبد الملك فَقَرَّبه وجعله مربي

---

(١) إبن سعد ٦/ ٢١٨، ٢٣٦.
(٢) ابن سعد ٥/ ٢٨٤.
(٣) ابن سعد ٥/ ٢٨٣.
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٥٥، التنبيه والرد للملطي ٨٧.
(٥) المعارف لابن قتيبة ٤٨٤(طبعه ثروت عكاشه).
(٦) مروج الذهب ٣/ ٢٢٦.

ابنه سعيد، ولما وُلّيَ عمر بن عبد العزيز، قَرَّبه وولّاه بيع خزائن ثم جفاه[1]. وكتب غيلان كتاباً إلى عمر بن عبد العزيز قال فيه إن الخلافة تَصْلُح في غير قريش[2] واتهم عمر بأنه يرى أن ظلم الولاة بإرادة الله ومشيئته[3]، وناقش عمر في ذلك فلم تتم المناقشة، فجفاه وأقصاه[4]، وأوردت بعض المصادر رسالة عمر في الرد عليه[5] ولعلها مختلقة. وكان غيلان صديق ميمون بن مهران[6]، وهو أحد المقربين من عمر بن عبد العزيز وواليه على الخراج.

وفيما عدا هذا الموقف المتشدد من القدرية، اعتمد عمر بن عبد العزيز سياسة التسامح والحوار السلمي مع الفرق الأخرى، بمن فيهم من كان يرى حَمْل السلاح لفرض مُرشَّحِيه للخلافة، ولم يتشدد إلا مع من حمل السلاح بالفعل.

الشيعة/العلويون وحسن معاملته لهم

أساس الشيعة العلويين القول بشرعية خلافة علي. قد تجلت قوتهم العسكرية في قتالهم مع علي في صفين، ثم تعمقت مشاعرهم بعد مقتل علي وتمسُّكهم بذكراه. ثم زادت في قوتهم الأخطاء السياسية والإدارية للخلافة الأموية، وعَزَّزتها تصرفات أبناء علي الرصينة، وتقدير الناس لهم، واعتزازهم بصلتهم النسبية بالرسول (ص). وكانت أبرز محاولاتهم، بعد اغتيال الخليفة، عندما قَدِم الحسين إلى الكوفة معتمداً على ما وصلته من أخبار تأييد أهلها له بوصفه العلوي البارز الجدير بالخلافة، ثم استشهاده لقلة من انضمَّ إليه مما مكن القوات غير الكبيرة التي أرسلها الوالي الأموي عبيد الله بن زياد من التغلب

---

(١) انساب الاشراف للبلاذري ٢/٢٤٦(مخطوطة استامبول).
(٢) الملل والنحل للشهرستاني ١/١٢٧.
(٣) أنساب الاشراف ٢/٢٤٦.
(٤) طبقات المعتزلة ٢٦٥، فضل الاعتزال ٢٣١.
(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/٣٤٦ ـ ٣٥٣.
(٦) إبن سعد ٧ ـ ٢/١٧٨.

عليه، واستشهاده مع عدد من أبناء أسرته وأقاربه الذين كانوا معه. وعمل الامويون على حصر أثر مقتله، فقام «التوابون» من أهل الكوفة بالثأر له بعد سنتين من استشهاده[1]. أما بقيه أفراد الأسرة ،فاكتفوا بموقف سلبي ومعارضة ضعيفة، وبتعزيز مكانتهم في حسن تصرفاتهم في الحياة أكثر من أتخاذهم مواقف إيجابية خطرة في المعارضة.

وردت في الكتب معلومات تشير إلى تَميُّز عمر بن عبد العزيز عن الخلفاء الأمويين بحسن معاملته للعلويين، وأن عمر بن عبد العزيز قال لفاطمة بنت علي بن أبي طالب «لم يبق في الأرض أهل أحبُّ إليَّ منكم»[2].

إبطال سبّ علي بن أبي طالب

ويبدو من مجمل المعلومات التي وصلتنا أن أبرز مظهر لِحُسْن معاملة عمر بن عبد العزيز للعلويين: مَنْعُه سَبَّهم على المنابر، وإعادتُه بعض الأملاك اليهم[3].

فأما سب عليّ، فإن أبا مخنف يَرْوِي أن الولاة من بني أمية، قبل عمر بن عبد العزيز، كانوا يشتمون علياً. فلما وُلِّيَ عمر، أمسك عن ذلك، فقال كُثَيِّر عزّة،

وَلِيتَ فلم تشتم عليًا ولم تخَفْ بريئاً ولم تشبع مقالَة مُجْرِمِ

فقد روى البلاذري أنه، بعد إعلان نتيجه التحكيم في أذرح، «انصرف أهل الشام إلى معاوية فسلّموا عليه بالخلافة... فكان علي إذا صلى الغداة، قنتَ فقال: اللهم العن معاوية وعَمْراً وأبا الأعور وحبيب بن مسلمة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد والضحاك وابن قيس والوليد بن عقبة، فبلغ ذلك معاوية فكان يلعن عليًا والأشتر وقيس بن سعد والحسن والحسين وعبد الله بن عباس

(١) انظر ابراهيم بيضون: اتجاهات المعارضة في الكوفة ١٩٨٦.
(٢) ابن سعد ٥/٢٦١، ٥/١٢٤وفاطمة هي زوجة سعد بن الاسود بن أبي البختري، جمهرة النسب لأبي حزم ١٢٥.
(٣) ابن سعد ٥/٢٩١، الجاحظ «فضل هاشم على عبد شمس» ٩٣.

وعبد الله بن جعفر[١]، أورد خبر اللعن ابن أبي الحديد في تعليقه على كتاب وجهه علي إلى معاوية يَعِيبُه على تصرفه. وعلّق ابن أبي الحديد فقال: «وهكذا جرى في القنوت واللعن: قنت بالكوفة علي معاوية ولعنه في الصلاة وخطبة الجمعة. وأضاف عمرو بن العاص وأبا موسى وأبا الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة، فبلغ ذلك معاوية بالشام فقنت عليه ولعنه بالصلاة وخطبة الجمعة، وأضاف إليه الحسن والحسين وابن عباس والأشتر النخعي...»[٢]. إن هذا النص الذي يذكر ابن أبي الحديد أنه لا يعرف مسوغه، يظهر أن الخليفة عليًّا هو الذي بدأه، وشمل معاوية وعدداً من كبار رجاله، وأن معاوية قابله بالمثل. ولم تذكر المصادر مدى استمراره، ولا بد أنه توقف من جانب علي بعد مقتله، ولكن الأمويين استمروا عليه، فيروي البلاذري يقول: «سب أميرٌ من الأمراء عليًّا فقام إليه زيد بن أرقم فقال: أما علمت أن رسول الله (ص) نهى عن سب الموتى، أفتسب عليًّا وهو ميت[٣]، وأورد ابن حنبل هذا الخبر وذكر أن المغيرة بن شعبة، وكان على الكوفة في أوائل خلافة معاوية، هو الذي سَبَّ علياً[٤]. ويذكر الجاحظ: «قال المغيرة، وهو عامل معاوية يومئذ لصعصعة بن صوحان، قم فالعن علياً، فقال: إن أميركم هذا أمرني أن ألعن علياً»[٥].

ويروي المدائني: «قال مروان لعلي بن الحسين ما كان أحد آلف عند صاحبنا (معاوية) من صاحبكم (علي)، قال فلِمَ تشتمونه على المنابر، قلنا لايستقيم لنا هذا إلا بهذا[٦] ويتبين من النص الأول أن سب علي جرى في زمن خلافه معاوية كما يبين النص الثاني ان السبب في استمراره بعد خلافة علي أنه من السبل التي تثبت الحكم الأموي «لا يستقيم لنا هذا إلا بهذا». وقد يدل

---

(١) انساب الاشراف ٢ ـ ١/ ١٧٩.
(٢) شرح نهج البلاغة ٣/ ٢٥٨.
(٣) انساب الاشراف ٢ ـ ١/ ٦٧٩.
(٤) ابن حنبل ٤/ ٦٩.
(٥) فضل بني هاشم على بني عبد شمس ٩٣.
(٦) انساب الاشراف ٢ ـ ١/ ١٨٤.

النص الثاني على ان السب لم يقتصر على الكوفة، وإنما كان عاماً في الأمصار الأخرى، غير أن مبرره ضعيف لأنه كان يَحْدُث بعد مقتل علي وصفاء الخلافة لمعاوية الذي عمل على «لمّ الشمل» و«رأب الصدع وخصوصاً بعد تنازل الحسن عن الخلافة. ويقول الجاحظ عن عبد الملك: «وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلعن علي بن أبي طالب على منابره، ويرميه بالفجور في مجالسه»[١]. وهذا النص قد يوحى أن عبد الملك رأى أن السب يؤثر في الحركات المتحدية لخلافة الأمويين، ويذكر الجاحظ: «ولما وُلِّيَ خالد بن عبد الله القسري مكة، كان إذا خطب بها لعن علياً والحسن والحسين، فقال عبد الله بن كثير السهمي: لعن الله من يسب علياً والحسن وحسيناً»[٢]. وصيغة النص توحي أن خالد القسري ابتدع سب علي والحسن وهو عمل لا تبرره الأحوال السياسية زمن الوليد بن عبد الملك.

تظهر هذه النصوص أن شتم علي كان يجري متفرقاً. غير أن نصوصاً أخرى تظهر أنه كان ممارسة متتابعة، فيذكر الجاحظ «وحسبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون عليّاً على منابرهم، فلمّا نهى عمر بن عبد العزيز عن ذلك عد محسناً، يشهد لذلك قول كثير فيه.

وَلِيتَ فَلَمْ تشتُمْ عليًا ولم تُخِفْ   بريئاً ولم تتبعْ مقالَة مُجرِمِ

ويقول أيضاً: «قام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان، وكان يتأله بزعمهم إلى هشام بن عبد الملك وهو يخطب على المنبر يعرفه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا اليوم كانت تستحب الخلفاء فيه لَعَنَ أبي تراب (علي)، فقال هشام: ليس لهذا جئنا». ويعلق الجاحظ على هذا بقوله: «ألا ترى أن ذلك يدل على أنه كان لعنُه فيهم فاشياً ظاهراً». وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن عليًا ويقول: قَتَلَ جَدَّيَّ جميعاً: الزبير وعثمان[٣].

---

(١) فضل بني هاشم على بني عبد شمس(مجموعة رسائل الجاحظ السندوبي).
(٢) الجاحظ: فضل بني هاشم على بني عبد شمس ٩٣.
(٣) الجاحظ: فضل بني هاشم على بني عبد شمس ٩٣.

يَروي ابن أبي الحديد: «وكان أهل حرّان حين أرسل(. . .) لَعْن أمير المؤمنين على المنابر في أيام الجمع امتنعوا من إزالته، وقالوا لا صلاة إلّا بِلَعْن أبي تراب»[(١)]. ومن المعلوم أن كثيراً من العرب في حران هم من معارضي عليّ الذين انتقلوا من الكوفة عندما قدمها، فأسكنهم معاوية هذه المدينة، كما أسكن آخرين انتقلوا من الكوفة في أماكن أخرى في الجزيرة. ولا ريب في أن عداءهم لعلي قديم، ولا نعلم مدى انتشار هذا اللعن في الأماكن المعروفة بميلها لعلي كالكوفة، أو بعدم انغمارها في تأييد خلافته. والمعلومات القليلة التي وصلتنا متفرقة لا تيسر تكوين صورة متماسكة عن مدى انتشار وتطور سب علي، علماً بأن الأمويين كانت علاقاتهم بالعلويين بالزيجات المتبادلة بينهما.

ويروي أبو مخنف: «كان الولاة من بني أمية يشتمون عليًّا رحمه الله، فلما وُلّيَ عمر بن عبد العزيز أمسك عن ذلك، فقال كُثَيِّر عَزَّةِ الخزامي:

وَلِيتَ فلم تشتم عليًّا ولم تُخِفْ ... بريئاً ولم تتبع مقالةَ مُجرِمِ[(٢)]

ويروى ابن سعد أيضاً: «سُئل عمر بن عبد العزيز عن علي وعثمان والجمل وصفين وما جرى بينهم، فقال تلك دماء كف الله عنها، ولم أغمس لساني فيها»[(٣)].

يروي المسعودي أن عمر بن عبد العزيز «تَرَكَ لعن علي عليه السلام على المنابر، وجعل مكانه» ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلًّا لِلَّذين آمنوا، ربنا إنك غفور رحيم. وقيل بل جعل مكانه ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النحل/ ٩٠]. وقيل بل جمعها جميعاً فاستعمل ذلك في الخطب إلى هذا اليوم. وأذكر أنه «كتب إلى عامله بالمدينة أن اقسم في ولد علي بن أبي طالب عشرة الآف درهم»[(٤)].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣/ ٢٠٢.
(٢) ابن سعد ٥/ ٢٩١، الجاحظ: فضل بني هاشم على عبد شمس ٩٣.
(٣) ابن سعد ٥/ ٢٩١.
(٤) مروج الذهب ٢/ ٢٨٤.

ويذكر البلاذري أنه لام عدي بن أرطأة والي البصرة لشتمه علياً[1]. وذكر ابن أبي الحديد معاوية ويزيد ومن كان بعدهما من بني مروان أيام ملكهم وذلك نحو ثمانين سنة لم يدعوا جهداً من حمل الناس على شتمه ولعنه وأخفاء فضائله[2]. قال: إن بني أمية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة فلم يَزِدْه الله بذلك إلا رفعة[3].

ذوو القربى وأسهمهم

ومما يتصل بحسن معاملته للعلويين موقفه من سهم ذوي القربى الذي يرى العلويون أنهم هم المقصودون به.

ولا ريب في أن القرابه قائمة على أساس الدم، ولكن القرآن الكريم لم يحدد مدى امتدادها وشمولها، وقرن تعبير «ذوي القربى» مع اليتامى في آية واحدة، ومع اليتامى والمساكين في آيتين، ومع المساكين وابن السبيل في ثلاث آيات. وهذا يدل على أن ذوي القربى الذين أشار إليهم القرآن الكريم كانوا من المحتاجين الجديرين بالعون المادي فحسب.

نص القرآن الكريم على النصيب المادي لذوي القربى من الفيء والغنيمة ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الحشر/٧] ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال/٤١]. إن الفيء الذي أشار إليه القرآن الكريم كان في زمن الرسول (ص) مقصوراً على أراضي بني النضير. أما الغنائم، فحكمها عام يشمل ما يحصل عليه المسلمون من الأموال المنقولة في ميدان المعارك دون تحديد.

ذكرت كتب الفقه أن الرسول (ص) كان يقسم سهم ذوى القربى على بني

---

(١) انساب الاشراف ٦/ ٦٤٥(مخطوطة استانبول).
(٢) شرح نهج البلاغة ٣/ ٢٥٨.
(٣) شرح نهج البلاغة ٣/ ٢٥٩.

هاشم وبني المطلب، وأن قسمته توقفت في خلافة عمر (رض)، وتروى بعض الروايات أن أبا بكر هو الذي أسقط سهم الرسول وسهم ذَوِي القربى. وفي روايةٍ عن علي بن أبي طالب أن سهم ذَوِي القربى كان يقسم في زمن الرسول (ص)، وزمن خلافة أبي بكر وعمر. حتى إذا كان آخر سنة من سني عمر أتاه مال كثير، فعزل حقَّنا، ثم أرسل إليَّ فقال خذه فاقسمه، فقلت: يا أمير المؤمنين، بنا عنه العامَ غنى، وبالمسلمين إليه حاجة، فَرُدَّه عليهم تلك السنة، ثم لم يدلنا إليه أحد بعد عمر حتى قمت مقامي هذا فلقيني العباس بن عبد المطلب بعد خروجي من عند عمر فقال: ياعلي لقد حرمتنا شيئاً لا يَرِدُ علينا أبداً إلى يوم القيامة[١].

نظم عمر بن الخطاب في أواسط سني خلافته الديوان الذي تَعَيَّن به مقدار ما يأخذه كل فرد من المقاتلة ومن الصحابة، وكانت الموارد الرئيسة للديوان من الجبايات الثابتة من الأقاليم ولا سيّما خراج الأرض، ولعلّه دخل فيها أيضاً موارد من العشور على المزروعات والتجارات وجزية أهل الذمة وجمعها كلها لتعم المسلمين من أهل الديوان، دون أن يفرد ذوى القربى.

يتبين من مجمل الأخبار أن الرسول (ص) أولى بني عبد المطلب وبني المطلب اهتماماً خاصًا بوصفهم ذوي القربى الذين نص عليهم القرآن الكريم ممن يُسْهَم لهم من الفيء والغنائم، غير أن مقدار ما كان يحصل منها غير كبير أو منتظم في زمن الرسول (ص)، كما أن عددهم في المدينة قبل فتح مكة لم يكن كبيراً، ولا بد أن مقدار ما حصل عليه منهم لم يكن كبيراً لأن الغنائم كانت قليلة، وكان الرسول (ص) يتصرف بِخُمسها فيوزعه على عدد من الأبواب لسد المتطلبات الآنية المتعددة، ولاتشير المصادر إلى تمييز الرسول (ص) لذوي القربى بثروات كبيرة، وقد وردت معلومات عن ثروة علي بن أبي طالب من الأراضي، وأشارت المصادر إلى ما حصل عليه منها في زمن الرسول (ص)[٢]

---

(١) الخراج لابن يوسف ١٩.

(٢) تاريخ المدينة لابن شبه ٢١٩ ـ ٢٩ وانظر الفصل الذي كتبناه عن ملكيات الأراضي في الحجاز في كتابنا «الحجاز في صدر الإسلام».

ولم تُشر إلى زمن حصوله على المقدار الأكبر من هذه الأراضي، ولا توجد إشارة إلى توزيع أراضي بني النضير وهي التي أفاءها الله على الرسول (ص) ولا إلى الصدقات السبع التي كانت له في المدينة، ومع أن القرآن الكريم خص ذوي القربى بالإشارة إلا أنه لاتوجد معلومات عن تمييز ذوى القربى من غيرهم بما يحصلوه.

تابع أبو بكر الصديق الرسول (ص) في ما يتعلق بتوزيع الأموال والأراضي فأبقى صدقات الرسول (ص) بيد الخليفة ولم يوزعها، سوى ما ذكر ابن شبه أنه نحل ابنته عائشة الأعياف وهي من الصدقات السبع في المدينة[1].

وفي زمن خلافة عمر بن الخطاب ازدادت الغنائم وتضَخَّمت أخماسها، فأقر عمر تنظيم صرف جبايات الأقاليم المفتوحة بأن خَصَّصها للعطاء الذي يوزع على الجميع ضمن قواعد منتظمة، فلم يتفرد ذوو القربى بعطاء متميز ولم يوزع عليهم فيء أراضي بني النضير، فأبقيت هذه الاراضي «صدقات»[2] تمتلكها الدولة وجعل ولايتها لعليّ. ويبدو أنها ظلت بيد علي، فيذكر ابن شبه أن عليًا والعباس تخاصما على ولايتها فجعلها عمر بن الخطاب لعلي[3]، ثم كانت على يد الحسن بن علي ثم بيد الحسين ثم بيد علي بن الحسين، ثم بيد زيد بن الحسين[4]. ويذكر ابن شبه أن «صدقات النبي (ص) اليوم في يد الخليفة يولي عليها ويعزل عنها ويقسم ثمرها وغلتها في أهل الحاجة من أهل المدينة على قدر ما يرى[5]. ولم تشر المصادر إلى الجهات التي كانت تصرف عليها موارد الصدقات أو مقدارها. ومن المحتمل أن آل علي كان لهم النصيب الأوفى منها. ولكنها لم تقتصر عليهم علماً بأن كتب الصحاح روت أحاديث عن

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبه ٢١١.
(٢) تاريخ المدينة لابن شبه ٢٠٣ مسند ابن حنبل ١٠/١٧٩.
(٣) تاريخ المدينة ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢١٧، وانظر اشارات اخرى في المصادر التي ذكرها مفتاح كنوز السنة مادة «علي» و«عباس».
(٤) تاريخ المدينة ٢٠٩.
(٥) تاريخ المدينة ٢١٨.

الرسول (ص) ان «آل محمد لا يأكلون الصدقة» وان مسلم والنسائي رويا عن الرسول (ص) قوله لا يستعمل آل النبي على الصدقة.

وأمر بقسمة الكتيبة على بني هاشم[١]، ورد إلى العلويين فَدَك[٢]، والبغيبغة[٣].

العلاقة بالأسرة العباسية

كان العباس العم الوحيد للرسول (ص) الذي بقي على قيد الحياة إلى ما بعد وفاة الرسول (ص) وتأخر إسلامه إلى ما بعد الحديبية، وكان أبرز رجال بني هاشم عند وفاة الرسول (ص)، ولم يحضر اجتماع السقيفة، ولم يؤيد في البداية انتخاب أبي بكر خليفة، ولكن معارضته لم تكن عنيفة ولم تستمر.

كان للعباس تسعة أولاد، منهم أربعة لم يعقبوا[٤].

ولما وُلّيَ علي بن أبي طالب الخلافة اعتمد في الإدارة على أولاد العباس، فَوَلَّى قُثَمَ المدينة، والحارث مكة، وعبيد الله اليمن، وعبد الله البصرة.

وكان عبد الله أبرز أولاد العباس، وظل موالياً لعلي، فلما صفت الخلافة لمعاوية، استقر في مكة، وعُنِيَ بالتفسير فبرز فيه وكان «حبر الأمة»، وكان له عدة أولاد لم يعقبوا ولم يبرزوا[٥]، وانما برز من أولاده علي «ولا عقب لعبد الله من غير علي»[٦].

لم يشارك احد من الأسرة العباسية في موقعة الحرة[٧]، ولما أعلن عبد الله بن

---

(١) انظر: «مفتاح كنوز السنّة» لفنسنت مادة «زكاة» صدقة.
(٢) ابن سعد ٥/٢٨٨ ـ ٢٨٩.
(٣) فتوح البلدان ٣١ ـ ٤٢، أخبار القضاة لوكيع ١/١٥٣.
(٤) نسب قريش لمصعب الزبيري ٢٥ ـ ٢٩.
(٥) أنساب الاشراف ٣/٢٧ فما بعد.
(٦) جمهرة النسب لابن حزم ٩٠.
(٧) لم يذكر خليفة في تاريخه من قتل في الحرة من العباسيين.

الزبير خلافته متحدياً الأمويين التحق علي بن عبد الله بعبد الملك لأنه رآى أنه «أقرب وأخلق للإمارة»[١]. وكانت علاقته بعبد الملك علاقة طيبة[٢]، وتزوج لبابة بنت عبد الله بن جعفر بعد أن طلقها عبد الملك، فاستاء من ذلك الوليد، وضربه عن ذلك مائة جلدة[٣]، وأخرجه إلى الحميمة «وقال لا تجاورني بدمشق، فغاظ ذلك عليَّ بنَ عبد الله حتى كان من أمره ما كان[٤]. ويذكر الشابشتي أن الوليد بن عبد الملك سَيَّر علي بن عبد الله بن العباس إلى دهلك، ثم رده سليمان منها، فكان هذا سبباً لترك سليمان في قبره بدابق، ولم ينبشه العباسيون عندما وُلُّوا الخلافة[٥]. ويروى البلاذري أن الوليد غضب على علي بن عبد الله لقتله سليطاً «فأقيم في الشمس، وجعل على رأسه الزيت، وضربه ستين أو واحداً وستين سوطاً، وألبسه جبة صوف وحبسه.. (ثم أمر به ان يسير إلى دهلك... فكلمه سليمان بن عبد الملك فيه، فأرسل من يحبسه حيث لحقه... فنزل الحميمة، فلم يزل بالحميمة حتى هلك الوليد سنة ٩٦ وولى سليمان بن عبد الملك فرده إلى دمشق»[٦].

كان علي بن عبد الله يقيم في الحميمة من البلقاء من أعمال عمان[٧]، ويَرْوي مؤلف أخبار بني العباس أنه نزلها «بنصيحة أبيه» ويروي البلاذري: «وكان علي يروي في نزوله الشراة أثراً فانتقل إليها، وقد توفي سنة ١١٧هـ بالحميمة [٨].

تقع الحميمة على الطريق بين الشام والحجاز، ويتيسر منها الاتصال

(١) أخبار بني العباس ١٣٣.
(٢) أخبار بني العباس ١٤٥.
(٣) أخبار بني العباس ١٣٨.
(٤) أخبار بني العباس ١٥٠.
(٥) الديارات ٢١٦.
(٦) أنساب الاشراف ٧٨.
(٧) أخبار بني العباس ١٥٢.
(٨) أنساب الأشراف ٣/ ٧٩.

بالمتنقلين بينهما، ويَروي البلاذري أن علي بن عبد الله بن العباس، عندما كان فيها «لا يمر به أحد يريد الشام من الحجاز، أو يريد الحجاز من الشام إلا أضافه ووصله[1]، وكان من قبلها مقيماً بدمشق وابتنى بها داراً[2]، وذلك لم يكن أمراً طوعياً، وانما اضطر إليه.

وكانت لعلي بن عبد الله علاقة طيبة بعبد الملك[3]، وقد أقام بدمشق وابتنى داراً قبل انتقاله إلى الحميمة التي لا بد أنه اضطر إلى الانتقال إليها، ولعل هذا الانتقال كان في زمن الوليد بن عبد الملك الذي استاء من زواج علي بابنة عبد الله بن جعفر بعد أن فارقها عبد الملك، فضربه وسيّره.

لم تكن الإقامة في البوادي أمراً مستغرباً، فقد أقام أغلب الخلفاء الأمويين خارج دمشق في أماكن خارج دمشق كما ذكرنا في فصل سابق، كما أقام عدد من كبار رجال قريش في قرى ريفية في الحجاز خارج المدينة ومكة، غير أن أغلب هذه الأماكن كانت قريبة من المراكز الكبيرة، وكان للمقيمين فيها أملاك ومزارع. أما الإقامة في أطراف الأردن الجنوبية، فلم يعرف من أقام بها غير الزهري الذي أقام وتوفي في جنوبي الأردن، وعبد الله بن علي في الحميمة، والأرجح أن هذه الاقامة كانت جبرية ألزمه بها الخليفة الوليد لإبعاده عن المراكز الرئيسة. ولعل الخليفة طلب إبعاده، فاختار مقرًا له الحميمة، وهي مكانٌ ناءٍ يُرْضي رغبة الخليفة في الإقصاء، ويحقق لعبد الله بن علي بعض ما يطمح إليه من مكان لا يكون «منفيّ» منقطعاً. ويقول انه اختار الحميمة بناء على نصيحة أبيه. وقد يشير إلى أنه كان قد استعرض الأماكن، وقدّر أهمية الحميمة في العزلة مع إمكان متابعة النشاط، أي أن الإبعاد كان بأمر الخليفة واختيار مكان الإبعاد كان منه.

---

(١) أنساب الاشراف ٣/ ٧٥.
(٢) أنساب الأشراف ٣/ ٥٣.
(٣) أنساب الأشراف ٣/ ٥٣.

ظل عبد الله بن علي مقيماً مع أسرته في الحميمة التي اتصل فيها بأبي هاشم علي بن محمد بن الحنفية وتسلَّم منه الوصية بالدعوة.

وكانت علاقة أبي هاشم بالوليد علاقة طيبة، فقد جاء إلى دمشق يشكو زَيْدَ بن علي في منازعته، وأيَّد الوليدُ أبا هاشم، وأكرمه، وأقام أبو هاشم بدمشق يحضر مجلس الوليد ويسامره، وربما خرج معه، ثم حدثت بينهما مشاحنة فأمره الوليد بالخروج من الشام[١].

ويذكر البلاذري أنَّ الوليد سجن أبا هاشم في سجن في دمشق ثمّ أطلقه، فعاد إلى الحميمة، فلما كان بالبلقاء مرِضَ فمال إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فتوفى عنده وأوصى له.

وكانت علاقة أبي هاشم بسليمان بن عبد الملك طيبة، فقد وَفَدَ على سليمان فأكرمه ووصله[٢].

ولم يرد ذكر لمعاداة عمر بن عبد العزيز للعباسيين. ويَرْوِي ابن أبي الحديد أن العباسيين لما قَضَوْا على الخلافة الأموية استجار عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بداود بن علي وقال له: «أن أبي لم يكن يخاصمكم وقد علمت صنيعته اليكم، فأجابه واستوهبه من السفاح، وقال قد علمنا صنيع أبيه لنا، فوهب له»[٣].

موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج

أما الخوارج، فإنَّ حركتهم كانت عند بدايتها في زمن الخليفة علي قائمة على استخدام السلاح أكثر من اعتمادها على الأفكار التي كانت محدودة بالموقف من التحكيم وإنكار قبوله، والانشقاق عن الخليفة دون المناداة بعدم شرعيته أو الدعوة إلى عزله. وقد أضعفت الضربةُ القاصمة التي أنزلها الخليفة

(١) الديارات ٢١٦.
(٢) أنساب الاشراف ٢ ـ ٢/ ٢٧٣ ـ ٤.
(٣) شرح نهج البلاغه ٣/ ٢٠٤.

علي بهم في معركة النهروان قُوَّتهم العسكرية وفكَّكتها، ولكنها لم تجتُّهم وإنما أثارت عطف عدد من أهل الكوفة عليهم فزادت في إضعاف الخليفة على هؤلاء مما أفاد منه معاوية أكثر مما أفاد في تقويتهم، فلم يستطع توجيه جيش لمقاتلة معاوية الذي أنفذ غارات مهددة إلى أطراف الكوفة[١]، ثم اغتيل علي بمؤامرة أعدها عدد محدود من الخوارج. وهيأ مقتله لمعاوية الفرصة لتثبيت خلافته التي كان قد أعلنها بعد مؤتمر أذرح. ودانت له الكوفة وأقاليم العالم الإسلامي، وعَمِل معاوية على «لمّ الشمل» وإعادة الوحدة العامة للأمة دون أن يرغم الناس على تَمَثُّل أفكاره وتثبيت مركزه، فقوته منبعثه من إضعاف صوت المعارضة أكثر مما هي منبعثة من تقوية مكانة الأمويين. وأصبح «سواد الأمة» تسوده فكرة السلم والأمن والاستقرار والاهتمام بالحياة الخاصة. أما التيارات السياسية وأبرزها الشيعة العلوية فتوجهت إلى المعارضة السلبية الهادئة.

وكان الخوارج المجموعة الوحيدة التي تضم أفراداً من مختلف القبائل ويجمعهم اعتناق فكرة سياسية تطغى رابطتها على الروابط الأخرى ولا سيّما القبلية. ويبرز فيهم التأكيد على استعمال القوة أكثر من الاهتمام بتوضيح الأفكار وتوسيعها والدفاع عنها، لذلك كانت نشاطاتهم مرئية أكثر مما كانت مقنعة. ولما كانت السلطة الحاكمة لم تتساهل مع من يستخدم القوة لفرض آرائه وتهديد الأمن، فقد استعمل الولاة الأمويون الحزم مع من يهدد الأمن منهم، وكان معظم نشاطهم في جنوب العراق حيث لم يكن توجه العامة معهم، فمؤيدو السلطة القائمة والراغبون في حياة السلم لايقرون حركاتهم العسكرية التمردية، كما أن الشيعة العلويين لا يؤيدونهم، وإنما يناصبونهم العداء لمواقفهم الانشقاقية ومعاداتهم لهم، ويبدو أن هذه الأمور قَلَّصت نشاطاتهم في العراق، ووجَّهتهم إلى مناطق أخرى، ولا سيّما الأهواز والبحرين واليمامة، ولا نعلم الأساليب التي اتبعوها والنطاق الذي حققوه في زمن خلافة معاوية ويزيد، وإنما الواضح بروز نشاطهم الواسع في هذه المناطق بعد وفاة يزيد.

---

(١) انظر كتاب «الغارات» للثقفي.

احتفظ الخوارج بموقفهم المعادي للخلافة الأموية وأسلوبهم في استعمال القوة المسلحة لتثبيت وجودهم وتوسيع دعوتهم، ولم يحاول الأمويون مهادنتهم، وإنما استعملوا الحزم والقوة في محاولة القضاء عليهم، ولكنّ الأمويين لم يُفْلحوا في اجتثاثهم، وظَلُّوا مصدر خطر كبير يهدد سيطرة الدولة والأمن في بوادي العراق والاقاليم الواقعة حول الخليج العربي[1].

انفرد عمر بن العزيز من بين الخلفاء بالاتصال المباشر بالخوارج ومحاورتهم والدعوة إلى عدم ملاحقتهم ما داموا لا يعبثون بالأمن والنظام وذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزبز وجه إلى الخوارج كتاباً يدعوهم فيه إلى كتاب الله وهددهم باستعمال الشدة لقمع حركاتهم العسكرية[2].

ذكر ابن عبد الحكم نص الحوار بين عمر بن عبد العزيز واثنين من الخوارج أرسلوهما لمناظرته، فلاموه على عدم التبرؤ من أقاربه، ولامهم على ضيق نظرتهم وعنفهم على من لم يأخذ بآرائهم، وأورد أمثلة تُظْهر أن نظرتهم المتعصبة لا تنسجم مع روح الإدارة والسياسية الإسلامية[3].

ذكر الواقدي أن عمر بن عبد العزيز بعث عون بن عبد الله بن عتبة إلى الخوارج الذين خرجوا عليه وسألهم ما ينقمون عليه؟ فقالوا ما نقم عليه إلا أنه لا يلقن من كان قبله من أهل بيته فهذه مراهنة منه[4].

ويذكر أن عمر بن عبد العزيز كفّ عن قتال الخوارج حتى يأخذوا الأموال وقطعوا السبيل، وأمر واليه في العراق أن يرد ما يصيب من متاعهم إلى أهليهم[5].

---

(١) انظر: الخوارج والشيعة، لولهوزن، ترجمة عبد الرحمن بدوي.
(٢) ابن عبد الحكم ١٠٨/٧١ ـ ١١١.
(٣) ابن عبد الحكم ١٠٨/٧٠ ـ ١١، وأورد المسعودي نصاً طويلاً في محاججتهم. مروج الذهب ١٩٠ ـ ١٩٣؛ المعرفة والتاريخ للنسوي ٢/٦٠٢.
(٤) ابن سعد ٥/ ٢٦٤.
(٥) ابن سعد ٥/ ٢٤١.

لم تثمر سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه الخوارج نتائج حاسمة فقد ثار في خلافته شوذب في منطقة الكوفة ودحر الجيش الذي وجهه إليه مما حمل عمر بن عبد العزيز على إنفاذ جيش من أهل الشام بقيادة أخيه مسلمة وهو من أقدر القواد الأمويين، فاستطاع دحره ولعل لسياسة عمر أثراً في إضعاف اندفاع الخوارج.

عمر بن عبد العزيز وطلائع الاهتمام بالعلوم الطبية والفلسفة

ظهرت في زمن خلافة عمر بن عبد العزيز طلائع حركة التعريب لِكُتُب الطب، وأولها كتاب أهرن القس وكان في صدر الدولة «وكان عالماً في الطب وله كتاب الكناش وجعله ثلاثين مقالة، وهو الكناش فاضل افضل الكنانيش القديمة»[(١)].

كان كتاب أهرن «في الدولة المروانية» ووجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب، فأمر بإخراجه ووضعه في مصلاه، فاستخار الله في اخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، وخص له في ذلك أربعين صباحاً أخرجه إلى الناس وبثه في أيديهم، وهو في ثلاثين مقالة[(٢)].

نقل كتاب أهرن إلى العربية ماسرجويه وهو سرياني يدين باليهودية ويسمى أيضاً «البصري» وكان عالماً بالطب، وقد اضاف إلى كناش أهرن مقالتين[(٣)].

ومن الأطباء في زمن عمر بن عبد العزيز، عبد الملك بن أبجر «كان طبيباً، وكان في ايام بني مروان، وكان عالماً، وروي أن عمر بن عبد العزيز كان يبعث إليه بمائة دينار»[(٤)].

---

(١) الفهرست ٣٥٥، أخبار الحكماء للقفطي ٨٠.
(٢) تاريخ الأطباء لابن جلجل ٦١، القفطي ٣٢٤؛ طبقات الأطباء: لابن أبي أصيبعة ٢٣١.
(٣) الفهرست ٣٥٥، القفطي ٨٠، ابن أبي أصيبعة ٢٣١، وانظر «موجز تاريخ الطب العربي» لكمال توفيق.
(٤) ابن جلجل ٥٩.

وفي زمن عمر بن عبد العزيز عاش الطبيب مسيح الدمشقي، وهو من أسرة اشتهر رجالها بالطب، منهم ابنه الحكم وحفيده[1].

انتقال مراكز التعليم إلى بلاد الشام

من الأحداث البارزة في تاريخ العلم في زمن خلافة عمر بن عبد العزيز انتقال مراكز العلم من الإسكندرية إلى بلاد الشام، وقد ذكر ذلك المسعودي والفارابي في نصين متشابهين ومتكاملين.

أمّا المسعودي، فإنه قال: «وقد ذكرنا في كتاب فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف، ولأي سبب نقل التعليم في أيام عمر بن عبد العزيز من الإسكندرية إلى أنطاكية، ثم انتقاله إلى حرّان وانتهى ذلك في أيام المعتضد إلى قويري ويوحنا بن حيلان، وكانت وفاته بمدينة السلام في أيام المقتدر، وإبراهيم المروزي، ثم إلى محمد بن كرنيب وأبي بشرمتّى بن يونس تلميذي إبراهيم المروزي»[2].

وذكر الفارابي أن أساقفة النصارى يُعلّمون من كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية ولا يعلّمون ما بعده، لأنهم رأوا أن ذلك ضرر على النصرانية، وأن ما أطلقوه منها ما يستعان به على نصرة دينهم، فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار، وما ينظر فيه من الباقي مستوراً إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية، وبقي فيها زمناً طويلاً إلى أن بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان وخرجا مع بعض الكتب، فكان أحدهما من أهل حرّان، والآخر من أهل مرو، فأما الذي من أهل مرو، فتعلم منه رجلان أحدهما ابراهيم المروزي والآخر يوحنا بن حيلان، وتعلم من الحرّاني إسرائيل الأسقف، وقويري، وسار إلى بغداد، فتشاغل إبراهيم بالدين، وأخذ قويري في التعليم، وأما يوحنا فإنه تشاغل أيضاً بالدين، وانحدر إبراهيم

(١) ابن جلجل ١٦١ القفطي ٣٢٤.
(٢) التنبيه والإشراف ١٠٥.

المروزي إلى بغداد فأقام بها، وتعلم من المروزي متى ابن يونان، وكان ذلك الذي يعلم في ذلك الوقت إلى آخر الاشكال الوجودية[1].

ويتميز نص المسعودي بأنه حدد زمن نقل التعليم في أيام عمر بن عبد العزيز. فأما الفارابي، فلم يحدد تاريخ الانتقال، «لكنه أوضح نطاق وتطور الانتقال، فذكر أنه مقصور على تعليم المنطق، وأنه استقر في أنطاكية زمناً طويلاً، وأشار ضمنياً إلى تناقض معلميه حتى إنه أبقى معلماً واحداً، وذكر أنه انتقل في أواخر القرن الثالث الهجري إلى حرّان، وأن الحرّاني تعلم منه اثنان، سار أحدهما إلى بغداد، فنقل إليها العلم.

حدّد الفارابي العلم الذي انتقل من الاسكندرية، وهوالمنطق «إلى آخر الأشكال الوجودية»، ولعل علوماً أخرى انتقلت معه، ولم يذكر الفارابي أو المسعودي عن ناقلي العلم من الاسكندرية، ولعلهم كبار العلماء، ولا بد أن هذا الانتقال رافقه انتقال الحركة الفكرية في هذا الميدان؛ ولم يذكر النصان أسباب هذا الانتقال، ولعله لا يرجع إلى «فرض رسمي» من الدولة، وإنما لأن الناقلين وجدوا الأحوال في انطاكية أكثر ملاءمةً للازدهار الذي لا بد ان بعضه يرجع إلى الجو الفكري الذي هيأه عمر بن عبد العزيز.

إن اختيار انطاكية لتكون المركز الجديد للتعليم يلفت النظر، فإن هذه المدينة كانت من أهم مدن بلاد الشام، ولها تاريخ طويل، غير أن وقوعها على البحر عرّضها لتهديدات الأسطول البيزنطي، ولا بد أن أهلها كانوا يعتنقون المذهب الأرثودكسي، وفيها مركز بطريركهم، ولعل هذا من أسباب اختيارهم للتعليم دون المراكز الأخرى التي يعتنق نصاراها المذهب اليعقوبي، وأن بقاء التعليم فيها إلى القرن الثالث الهجري يعبر عن تسامح الأمويين والعباسيين في هذا التعليم، وعدم وضع العراقيل أمامه[2].

---

(١) طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة ٦٠٤.

(٢) أنظر بحث مايرهوف «من الأسكندرية إلى بغداد» المنشورة ترجمته العربية في كتاب «التراث اليوناني في الحضارة الإسلاميه» لعبد الرحمن بدوى، وانظر عن انطاكيه كتاب دون «إنطاكية» ترجمة ابراهيم نصحي، وكتاب «انطاكية مدينة الله» لأسد رستم.

الفصل الخامس عشر

رد المظالم

من أبرز الأعمال التي قام بها عمر بن عبد العزيز واشتهر فيها «رد المظالم»، وقد ذكرها ابن سعد نقلاً عن الواقدي في عشر فقرات[١]، وذكرها ابن عبد الحكم في فقرتين[٢]، والمعلومات في هذين المصدرين متكاملة، وهي تُظهر اهتمام عمر بن عبد العزيز بتنفيذها، وآثار ذلك في عمل الدواوين وبيت المال، وفي موقف رجال الأسرة الأموية من عمله، وأكثر هذه النصوص تبين رد المظالم في بلاد الشام ثم في الحجاز والعراق، ولعل ما ذكرته المصادر هو بعض ما يتعلق بالمظالم وليس كله. والمقصود بالمظالم التجاوزات التي قام بها المتنفذون على الأراضي الزراعية لا سيّما التي كانت ملكيتها للدولة وللأفراد.

لم تذكر المصادر «المظالم» قبل خلافة عمر بن عبد العزيز، ولم تذكر خليفة أموياً غيره عالج المظالم؛ وكان عمر بن عبد العزيز يمارس هذا العمل بنفسه، فلم ينشئ له ديواناً خاصاً، وكان العباسيون الأوائل أول من أنشأ للمظالم ديواناً خاصاً علماً بأنه أصبح في عهدهم له مفهوم أوسع[٣].

روى الليث بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز استهدف من رد المظالم إعادة موارد الدولة من الأراضي إلى الصالح العام بعد أن تناقصت بسبب نقل كثير

---

(١) ابن سعد ٥/٢٥١ ـ ٢.
(٢) ابن عبد الحكم ٧٧، ١٢٥.
(٣) انظر «النظم الادارية» لحسام الدين السامرائي.

من هذه الأراضي، وكانت خراجية، إلى الأفراد، فأصبحت عشرية، ويروي الليث في توضيح هذا الدافع أن الأمويين فزعوا إلى عمته فاطمة لتكلمه في إيقافها، وكان جوابه لها أن الرسول (ص) بُعث إلى الناس كافة، فلما توفي «ترك لهم نهراً شربهم فيه سواء، ثم قام أبو بكر وترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه، فلما وُلِّيَ عثمان اشتق من ذلك النهر نهراً، ثم وُلِّيَ معاوية فشق منه الأنهار ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان، حتى أفضى الأمر إليّ وقد يبس النهر الأعظم، ولن يروى أصحاب النهر الأعظم إلى ما كان عليه»[1].

روى أبو يوسف عن رجل من أهل الشام: لما استخلف عمر ظل شهرين مقبلاً على بثه وحزنه لما ابتلى به من أمور الناس، ثم أخذ في النظر في أمورهم ورد المظالم إلى أهلها حتى كان همه بالناس أشد من همه بنفسه[2].

وذكر الواقدي: «ما زال عمر بن العزيز يرد المظالم من يوم استخلف إلى يوم مات»[3]، وروى عن محمد بن قيس «رأيت عمر بن عبد العزيز إذا صلى العشاء دعا بشمعة من مال الله ليكتب في أمر المسلمين والمظالم، فترد في كل أرض، فإذا أصبح جلس فرد المظالم، وامر بالصدقات أن ترد إلى أهلها»[4].

إن نص أبي يوسف يظهر أن عمر بن عبد العزيز بدأ بتنفيذ رد المظالم بعد شهرين من توليه الخلافة، أما نص الواقدي فيظهر أنه بدأه حال توليه، ولعل نص أبي يوسف أصح في بيان الواقع، وأن عمر فكَّر بعد تولِّيه الخلافة بالأمر مدة شهرين، بدأ بعدها بتنفيذه.

يروي الواقدي: «ما كان يقدم على أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم (واليه

---

(١) الأغاني ٩/٢٥٦.
(٢) الخراج ١٦.
(٣) إبن سعد ٥/٢٥٦.
(٤) إبن سعد ٥/٢٥٦.

على المدينة) كتاب من عمر إلا فيه إزالة مظلمة أو تقدير عطاء أو خير، حتى خرج من الدنيا»[1].

كانت الأراضي، وهي أعظم المظالم، تسجل في الدواوين، وتطلب ردها مراجعة الدواوين، وفي ذلك يَرْوي الواقدي أن ابا بكر محمد بن عمرو بن حزم قال: كتب إليّ عمر بن عبد العزيز أن أستبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور جلده من قبلي من حق مسلم أو معاهد فأردّه عليه وإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا، فأدفعه إلى ورثته»[2].

يروي الواقدي عن أيوب السختياني: «أن عمر بن عبد العزيز رد المظالم في بيوت الأموال، فرد ماكان في بيت المال». ويروي عن عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه «كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق في رد المظالم إلى أهلها، فرددناها حتى نفذ ما في بيت المال في العراق، وحتى حمل إلينا عمر المال من الشام»[3]. إن هذين النصين يظهران العلاقة بين رد المظالم ببيت المال، ولكنه لا يوضح ماهية هذه العلاقة وتفاصيلها التي أنفذت ما في بيت مال العراق وحملت على الاستعانة بمال من الشام، علماً بأن رد المظالم يقتضي أن تزيد موارد بيت المال ولا تنقص.

يذكر أبو الزناد الأساليب التي تعوزها الدقة في تطبيق رد المظالم إذ قال: «كان عمر يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، كان يكتفي باليسير من ذلك، فإذا عرف وجهاً من مظلمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تقديم البينة، لما كان يعرف من غشم الولاة»[4]، وقد أدى هذا إلى حدوث ارتباك في التطبيق أشار إليه ابن عبد الحكم فقال: «كتب عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإني كنت كتبت إليكم بردّ المظالم، ثم كتبت إليكم أن تحبسوها، ثم كتبت

(١) ابن سعد ٥/ ٢٥١، وانظر أبو يوسف ٢٦.
(٢) ابن سعد ٥/ ٢٥٢.
(٣) ابن سعد ٥/ ٢٥٢.
(٤) ابن سعد ٥/ ٢٥٢.

إليكم بِرَدِّها، فاطلعت من بعض أهلها على خيانات وشهود حتى قبضت أموالاً قد كنت رددتها، ثم رأيت أن أُردها على سوء ظن بأهلها أحَبُّ إليَّ من أن أحبسها حتى ينجلي الأمر من غَدٍ على ما ينجلي عنه، فإذا جاءك كتابي هذا فأرْدُدها على أهلها. والسلام»[1].

نقل الواقدي عن إسحاق بن عبد الله: ما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم من لدن معاوية إلى أن استخلف، أخرج منها مما ورثه معاوية ويزيد حقوقاً[2].

إن النص يقصر المظالم على ما ورث معاوية ويزيد من حقوق. وفي المصادر إشارات إلى ما امتلكه معاوية في المدينة وفي مكة والعراق من دور وأراضٍ ومزارع، ولا بد أن فيها كثيراً من إحياء الموات والشراء، وهو ما يُعدّ شرعياً، ولا نعلم مقدار ما يدخل في «المظالم» من المغتصب منها.

يحصر النص المظالم التي ردّها عمر بن عبد العزيز بما ورثه معاوية ويزيد، وتدل المعلومات المتوافرة الأخرى على أن هذا العمل لم يقتصر عليهما، وإنما امتد إلى الآخرين من الأسرة الاموية، وربما من غيرهم.

يَرْوِي الواقدي عن أبي بكر بن أبي سبرة: «لما ردّ عمر بن عبد العزيز المظالم قال إنه لينبغي أن أبدأ بأول من نفسي، فنظر إلى ما في يده من أرض أو متاع فخرج منه، حتى نظر إلى فص خاتم، فقال هذا كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاء من أرض المغرب فخرج منه». ويروى عن عبد المجيد بن سهيل: «رأيت عمر بن عبد العزيز بدأ بأهل بيته، فردّ ما كان بأيديهم من المظالم، ثم جعل بالناس بعد»[3]، ويتبين من هذا أن عمر بن عبد العزيز بدأ برد ما لديه وأهل بيته (وهم مروانيون) ولم يقتصر على السفيانيين،

---

(1) ابن عبد الحكم: ٧٧.
(2) ابن سعد ٥/ ٢٥٢.
(3) ابن سعد ٥/ ٢٥١.

وأن الرد لم يقتصر على الأراضي والعقار، وأنما امتد إلى الأموال المنقولة والمتاع.

ويَرْوي ابن عبد الحكم أن رجال الأسرة الأموية احتجوا على عمل عمر بن عبد العزيز وقالوا له: «أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء وسرت بغير سيرتهم. إن في المظالم نقصاً لهم وعيباً لأعمالهم وشتماً لمن كان بعدهم من أولادهم ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله أن يوصل، وعملت بغير الحق في قرابتك، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها في بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً»[1]، فكأن عمر خص المظالم بما حصل عليه الخلفاء الأمويون الثلاثة الأولون، وأن عمله لم يمتد إلى قريش، وإن لم يُسَمِّها النص مظالم.

أثر رد المظالم على الأسرة الأموية

كان موقف عمر بن عبد العزيز من الأسرة الأموية شديداً، فيذكر ابن سعد أنه «منع قرابته ما كان يجري عليهم وأخذ منهم القطائع التي كانت في أيديهم»[2] ويذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن العزيز لما وُلِّي الخلافة «رد المظالم وقطع عن بني أمية جوائزهم وأرزاق أحراسهم، ورد ضياعهم إلى الخراج، وابطل قطائعهم فأفقرهم»[3]. يبين هذان النصان بعض امتيازات أفراد الأسرة الأموية، ومنها أموال كانت تجري عليهم، وجوائز كانت تدفع لهم، وحَرَس لهم يدفع بيت المال نفقاتهم، وقطائع كانت لهم، وقد حرمهم منها جميعاً، ولا بد أن هذا وَفَّر لبيت المال بعض ما كان ينفقه، غير أن المصادر لم تحدد مقدار ذلك سوى ما رواه ابن عبد الحكم أن بني أمية شكوا أن عمر

---

(١) ابن عبد الحكم، ١٢٦، شرح نهج البلاغة ٤/١٤٦ ـ ١٤٧، وأورد ابن أبي الحديد نصوصاً أخرى عن موقف الأسرة الأموية من رد المظالم.
(٢) ابن سعد ٥/ ٢٧٥.
(٣) ابن عبدالحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ١٢٥.

«بعث إلينا بعشرة دنانير، ولم يمنعنا من ردها إلا خوفنا من غضبه»[(١)]. ولعل هذه الدنانير العشرة عدّها عمر عطاءهم، وهو نصف مقدار شرف العطاء الذي كان يعطى لعدد من المقاتلة ويؤمن حياة معاشية غير مترفة، ولم تذكر المصادر عدد من كان يأخذها.

ويذكر ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز حرم الأمويين العطاء[(٢)]، وأنه «منع قرابته بما كان يجري عليهم من العطاء[(٣)]، وانهم احتجوا على حمله، وكتبوا له كتاباً أغضبه[(٤)]».

لا ريب في أن هذه الأعمال «أفقرتهم فاستاؤوا وضجوا من ذلك فاجتمعوا إليه، فقالوا إنك قد أجلبت بيت المال المسلمين وأفقرت بني أبيك فيما ترد هذه المظالم» وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك، فدعهم وما كان منهم، واشتغل أنت وشأنك واعمل بما رأيت». غير أنه رفض طلبهم، وأصرّ على متابعة سياسته، فاتصلوا بأحد أولاد الوليد وكان كبيرهم ونصيحهم، فكتب إليه محتجاً «أما بعد فإنك أنسيت ممن كان قبلك من الخلفاء، وسرت بغير سيرتهم وسميتها المظالم نقصاً لهم لأعمالهم، وشاتماً لمن كان بعدهم من أولادهم، ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله أن يوصل، وعملت بغير الحق في قرابتك، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً، فاتق الله يا ابن عبد العزيز وأرجعه، فإنك قد أوشكت لم تطمئن على منبرك أن خصصت ذوي قربتك بالقطيعة والظلم، فوالله الذي خص محمداً (ص) بما خصه من الكرامة لقد ازدادت من الله بعداً في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاء عليك، وهي كذلك، فاقتصد في بعض ميلك وتحاشيك»[(٥)].

---

(١) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ١٤٠.
(٢) ابن سعد ٥/ ٢٥٤.
(٣) ابن سعد، ٥/ ٢٧٢، وانظر ٥/ ٢٧١، ٢٢٧.
(٤) ابن سعد ٥/ ٢٥/ ٢٥٣.
(٥) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ١٢٦ ـ ٧.

يظهر هذا الكتاب مآخذ الأمويين على سياسة عمر:

١ ـ خالف سيرة من قبله من الخلفاء وأزرى بهم وعاب أعمالهم.

٢ ـ أساء إلى أولاد من قبله من الخلفاء.

٣ ـ لم يكن عمله منسجماً مع الحق.

٤ ـ أن قطيعة أهل بيته يُهدد مكانه من الخلافة.

ولا ريب في أن سياسته تهدد مكانة الأسرة الأموية وتضعف مراكز قوتها، وقد تؤدي إلى دفعها لاتخاذ مواقف مهددة للخليفة القائم، وفي هذا خطر كبير عليه وعلى الخلافة.

قَبِلَ عمر بن عبد العزيز هذا التحدي ولم يُذْعِن له، ويَرْوي الواقدي أنه هدد المروانيين أن ينقل الخلافة عنهم، ويجعلها شورى، يكون لأهل المدن الصوت الأقوى. ويَرْوي ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز كان يفكر ان يجعل من يخلفه القاسم بن محمد أو اسماعيل بن عمرو بن سعيد الاشدق، وكان القاسم احد الفقهاء العشرة الذين كان يستشيرهم عمر إبَّان ولايته المدينة[١] وان القاسم استبشر بتولي عمر الخلافة وقال: «اليوم ينطق كل من كان لا ينطق، وإنا لنرجو لسليمان بتوليته لعمر بن عبد العزيز»[٢] وان عمر قال «لو كان لها القاسم، يعني الخلافة[٣]. أما إسماعيل فكان عابداً منقطعاً اعتزل فنزل الأعوص وأن عمر قال: لو كان لي من الأمر ما عدوت القاسم بن محمد أو صاحب الأعوص[٤] ولعل هذه الأحداث كانت من دوافع ترك مقامه في دمشق، وبحثه عن مقام في أطراف حمص وقنسرين، أي أنه لم يفكر في نقل مقر الخلافة من بلاد الشام، أو يوسع الخلاف ويمدده إلى الأمصار الأخرى، ولا نعلم مدى التأييد الذي

---

(١) ابن سعد ٥/٢٤٦.
(٢) ابن سعد ٥/٢٥٣.
(٣) ابن سعد ٥/٢٤٩.
(٤) ابن سعد ٥/٢٥٤.

حَظِيَ به من عرب الشام، إلا أن سياق الأحداث لا يشير إلى أنهم تدخلوا في الخلاف إلى جانبه أو ضده، وكانت مدة خلافته أقصر من ان تكفي لتطورات خطرة في مجرى الحوادث.

لا بد أن أعمال عمر بن عبد العزيز في رد المظالم وإيقاف تحويل الأراضي الخراجية إلى عشرية لقيت استياء المنتفعين السابقين، وأكثرهم من بيت الاسرة الأموية في الشام، غير أنهم رضخوا لها ولم يعرقلوا تنفيذها، أو يقوموا بأعمال مناوأة عمر بن عبد العزيز الذي حرص على عدم قطع صلته بالبيت الأموي، أو إعلان عدم شرعيته وعدم شرعية أعمال خلفائه السابقين، ولم يرد ذكر لاحتجاج هشام ومسلمة ابنَيْ عبد الملك وهما أكبر رجال الأسرة. ويُرْوى أن هشاماً أبدى مخاوفه عندما علم بتسمية عمر بن عبد العزيز للخلافة، غير أنه سرعان ما هدأ عندما عَلِمَ أن سليمان أوصى ليزيد بن عبد الملك بالخلافة بعده، فكأنه توقع خروج عمر بن عبد العزيز عن الخط العام لسياسة الخلفاء الأمويين، ولكنه أدرك أن هذا الخروج لن يدوم وسيعقبه يزيد بن عبد الملك. أما مسلمة فلم تذكر عنه معارضة لأعمال عمر بن عبد العزيز وكان «فتى العرب... لا يشك أن شريك الخلافة في خلافته». وكان حاضراً عند وفاته ودفنه[1]، ولعل من أسباب ذلك أن عمر أنقذ مسلمة من الحرج الذي خلقه له سليمان باصراره على البقاء في حصار القسطنطينية الذي لا جدوى منه، فضلا عما يثيره من أتعاب. كما أن السياسة السلمية كانت تؤمن بقاء الدولة واستمرارها دون إراقة دماء. ولايخفى أن مسلمة هو أخو فاطمة زوجة عمر بن عبد العزيز، وكانت تتعاطف مع عمر في تصرفاته الشخصية، إضافة إلى أن يزيد كان وَلِيَّ العهد من بعده، وأن تحديه عمر بن عبد العزيز قد يؤول إلى تحدي الشرعية التي تقوم عليها ولايته العهد.

ذكر مصعب الزبيري أن موقف عمر بن عبد العزيز من توسع ملكية الأمويين

---

(١) الأغاني ٩/٢٥٧، ٢٦٤، ٢٩٥، ٢٦٨.

الأراضي حمل بعضهم على التحويل إلى الصناعة للحصول على المال، فذكر أن هشام بن عبد الملك كان قد اتخذ له طرازاً «وحمله على ذلك أن عمر بن عبد العزيز لمَّا مدّ يده إلى بعض أموال بني أمية لم يعرض لما قطعوا من الثياب ولبسوا وتركها لهم، فرأى هشام أن عمر إمام عادل، وأن من يأتي بعده من أهل العدل يقتدي به فجعل يتخذ المتاع الجيد ويؤثره ويلبسه ثم يتخذه لولده، وكان يستجيده ويقص ثمنه[١]».

القطائع

ذكر ابن عساكر أن أراضي «كانت لبطارقة الروم» فلما هربوا عنها صارت صافية للمسلمين، ومنها أندركيسان، يعني دمشق وقبيس، وما على باب حمص من جيصانا وغيرها «وذكر أن عثمان أعطاها معاوية» ثم إن إناساً من قريش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان أقطعه إياها ففعل. فضمت لهم أموالاً يبيعون بها ويشترون ويورثون. فلما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن أقطع منها أحداً شيئاً، سأل أشراف الناس القطائع منها ففعل[٢].

لا نعلم أحكام أراضي البطارقة قبل الفتح العربي، ولعل أراضيهم كانت مزارع جيدة الإنتاج. والضرائب عليها غير باهضة، فلما فتح المسلمون الشام أصبحت هذه الأراضي صوافي تقبل، والراجح أن ما يجبى منها كان يشبه ما يجبى من أرض الخراج. غير أنها بعد أن تقطع يجبى منها العشر، والمهم في هذه القطائع هو امتلاك رقبتها إذ يصبح لصاحبها حق التصرف التام بها.

لم يحدد ابن عساكر مقدار ما أقطعه عثمان معاوية، والراجح أنه أقطعه الأراضي الجيدة القريبة من المدن وليس كل الصوافي، مما ييسر للخلفاء بعده أن يقطعوا.

---

(١) نسب قريش لمصعب الزبيري ١٦٤.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٥٩٤.

وذكر أن عبد الملك أقطع من أرض الخراج «وقد باد أهلها ولم يتركوا عقباً، فأقطعهم منها، ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل الخراج، ولم يحمله أحد من أهل القرى، وجعلها عشراً. وذكر أن عبد الملك والوليد وسليمان قضوا أن يقطع من أرض القرى التي بأيدي أهل الذمة[1].

فلما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز أعرض عن تلك القطائع التي أقطعها عثمان ومعاوية وعبد الملك والوليد وسليمان، فلم يردها عمر على ما كانت عليه صافيةً ولم يجعلها خراجاً وأمضاها لأهلها تؤدى العشر. وأعرض عمر عن تلك الأشربة بالأذى لأهلها فيها لاختلاط الأمور فيما وقع فيها من المواريث ومهر النساء وقضاء الديون، فما يقدر على تخليصه ولا معرفة ذلك. قال: وأعرض عن الأشربة التي اشتراها المسلمون بغير إذن ولاة الأمر لما في ذلك من المواريث واختلاط الأمر، وجعل الأشربة وغير الأشربة سواء وأمضاه لأهله ولمن كان في يديه كالقطائع للأرض عشراً ليس عليها ولا على من صارت إليه بميراث أو شراء جزي.

قالوا وكتب بذاك كتاباً قرئ على الناس في سنة ١٠٠هـ أعلمهم أن لا جزية عليها، وأنها أرض عشر، وكتب أن من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فان بيعه مردود، وسمى سنة مائة المدة، فسماها المسلمون بعده المدة، فأمضى ذلك في بقية ولايته، ثم أمضاه يزيد وهشام أبناء عبد الملك، فتناهى الناس عن شرائها بعد سنة ١٠٠ ثم اشتروا أراضِيَ كثيرة كانت بأيدي أهلها يؤدون العشر والجزية عليها[2].

ونقل ابن عساكر عن أبي زرعة أن عمر بن عبد العزيز منع التعامل بأرض الخراج، ومن يشترى بعد اليوم فيعاقب البائع والمشتري، وتردّ الأرض إلى

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٥٩٤.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٥٩٦.

النبطي، ويؤخذ الثمن من المسلم فيجعل في بيت المال لما انتهكوا من المعصية ويؤجل المال الذي أخذ النبطي ببيت المال المسلمين لما وضع عمر في ذلك الديوان فهي المدة يعني ما كان قبل المدة، وما كان بعد المدة، يعني بعد عمر بن عبد العزيز[١].

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٥٨٧.

الفصل السادس عشر

عمر بن عبد العزيز
وأحكام التنظيمات المالية والاجتماعية

أصدرت كتب التراجم والأموال والفقه، أحكاماً وآراءً لعمر بن عبد العزيز تَفُوق في عددها وتنوع ميادينها ما أصدره أيٌّ من الخلفاء والولاة ولا يدانيها إلّا ما أصدره الخليفة عمر بن الخطاب.

وأبرزت المعلومات التي ذكرتها المصادر زهده الشخصي، وحرصه على تحديد النفقات في حياته الخاصة، وما يوفره ذلك من الأموال، فيروي ابنُ سعد أنه بعد دفن سليمان أمر بصرف موكب الخلافة، واكتفى بالنزول في فسطاط بسيط[1].

وذكر ابن عبد الحكم زُهْده عن المَلْبس والمأكل[2] وتسريحه جواريه[3]، وبيع ما كان له من لباس وغيرها[4] واقتصد فكانت كتبه لا تكتب بقلم جليل[5]، واستكثر أجرة كتابة مصحف بالذهب، كتبه له ابن حصة، وهو من ابرز الخطاطين فرده[6] وأرادَ نزع رخام وفسيفساء دمشق ويستعيض عنها بالحبال[7].

---

(١) ابن سعد، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٩٤/٢٥١، ٢٩٧، ابن عبد الحكم ٤٤، ٤٧.
(٢) ابن عبد الحكم ٢٢، ٢٨.
(٣) ابن عبد الحكم ٢٤، ١٢١، ١٢٤، ٤٤.
(٤) ابن عبد الحكم ١٢٤.
(٥) ابن سعد ٥/٢٩٦.
(٦) الفهرست لابن النديم ٩١.
(٧) الطبري ٢/ ٥٧٥.

وعمل على منع مظاهر الترف في تصفيف الشعر[1]، والنياحة على الميت[2]، ومنع الإماء من لبس الخمار والتشبه بالحرائر[3]، ومنع النساء من دخول الحمامات مع الرجال[4].

وأباح هجرة الأعراب إلى الأمصار[5]، ولعله وسع في ادخالهم العطاء.

وأمر بإطلاق عبيد[6] وفرق عدداً منهم على المجذومين لخدمتهم[7]. غير أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين ديناراً[8].

وأمر بإطعام الفقراء والمساكين وابن السبيل[9]، ومنع نكاح امرأة الأسير[10]، واهتم بمعاملة المسجونين، فأمر ألا يقيَّدوا[11]، وأن تدفع لهم أعطياتهم[12]، ويُكسى أهل الدعاءات في الصيف والشتاء[13]، ويدفع العطاء للعصاة[14]، وان يدفع الدين عن الفارين[15] وعن الموتى[16]، وشدد على دفع الفيء والصدقة والخمس في مخارجه[17].

---

(١) ابن سعد ٥/ ٢٨٢.
(٢) ابن سعد ٥/ ٢٩٠، ابن عبد الحكم ٨٩.
(٣) ابن سعد ٥/ ٢٨١.
(٤) الولاةالكندي ٧٧.
(٥) ابن عبد الحكم ٧٩.
(٦) ابن سعد ٥/ ٢٧٦.
(٧) ابن عبد الحكم ٤٨.
(٨) ابن سعد ٥/ ٢٧٧.
(٩) ابن سعد ٥/ ٢٧٩.
(١٠) ابن سعد ٥/ ٢٥٧.
(١١) ابن سعد ٥/ ٢٧٠.
(١٢) ابن سعد ٥/ ٢٥٧.
(١٣) ابن سعد ٥/ ٢٦٣.
(١٤) ابن سعد ٥/ ٢٥٦.
(١٥) ابن سعد ٥/ ٢٥٧.
(١٦) ابن عبد الحكم ٥٧.
(١٧) الأموال لأبي عبيد ٢١٦، ٥٩٤.

وأمر بإلغاء الفائدة[١]، ولايؤخذ من التجارات ما يزيد على المقرر[٢]، ويؤخذ من التجارات ما حال عليه الحول واحداً من عشرين ديناراً، فاذا قلّت عن العشرة دنانير فيؤخذ منه العشر[٣]. وأمر أن لا يؤخذ من المعادن إلا صدقة الخمس[٤]، وأباح صيد السمك[٥].

وأباح الاحماء[٦]، وأمر ان يصدق أهل البادية على مياههم[٧]، ووضع بيع الماء[٨]، واهتم بإعمار الأراضي، وشجع احياء الموات[٩]، وأبقى الإخراج على الاراضي الخراجية إذ امتلكها العربي[١٠]، ووضع السخرة[١١]؛ والضرائب الاضافية[١٢].

ومنع هدم الكنائس[١٣]، وأعفى من يسلم من الجزية[١٤]، وكتب إلى واليه على البصرة أن يدع لأهل الفرات ما يتختمون به من الذهب، ويلبسون الطيالس، ويركبون البراذين[١٥].

وأمر بتقييد النصارى في اللباس «فلا يمشي نصراني إلا مفروق الناصية ولا

---

(١) الأموال لابن سلام ٥٥٧، ابن سعد ٥/ ٢٨٣.
(٢) الخراج لأبي يوسف ١٣، لابن عبد الحكم ٧٨.
(٣) خلط، المقريني ٢/ ٣٥١.
(٤) ابن سعد ٥/ ٢٦٠.
(٥) الخراج لأبي يوسف ٧٨، الأموال لابن سلام ٤٧، لابن عبد الحكم ٧٨.
(٦) ابن عبد الحكم ٨١، ٨٣، ابن سعد، ٢٨١.
(٧) الأموال لابن سلام ٥٠٥.
(٨) الخراج ليحيى بن آدم ١٠٩.
(٩) الأموال لابن سلام ٢٨٩، ٢٩٨.
(١٠) الأموال لابن سلام ١٨٨.
(١١) ابن عبد الحكم ٧٩.
(١٢) انظر النص.
(١٣) الأموال لابن سلام ٩٥، ١٢٢.
(١٤) الأموال لابن سلام ٢٨٥.
(١٥) عيون الاخبار لابن قتيبة ١/ ٥٣.

يلبس قباءً، ولا يمشي إلا بزنار من جلود، ولا يلبس طيلساناً ولاسراويل ذات خدمة، ولا نعلاً لها هدبة، ولا يوجد في بيته سلاح[1]، وجعل دِيَّة الذّمي نِصف ما على المسلم، وكانت الدولة تأخذ نصفها الآخر[2].

اورد ابن عبد الحكم نصوص ست وعشرين كتاباً تختلف في طولها، ذكر أن عمر بن عبد العزيز وجه بعضها إلى «عماله» اطلاقاً[3]، وبعضها إلى عمال مركز معينة من مختلف جهات الدوله بما فيها المدينة، واليمن، ومصر، والكوفة والبصره، وبعضها معالجة أحوال مفرده، ولكن أكثرها يعالج أحوالاً عام. وأكد في كثير منها على وجوب الاهتمام بالعبادة، والسير على سنن الهداة الاولين، وعلى معالجة الأمور المالية من رد المظالم، وقَسَمَ الفيء، والعدالة في الصدقات فضلاً عن أمور محليه كالاقتصاد في النفقات، وتنظيم أمور البعوث في الحروب ومناقشة الخوارج، وأساليب مقاتليهم، وما يتعلق بالتجارب والمعاملات والاسواق، والسمة العامة في هذه الرسائل التأكيد على التقوى وإقامة الصلاة والاهتمام بشؤون العامة من جماهير المسلمين، دون المستغلين المتنفذين.

(١) ابن عبد الحكم ١٣٦، وانظر، الخراج لأبي يوسف.
(٢) المنمق لأبي حبيب ٤٥١.
(٣) ابن عبد الحكم ٥٤ ـ ٩٦، ١٠٤، ١٠٨ ـ ١١، ١٣٦ ـ ٧، ١٤٠.

الفصل السابع عشر

إلغاء الضرائب الإضافية
على الخراج في العراق

كان الخراج في العراق أهم أبواب موارد الدولة. كان الساسانيون قد طبقوا في جبايته نُظُماً مُحْكمة أبقاها عمر بن الخطاب بعد أدخاله تعديلات تجعله أكثر انسجاماً مع روح العدالة التي حرص على تثبيتها. غير أنه دخلت بعده كثير من الإضافات التي كانت تُرْهق الفلاحين؛ وكانت مبعث مشاكل كثيرة، وبعضها خطيرة، شوهت مبدأ العدالة، وكانت مثار استياء، ومبعث قلق.

أدرك عمر بن العزيز أهمية الخراج ووجوب حسن معاملة الفلاحين؛ فعمل على إزالة ما كان يقع عليهم من حيف، ولا سيّما الضرائب الإضافية على ما أقر عمر بن الخطاب تطبيقه؛ فوجه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن، واليه على الكوفة، كتابا ذكر فيه عدداً من هذه الضرائب التي كانت تؤخذ، وأمر بإلغائها وذكر هذا الكتابَ عددٌ من المؤلفين[1] مع اختلاف ضئيل، وفيما يلي نص الكتاب، والاختلافات في قراءته.

«من عمر عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الحميد. سلام عليك. أما بعد؛ فإن أهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله، وسُنّةٌ خبيثة استنها[2] عليهم عمال السوء.

---

(١) الأموال لابن سلام ٢٤٦، الطبري ٢، ١٢٦٦ ـ ٧، الخراج لأبي يوسف ٨٦. مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٦٠.
وقد نشرنا عن الخراج في العراق كتاباً خاصاً، ونقلنا عنه معظم ما اوردنا في هذا الفصل.

وأن أقْوَمَ الدين[1] العدل والإحسان، فلا يكون شيءٌ أهم إليك من نفسك أن توطنها لطاعة الله[2]، فإنه لا مُقيل من الإثم[3].

وأمرتك أن تطرّز عليهم أرضهم[4].

وأن لاتحمل خراباً على عامر[5]، ولا عامراً على خراب

ولا تأخذ من الخراج إلا ما يطيق[6].

ولا من عامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض

وأمرتك أن لا تأخذ من الخراج إلا وزن سبعة ليس فيها آس

ولا أجور الضرابين[7]

ولا هدية النيروز والمهرجان

ولا ثمن الصحف

ولا أجور البيوت[8]

ولا دراهم النكاح

ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض[9].

---

(١) انساب الاشراف «وستن سننها».
(٢) انساب الاشراف قوام الدين وصلاح الرعية. الطبري قوام.
(٣) الطبري.
(٤) الأنساب.
(٥) الطبري، في أبي يوسف «أنظر الارض»، أنساب الاشراف «توظف» بدل «تطرز».
(٦) الطبري «انظر الخراب فخذ منه ماطاق واصلحه حتى يعمر»؟ «واخذ من الخراب ماطاق وأصلحه حتى يعمر». أبو يوسف وبن أبي شيبه وانظر «الخراب فإن أطاق شيئاً فخذ منه ماطاق وأصلحه حتى يعمر ولاتأخذ من عامر لا يعمل شيئاً، وما أجدب من العامر من الخراج فخذه في رفق».
(٧) الطبري. أبو يوسف «آس»، البلاذري «امين».
(٨) انساب «الصرافين»، أبو يوسف يضيف «أو لإذابة الفضة».
(٩) الطبري يضيف «ولا اجور الفيوج»، أبو يوسف «لااجور الفتوح».

فاتبع في ذلك أمري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله
ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى[1] تراجعني فيه
وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة يحج بها
والسلام».

إن هذا الكتاب يعالج ما أصاب أهل سواد الكوفة، ولم يرد ذكر لكتاب مماثل وجهه عمر بن عبد العزيز إلى والي البصرة. مما قد يدل على ان نظم الخراج في البصرة وأراضيها لم تتعرض لما أصاب سواد الكوفة. ولما كان مضمون الكتاب يعالج قضايا تتعلق بأرض الخراج فإن عبارة «أهل الكوفة» قصد بها أهل الخراج من سواد الكوفة.

ذكر عمر بن عبد العزيز في كتابه «سنَّةٌ خبيثة استنها عليهم عُمَّال السوء»، ولكنه لم يسمِّ العمال الذين استنوا هذه السّنة التي ذكرها بصيغة المفرد، وهي على أي حال بدعة جديدة لم تكن في زمن الخليفة عمر بن الخطاب وقد ذكر صراحة أن هذه السّنة قد أصاب منها أهل الكوفة «بلاءٌ وشدة وجور في أحكام الله».

إن الفقرات الأربع الأولى تتعلق بإعادة النظر في معاملة الخراج على الأراضي العامرة والخراب، وكذلك عبارة «ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض».

أما دراهم النكاح التي وردت في الكتاب فلم أجد في المراجع شيئاً عنها سوى ما قاله أن دراهم النكاح، «أو النكاح يعني بغايا كان يؤخذ منهن الخراج[2]»، وليس من السهل قبول هذا التفسير خاصة وأن أحكام هذا الكتاب تتعلق بأراضي الخراج وأهلها.

---

(١) هذه آخر فقرة عند أبي يوسف، البلاذري «من أهل الذمة».
(٢) انساب «قطع».

ولم أجد أيضاً إشارة إلى أجور البيوت، ولعلها هي التي سماها أبو يوسف «النزلة» حيث قال «ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل، ولاأجر مدى ولا احتقان، ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان»[1]. وقد ذكر أبو يوسف هذه الأمور عرَضاً ولم يشرحها، وهي تحتمل أحد ثلاثة أمور:

١ ـ كلفة نزول عمال الخراج وحاشيتهم

٢ ـ أجرة خزن المنتوجات المجباة بالنوع من الخراج

٣ ـ أُجرة ضيافة أهل القرى بمن مر بهم

ثمن الصحف

أما ثمن الصحف، فيبدو أنها تكاليف السجلات المتعلقة بالخراج. ومن المعلوم أن الورق لم يدخل العراق إلا في اواسط القرن الثاني، فكانت أدوات الكتابة غالية، وقد نصح أبو يوسف ألا يؤخذ من أهل الخراج «ثمن صحف ولا قراطيس»[2].

وذكر البلاذري، نقلاً عن ابن المقفع فقال: «كانت الرسائل بحمل المال تقرأ على الملك وهي تكتب في صحف، وأمر أن لا يرفع إليه صاحب ديوان خراجه ما يرفع إلا في صُحُفٍ مُصَفَّرة بالزعفران وماء الورد، وأن لا تكتب الصحف التي تعرض عليه بحمل المال وغير ذلك إلا مُصَفَّرة، ففعل ذلك. فلما وَلِيَ صالح بن عبد الرحمن خراج العراق، تقبل منه ابن المقفع بكور دجلة، ويقال بالبهقباذ، فكتب رسالته في جِلْد، وصَفَّرها، فضحك صالح وقال: أنكرت أن يأتي بها غيره، يقول لعلمه بأمور العجم». ويروى عن المدائني قوله: «وأخبرني مشايخ من الكتّاب أن دواوين الشام إنما كانت في قراطيس، وكذلك الكتب إلى ملوك بني أمية في حمل المال وغير ذلك، فلما وُلِّيَ أمير

(١) الخراج ١٢٠.
(٢) الخراج لأبي يوسف ١٠٩.

المؤمنين المنصور، أمَرَ وزيره أبا أيوب المورياني أن يكتب الرسائل بحمل الأموال في صحف، وأن تُصَفَّر الصحف، فجرى الامر على ذلك»[1].

ويتبين من كلام البلاذري أن المقصود بالصحف الجلود التي تستعمل في الكتابة، ولا بد أنها كانت غالية، بل حتى القراطيس التي ذكرها أبو يوسف لم تكن رخيصة الثمن، وقد رَوَت الأخبار حِرْص بعض الخلفاء الأمويين على الاقتصاد في استعمال القراطيس، فأمر عمر بن عبد العزيز ألّا يكتب فيها طومار بقلم جليل ويمدن فيه، فكانت كتبه شبراً أو نحوه[2]، وطلب من أبي بكر بن حزم، واليه على الحجاز، أن يرقق قلمه ويقلل كلامه توفيراً للقراطيس[3]. وكان ثمن الطومار في زمن أبي جعفر المنصور درهماً[4]، وبلغ ثمنه في زمن المعتمد درهمين بسبب قِلّته نتيجة توتر العلاقة مع مصر[5].

الفيوج

أما الفيوج، فهم الذين يستخدمهم العمال والولاة في الاتصالات، ولعلهم الذين قصدهم أبو يوسف بقوله: «فانه قد بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل والوالي جماعة: منهم من له به حرمة، ومنهم من له إليه وسيلة، ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجِّهُهم في أعماله، يقتضي بذلك الذمامات، فليس ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه، وإنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان أو من أعمال الرعية، ثم إنهم يأخذون ذلك فيما بَلَغني بالعسف والظلم والتعدى، ثم لا يزال الوالي ومن معه اذا نزل بقرية يأخذ أهلها من نُزُله بما لا يقدرون عليه ولا يجب عليهم حتى يكلفوا ذلك، فيجحف بهم، ثم قد

---

(١) فتوح البلدان ٤٦٢ ـ ٤.
(٢) الطبقات لابن سعد ٥/٢٧٨.
(٣) ابن سعد ٥/٢٩٦، ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ٦٤.
(٤) الوزراء للجهشياري ١٣٨.
(٥) الديارات للشابشتي ١٤١، وانظر المقالات التي نشرها عبد الورق حبيب الزيات في مجلة المشرق م٤٨، سنة ١٩٥٤.

بعث رجلًا من هؤلاء الذين وصفت لك أنهم معه إلى رجال ممن له عليه خراج ليأتي فيأخذ منه الخراج فيقول له قد جعلت لك تأخذ منه كذا وكذا، فإن لم يعطه ضربه وعسفه وساق البقر والغنم ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين حتى يأخذ ذلك منهم ظلماً وعدواناً، وهذا كله ضرر على أهل الخراج ونقص للفيء على ما فيه من الإثم[1].

هدايا النوروز المهرجان

كان النوروز من أعظم الأعياد قبل الإسلام، وكان يصادف في أول الربيع[2]، وكان الناس فيه «يرشُّون الماء ويتبادلون الهدايا» [3]، «وسار في رسوم الملوك في ليلته إيقاد النيران وتأجيجها وإرسال الوحوش فيها[4]، وفيه «جرى الرسم بتهادي الناس فيما بينهم السكر»[5].

أما المهرجان فكان قديماً يوافق الشتاء، ويذكر كتاب التاج في كلامه عن الساسانيين: «ومن حق الملك هدايا المهرجان والنوروز، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد، والنوروز دخول فصل الحر، إلا أن في النيروز أحوالاً ليست في المهرجان، فمنها استقبال السنة، وافتتاح الخراج، وتَوْلِيَة العمال، والاستبدال، وضرب الدراهم والدنانير، وتذكية بيوت النيران، وصب الماء، وتقريب القربان، وإشادة البنيان وما أشبه ذلك، ثم يذكر الهدايا العينية التي تصله ويوزعها[6]، ويذكر أيضاً أنه يجري فيه القعود للعامة يوماً في المهرجان ويوماً في النوروز.

---

(١) الخراج لأبي يوسف ١٠٩.
(٢) الآثار الباقية للبيروتي ٢١٧؛ وانظر: «ايران في عهد الساسانيين» لكرستنسن، وترجمة يحيى الخشاب ص١٦١ ـ ١٦٣.
(٣) كذلك ٢١٥.
(٤) كذلك ٢٢٦.
(٥) كذلك ٢١٦.
(٦) كتاب التاج المنسوب للجاحظ ٢٢٢.

والظاهر أن الساسانيين كانوا في هذين العيدين يفرضون على الناس تقديم الهدايا، فيذكر الرشيدي قائلاً: «وكانت هدايا النيروز المحمولة إلى ملوك فارس في كل سنة من دهاقين العراق عشرة آلاف ألف، وهدايا المهرجان مائة ألف الف ثم حملت إلى الخلفاء في الإسلام»[(١)]. وهذه الهدايا هي غير خرزة الملك التي «كانت أربعة دراهم على كل رأس»[(٢)].

كانت الهدايا التي تُقَدَّم للحكام، كلها أو بعضها، هدايا نوعية، فيروى الطبري أن الاحنف ابن قيس لَمَّا فتح بلخ «وافق وهو يجبيهم المهرجان، فأهدوا إليه هدايا من آنية الذهب والفضة ودنانير ومتاع وثياب، فقال ابن عم الأحنف هذا ما صالحناكم عليه قالوا له، لا سأقبضه ولكن هذا شيء نصنعه في هذا اليوم بمن ولينا نستعطفه به، قال: وما هذا اليوم؟ قالوا المهرجان. قال: ما أدري ما هذا، وإني لأكره أن أرده، ولعله من حقي، ولكن سأقبضه وأعزله»[(٣)].

ويقول الجاحظ عن مراسيم هذه التقاليد الساسانية «لا نعلم أحداً بعدهم اقتفى آثارهم إلا عبد الله بن طاهر»[(٤)]، ولعله يقصد بذلك ان تفاصيل المراسيم التي بُطلت. أما الهدايا فيهما، فإن المصادر تذكرها في زمن الإسلام، فقد ذكرنا أعلاه أن أهالي بلخ أهدوا الأحنف بن قيس هدايا في المهرجان، وأنه قَبِلَها وعَزَلها لأنَّ في قبولها ما يناقض روح الإسلام، علماً بأنه لم يعتبرها مُلْزِمة لأهل البلاد.

يذكر الصولي أن «أول من أحدث هدايا النوروز والمهرجان الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم سعيد بن العاص بعده، وضج الناس إلى عثمان، فكتب إليه فنهاه عن ذلك»[(٥)]، ولا بد ان المقصود بذلك، إن صح، أنه جعلها

---

(١) الذخائر والتحف للرشيدي ٥.
(٢) الطبري ١/٢٠٤٩.
(٣) الطبري ١/٢٩٠٣.
(٤) التاج في اخلاق الملوك المنسوب للجاحظ ١٥٠.
(٥) ادب الكاتب للصولي ٢٢٠.

الزامية، ثم أبطل هذا الإلزام علماً بأنه لم يُحَدَّد مقداره. أما تقديمها اختيارياً، فظل قائماً، فيَرْوِي أبو نعيم الاصفهاني يقول: «كان علي بن أبي طالب استعمل... على إصبهان عمرو بن سلمة، فلما أقبل عمرو بن سلمة عرض له الخوارج فتحصن في حلوان ومعه الخراج والهدية، فلما انصرف عنه الخوارج أقبل بالهدية وخلف الخراج بحلوان. فلما قَدِمَ عمرو بن سلمة على علي عليه السلام أمره فنصبها في الرحبة. ووضع عليها أمناء حتى يقسمها بين المسلمين، فبعثت إليه أم كلثوم بنت علي: أرسِلْ إلينا من هذا العسل الذي معك، فبعث لها بزقين من عسل وزقين من سمن»[1].

ولما وَلِيَ معاوية الخلافة قَلَّد عبد الله بن دراج خراج السواد «وطالب أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان ففعلوا، فبلغ ذلك عشرة آلاف ألف درهم في سنة»[2]. ويذكر الصولي أن خراج العراق في عهد معاوية «صار إلى خمسين الف الف، وهدايا النوروز والمهرجان خمسون ألف ألف لنفسه، وكان قد اصطفى أموال كسرى فكان يقطع منها ويصل ويجيز من يشاء»[3]. ويبدو أن في كلام الصولي اضطراباً، إذ لا يعقل أن تكون هذه الهدايا معادلة لخراج العراق، والراجح أن الرقم الذي ذكره يشمل، ما كان يصل معاوية من الهدايا والصوافي وموارد الأراضي التي أحياها ابن درّاج.

ويقول الصولي «ثم أصبح الخراج في فتنة ابن الزبير ستين ألف ألف، وهدايا النيروز والمهرجان وصواف نحو عشرين ألف ألف»[4].

ويبدو أن هدايا النيروز والمهرجان استمرت حتى خلافة عمر بن عبد العزيز الذي أمر في كتابه إلى واليه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بالغائها. ويَرْوِي أبو مجلز «ان عمر بن عبد العزيز نهى أن يذهب إليه في النيروز

---

(١) اخبار اصبهان ١/ ٧٢.

(٢) الوزراء للجهشياري ٢٤، وانظر تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٩٤.

(٣) ادب الكاتب للصولي ٢١٩.

(٤) كذلك ٢٢٠.

والمهرجان»[1]، غير أن هذه الهدايا أعيدت، فيذكر اليعقوبي أن عمر بن هبيرة «أعاد السكر والهدايا وما كان يؤخذ في النيروز والمهرجان»[2] ومن بعده أخذها حيث يذكر أنه أهديت هدية ليزيد بن عمر بن هبيرة في يوم المهرجان[3]، وصارت ثابتة، غير أن الأخبار التي وردتنا عنها تذكر الهدايا النوعية التي كانت تقدم للخلفاء، أو يقدمها الخلفاء لبعض رجال الدولة والحاشية، أما مصادر جبايتها وطريقتها ومقدارها وتنظيمها وعلاقتها بأثمان الهدايا المقدمة فإن المصادر لم تذكر شيئاً عنها.

والواقع أن الهدايا النوعية التي كانت تُقَدَّم للولاة ذكرت منذ العصر الأموي حيث يذكر الطبري ما قدم إلى نصر بن سيار في سنة ١٢٦هـ من هدايا نوعية[4].

وقد استمرت هذه الهدايا في العصر العباسي[5].

النائبة والمائدة

ذكر عمر بن عبد العزيز في كتابٍ وجّهه إلى عدي بن أرطان وَالِيهِ على البصرة، ضرائب طلب الغاءها، فقد ذكر في الكتاب: «ضع عن الناس المائدة والنوبة والمكس»[6].

فأما النوبة، فلعلها هي النائبة التي ذكرت في عدة مصادر مرتبطة بالخراج فيروى الطبري ان فيروز كتب إلى الرعية «لا خراج عليهم ولاجزية ولا نائبة»[7].

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٢٧٦.
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٧٦.
(٣) عيون الاخبار لابن قتيبة ٣/٣٧.
(٤) الطبري ٢/١٨٤٦.
(٥) انظر كتابنا «الخراج في العراق» ص٢٣٤.
(٦) طبقات ابن سعد ٥/٢٨٣، وفي كتاب الأموال ٥٢٧ «ضع عن الناس الفدية... والمائدة... والمكس».
(٧) الطبري ١/٨٧٤.

وذكر أبو عبيد الله معاوية بن يسار عندما اقترح على المهدي تطبيق خراج المقاسمة وحدد نسبة المقاسمة ثم قال «ولا يلزموا بعد ذلك كلفة ولا نائبة بوجه ولا بنصيب إلا الحصاد والرقاع»[(١)].

وذكر أبو يوسف في عرضه الضرائب الواجب الغاؤها بعد تطبيق المقاسمة «ولا قسمة ولا نائبة سوى الذي وصفنا من المقاسمة»[(٢)].

إن كلمة النائبة كلمة عربية ذَكَرت لها المعاجم عدة معانٍ فقال ابن منظور إنها بمعنى النازلة وبمعنى التبادل «يتناوبون»، و«الحمى النائبة التي تأتي كل يوم» وذكر حديثاً نبوياً جاء فيه «احتاطوا لأهل الأموال في النائبة والواطئة، أي الذين ينوبونهم وينزلونهم»[(٣)].

وجاء في الحديث أنه جعل أموال بني النضير حبساً لنوائبه[(٤)]. وأن الخمس لنوائب رسول الله (ص)[(٥)].

وذكر الاصطخري في كلامه على الزموم في فارس: «قد ضمن خراج كل ناحية منها رئيس من الأكراد، وألزموا إقامة رجال لبذرقة القوافل وحفظ الطرق ونوائب السلطان اذا عرضت»[(٦)].

ان هذا المعنى اللغوي يدفعنا إلى القول بأن لطبيعة النائبة علاقة بمعناها اللغوي، وانها ضريبة استثنائية تجبى من الفلاحين لمواجهة الأزمات الطارئة التي يتعرض لها المجتمع، ولا علاقة لها بكلفة الضيافة التي كررت المصادر الفقهية كافةً شرعيتها، وان ذكر أبي يوسف لها يدل على أنها كانت قائمة في

---

(١) الخراج لأبي يوسف.
(٢) الخراج لأبي يوسف ١٠٩.
(٣) لسان العرب ٢/ ٢٧٢ _ ٣.
(٤) سنن الدارمي: الامارة ١٠.
(٥) صحيح البخاري: الخمس٦: ١٥، وابن حنبل ١/ ٧، ٤/ ٣٧.
(٦) المسالك ١١٣.

زمنه رغم اعتباره أنها غير شرعية، كما أن ذكر الأصطخري يدل على استمرارها في العهود العباسية.

ويرى لوكاجارد أن النائبة أُطلقت على الدلالة للبارزين، ولها صلة بالمعونة، ويزيد عبؤها على من تقع قراهم في طريق القوات العسكرية، ويرى أنه من المحتمل أن يكون لها علاقة بالبريد[1]. غير أن الراجح أنها كانت تُفْرض كالسخرة للأعمال العامة والقنوات، وربما لتقديم المعونة في أوقات الأزمات.

ذكرنا أن المصادر ذكرت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن ارطأة يطلب فيه أن يضع عن الناس «المائدة، والنوبة والمكس». أمّا المكس. فإنه ضريبة على المنتوجات الزراعية والصناعية التي تستخدم في التجارات، فهي وان كانت تمس المنتوجات الزراعية، إلا ان صلتها بالتجارة يدفعنا إلى ان لا ندخلها في بحثنا حالياً.

أما المائدة، فهي كلمة تتصل بالطعام، وفي الكتب ذكر للموائد والطعام الذي يطعمه الولاة الناس، غير أن هذا الطعام لا علاقة له بالريف، والأرجح انها تحريف «ماندة»، وهي كلمة فارسية معناها: البقايا[2] وقد وردت في شعر الفرزدق اذ يقول:

خراج موانيدٍ عليهم كثيرةٍ تشد لها أيديهم بالعوالق[3]

وقد ورد ذكر الموانيد في أخبار الساسانيين، فيذكر الجاحظ أن كسرى كان يهدى من عمالة من «كانت عليه موانيد للسنة الماضية جعلها حريراً صينيًّا وشريحات فضة وخيولاً ووشيماً وخواتيم عنبر»[4].

ويبدو ان أمر عمر بن عبد العزيز لم يُطبق بعده فقد أشار أبو يوسف في

---

(١) كذلك ١٧٢.
(٢) شفاء الغليل للخفاجي ٢٠٨.
(٣) المعرب للجواليقي ٢٧٣.
(٤) التاج في اخلاق الملوك ١٤٧.

كتاب «الخراج» إلى أن عدداً من الضرائب التي رآها ثقيلة على الفلاح غير جائزة، واقترح على الرشيد إلغاءها، وأن كثيراً منها ذُكر في كتاب عمر بن عبد العزيز الذي ذكرناه أعلاه، فقال:

«ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان، ولا نزلة، ولا حمولة طعام السلطان، ولا يَدَّعي عليهم بنقيصة فتؤخذ منهم، ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس، ولا أجور الفتوح (الفيوج)، ولا أجور الكيالين، ولا مؤونة لأحد عليهم في شيء من ذلك، ولا قسمة، ولا نائبة سوى الذي وصفنا من المقاسمة، ولا يؤخذوا بأثمان الاتبان، ويقاسموا الاتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلاً، أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة في المقاسمة[1].

ويذكر ابن عبد الحكم أن قرار عمر بن العزيز لم يقتصر على العراق وإنما كان عاماً فقد قال إن عمر بن عبد العزيز «كتب إلى عماله بإلغاء ما يؤخذ في النيروز والمهرجان والفيوج وأجور الرسل وأجور الجهابذة، وصرف الدنانير التي كانت تؤخذ من فضل ما بين السعرين»[2].

ومما يتصل بهذا الموضوع ويتممه نصوص وردت عن عمر بن عبد العزيز إلى ولاته في العراق تحضّهم على حسن معاملة أهل الخراج فمن ذلك تحذيره واليه على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن من استخدام القسوة في الجباية؛ وكتابه إلى عدي بن أرطأة واليه على البصرة:

«دع لأهل الخراج من أهل الفرات (مقابل البصرة شرقي دجلة) ما يتختمون به الذهب، ويلبسون الطيالسة، ويركبون البراذين وخذ الفضل».

ذكر أبو يوسف بعض الآثار العامة لِما ادخله عمر بن عبد العزيز من

(١) الخراج لأبي يوسف ١١٢.
(٢) ابن عبد الحكم ٣٧.

إصلاحات في أحوال جباية الخراج في العراق، فرده أبو يوسف أن ثابت بن ثوبان سأل عمر بن عبد العزيز: ما بال الاسعار غالية في زمانك وكانت في زمان مَنْ قبلك رخيصة؟ قال إن الذين كانوا قبلي كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدون بُدًّا أن يبيعوا ويكسر ما في ايديهم، وأنا لا أكلف أحداً فوق طاقته «علماً بأنَّ أبا يوسف يذكر أن عمر بن عبد العزيز منع أهل الذمة من الترف في اللباس».

الفصل الثامن عشر

المدينة والأمصار وتنوع أحوالهما

المدينة وأحوالها في صدر الإسلام

ولد الرسول (ص) في مكة وعاش فيها خمسين سنة، منها السنوات العشر الأخيرة بعد نزول الوحي عليه. ومكة «بلدٌ غيرُ ذِي زرع»، ولكنها (بلد آمن يأتيه رزقه من كل الثمرات)، إذ انصرف أهلها لتأمين معيشتهم إلى التجارة التي اشتغل فيها الرسول (ص)، فسافر وهو في الخامسة والعشرين إلى بلاد الشام في تجارة لخديجة أم المؤمنين، وتزوجها فأنجبت أولاده، وكان لها اثر كبير في تثبيت فؤاده في أول نزول الوحي. ولعله تابع عمله في التجارة بعد زواجه منها، وروت كتب الحديث أنه كان شريكاً لمخرمة بن سعيد في بيع البز المستورد من هجر[1].

وكان نشاط أهل مكة في التجارة قد توسع وبخاصة في زمن هاشم جد الرسول (ص) وامتدّ إلى أقاليم متعددة بما فيها بلاد الشام واليمن والعراق والحبشة، ولعله امتدّ إلى بلاد أخرى أيضاً[2]. ويتجلى مدى تغلغل التجارة في

---

(١) ابن ماجه: تجارات ٦٣، ابن حنبل ٣/ ٤٢٥.

(٢) أنظر تفاصيل أوفى كتابنا «تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية» وانظر أيضاً

P. Crovna «The Trade of Mecca»

M. Ilzahin «Merchant Capital in Islam».

Lammens «Macque à La Veille de l'hégire».

حياة أهل مكة في كثرة التعابير القرآنية المتصلة بالتجارة كالأجر والإقراض والموازين والسجلات[١].

الحياة في المدينة

ولمّا هاجر الرسول (ص) إلى المدينة اتخذها قاعدة لدولة الإسلام، ولم يخرج منها طيلة الأحد عشر عاماً الأخيرة من حياته إلا في الغزوات التي لم يستغرق أي منها أكثر من بضعة أيام ما عدا حملاته على خيبر ومكة وتبوك التي استغرقَ كل منها قرابة الشهر.

كان الرسول (ص) على اتصال مستمر مباشر بالناس في المدينة يبلغهم رسالة الإسلام، ويقدم لهم نصائح وتوجيهات تتعلق بالعقيدة والعبادات والمبادئ الأخلاقية القويمة، لإصلاح ذات الإنسان، وإقامة علاقات اجتماعية سليمة يؤدي الأخذ بها إلى إقامة مجتمع مستقر متماسك.

أهل المدينة والزراعة

وكان أهل المدينة عند الهجرة يشتغلون بالزراعة، وأكثر مزروعاتهم النخيل والشعير وبعض المخضرات، ومستواها المعاشي من حيث العموم غير عالٍ، وإنما يكفي لسد حاجاتهم، والقليل الفائض يبيعونه إلى القبائل المجاورة التي تمتاز عنها[٢].

لم تخل الزراعة في المدينة من عدد من القضايا بما في ذلك ما يتعلق بالإرواء، والعمل في الأرض، وبيع المنتوج، وملكيات الأراضي، ولا بد أن هذه القضايا وأخرى توسعت بعد الهجرة، حيث تزايد عدد من استوطن المدينة، بمن فيهم المهاجرة من قريش وقبائل الحجاز الأخرى، وكان الرسول (ص) يشترط على من أسلم الإقامة في المدينة، ولم يبطل «شرط الهجرة» إلا بعد فتح

---

(١) انظر: .Torrey: «Commercial Terms in Coran»

(٢) ينظر عن المدينة وأحوالها عند الهجرة كتابنا «الدولة في عهد الرسول (ص)».

مكة، وكان لا بد لهؤلاء المهاجرين من تأمين حاجياتهم المعاشية التي، مهما كانت بسيطة، فإنها تزيد من الطلب على المواد الغذائية والأراضي السكنية خاصة، وقد وفروا أيدي عاملة مستعدة للعمل في الزراعة وما يتصل بها، ولا بد أن إعمار هذه الأراضي قد زاد من قيمتها ورفع أسعارها.

ووفرت أراضي المغانم لبني النضير وقريظة الذين أقصاهم الرسول (ص) عن المدينة ووزع أراضيهم على المهاجرين خاصة، وتابعوا زراعتها بأنفسهم أو بمن استخدموهم[١].

مهاجرو قريش والتجارة في المدينة

تابع مهاجرو قريش استخدام خبراتهم ومهاراتهم في التجارة في المدينة، فأكملوا بذلك عمل الأنصار الذين أكثر شغلهم في الزراعة، وسدوا حاجات أهل المدينة من الحياة الاقتصادية المتنامية فيها، وذكرت أخبار عن ثروات كبيرة لبعض المهاجرين في المدينة. ولما تمت الفتوح وتوسعت الدولة، كان من رجالات قريش أكثر القادة والولاة فضلاً عن المُقَاتِلَة، وانفسح المجال لرجال قريش في توسيع نشاطهم التجاري، وذكرت المصادر امتداد نشاط بعضهم وما جنوه من ثروات، علماً بان من هؤلاء من لم يتولوا قيادات أو مناصب ادراية، فقد ترك عبد الرحمن بن عوف عند وفاته في زمن خلافة عثمان ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومائة فرس، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً، وأصابت كلٌ من نسائه الثلاث في ميراثها ثمانين الف دينار[٢].

وكانت للزبير بن العوام، عندما قُتِل في موقعة الجمل، أرض بالغابة اشتراها بسبعين ألف، فباعها ابنه عبد الله بألف ألف وستمائة ألف، وكانت له إحدى عشر داراً بالمدينة، وداران بالبصرة، ودار بالكوفة، وخطط في الفسطاط

---

(١) انظر: تاريخ المدينة، لعمر بن شبه، وانظر بحثنا «أراضي المغانم وأحكام الرسول (ص) فيها» المنشورة في مجلة «المنارة» التي تصدرها «جامعة آل البيت» في الأردن.

(٢) ابن سعد ٣ ـ ١/٦٦ ـ ٦٧، وانظر ٩٤.

والإسكندرية، وكان عليه من الدين عند وفاته ألفا ألف ومائتا ألف. وكان جميع ماله خمسة وثلاثين ألف ألف ومائتي ألف، وفي رواية أربعين ألف ألف، وما ولي امارة قط، ولا جباية ولا خراجاً ولا شيئاً إلا أن يكون غزواً[1].

وأعْتَقَ العباس بن عبد المطلب عند موته سبعين مملوكاً، ولعله كان له عدد آخر لم يعتقهم، ولم يتولَّ العباس غير سقاية الحاج، ولكن أولاده شاركوا في الفتوح في عدد من الجبهات[2].

من الواضح أن المدينة لم تكن مغلقة على نفسها، وإنما كانت متصلة بغير أهلها من مختلف الأقاليم الإسلامية، بما في ذلك من زار منهم تلك الاقاليم أو من جاء منها واستقر فيها مؤقتاً أو بصورة دائمة.

ومما ميز مكانة المدينة أن فيها الأماكن المتصلة بحياة الرسول (ص)، وأكثر المعايشين له، وكثير منها متصل بالإسلام، ومعرفتهم لها تجعلهم أقدر من غيرهم على تفهم كثير من آراء الرسول (ص) وأحكامه.

مقام الخلفاء الأولين في المدينة

وظلت المدينة بعد وفاة الرسول (ص) مقام الخلفاء الثلاثة الأولين الذين تتابعوا على رئاسة الدولة، ولم يغادرها أي منهم إلا للحج إلى مكة، ورحلة واحدة لعمر بن الخطاب إلى بيت المقدس وأطراف بلاد الشام. وكانوا إبان خلافتهم محاطين بصحابة الرسول (ص) الذين كان يشارك كثير منهم في صياغة القرارات طيلة عهد هؤلاء الخلفاء الأولين، وظلت لعدد منهم مكانة مرموقة عند الخلفاء الأمويين الأولين بعد أن انتقل مركز الخلافة إلى الشام، فكان معاوية بعد أن صفت له الخلافة يستقبل وفودهم ويستمع اليها، واقتنى في المدينة

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ١/ ٧٦ ـ ٧٧، وانظر عن دار الزبير في الفسطاط: فتوح مصر لابن عبد الحكم ١١١، وعن دار الزبير في البصرة كتابنا «خطط البصرة ومنطقتها» ١٢٥.

(٢) ابن سعد ٤ ـ ١/ ٢٠. وقد تكون في هذه الأرقام مبالغة، ولكنها في أي حال تدل على كبرها.

أراضي واسعة عمل على استثمارها[١]، مما يَسَّرَ له الاطلاع على كثير من القضايا في المدينة، ولاسيما ما يتعلق بالارض.

وكان كل من مروان بن الحكم وابنه عبد الملك قبل توليهما الخلافة ولي ادارة المدينة لعدة سنوات والاتصال بأهلها، فكانوا يسمعون من رجالها، ويتأثرون بهم في صياغة كثير من القرارات، وذكر ابن سعد أن مروان بن الحكم «كان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله ويستشيرهم ويعمل بما يجمعون له عليه[٢]، وكانت داره قرب الجامع مركز إقامة الولاة[٣].

أما عبد الملك، فكان قد وُلِد في المدينة، وجالس الفقهاء والعلماء من أهل المدينة، ويُرْوى عن نافع قوله: «لقد رأيت عبد الملك بالمدينة، وما رأيت بالمدينة شابًا أشد تشميراً وأطلب للعلم منه. وأحسبه قال: ولا أشَدَّ اجتهاداً[٤]. وروى الواقدي أن عبد الملك حفظ عن عثمان وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله (ص) وكان عابداً ناسكاً قبل الخلافة[٥]. وروى ابن سعد أن عبد الملك دعا الناس إلى إحياء الكتاب والسنة، وقد أجمعوا على تقواه[٦].

وعمل يزيد بن معاوية على متابعة سياسة أبيه في استقبال وفود من أهل المدينة وإغداق الهبات عليهم. إلا أنه لم يُفْلح في جلب تأييدهم، فثاروا عليه، وكان عماد الثورة عليه المهاجرون[٧]، فقمع الثورة بعنف عَمَّقَ حقدهم عليه، ثم انضموا إلى عبد الله بن الزبير، ولم يعودوا إلى سلطان الأمويين إلّا بالقهر،

---

(١) انظر تفاصيل أوفى كتاب هنري لامنس عن معاوية Moawia.
(٢) ابن سعد ٥/ ٣٠.
(٣) انظر بحثنا عن خطط المدينة في كتابنا «الحجاز في صدر الإسلام».
(٤) ابن سعد ٥/ ١٦٧.
(٥) ابن سعد ٢/ ١٧٤.
(٦) ابن سعد ٢/ ٢٢٥.
(٧) يتجلى هذا من قائمة قتلى الحرة الذين ذكرهم خليفة بن خياط وصنفهم تبعاً لعشائرهم (تاريخ خليفة ٢٣ ـ ٢٤٤)، وانظر «المحن» لابن أبي الدنيا ٣١.

غير أن مروان ثم عبد الملك عِمَلا بعد توليهما الخلافة على رأب الجراح وإزالة التصدع الذي حدث في العلاقات بينهما. ولما تولى الوليد الخلافة ولّى على المدينة عمر بن عبد العزيز فقضى في ولايتها سبع سنوات لم يحدث فيها خلاف أو صدام مع أهلها الذين زاد انصراف بعضهم إلى حياة اللهو[١]، وانصراف كثير منهم إلى تداول سيرة الرسول (ص) واحاديثه وسننه التي هي ميدان الفقه.

الأعاجم في المدينة والعمل بالسوق

أشارت الأخبار إلى تقاطر الأعاجم إلى المدينة منذ زمن خلافة عمر بن الخطاب. فذكر ابن شبه عن الزهري أنَّ عمر (رض) كان لا يأذن لسبي(...) من دخول المدينة حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة وهو أمير على الكوفة[٢]. وينقل عن ابن سيرين أن عمر (رض) كان يقول لا تدخلوا المدينة من السبي إلا الوصفاء، قالوا إن عمل المدينة شديد لايقوم إلا بالعلوج[٣]، ويروي ابن الأثير أن عمر حين جرح قال لابن عباس: لقد كنت أنت وابوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة[٤]، ويروى بسند عن ابن عمر أن عمر (رض) كان يكتب لأمراء الجيوش: لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً جرت عليه الموسى[٥].

لابد أن تقاطر الأعاجم حدث بعد بضع سنوات من تَوَلّي عمر الخلافة، وأنه تزامن مع ازدياد الأموال في المدينة وارتفاع المستوى المعاشي فيها، وما يرافقه من نشاط في البيع والشراء والتجارة.

كان بعض الأعاجم الذين استوطنوا في المدينة «من السبي»، أي من القوات المقاتلة التي لبعضها تدريب عسكري، ولابد أنه كان فيهم كذلك من لم يكونوا

(١) انظر: الغناء والشعر في المدينة في العصر الاموي، لشوقي ضيف.
(٢) تاريخ المدينة: لابن شبّه ٨٨٧ ـ ٨.
(٣) تاريخ المدينة لإبن شبه ٨٨٩، ٩٠٤.
(٤) النهاية في غريب الحديث لإبن الأثير ٢٤٩/٣.
(٥) تاريخ المدينة لابن شبه ٨٩٢، ٩٠٥.

متدربين عسكرياً، وهم منوعون بتعدد الأقاليم المفتوحة، ولاسيّما العراق وبلاد الشام ومصر، ولعل عدداً منهم جاء مع أسرته. إلا أن عدداً أكبر جاء مفرداً من غير أسرة، وما عدا رقيق الخمس الذي كان للدولة ويقوم ببعض الأعمال العامة التي يطلب منهم أداؤها. أما الأكثرية فكانوا رقيقاً موزعين على الأفراد، أو موالي عتاقه مرتبطين بأسيادهم الأولين، وهذا الارتباط يؤمن لهم حماية اجتماعية ولا حكومية. وقد استخدموا في القتال إبان وقعة الحرة إذ كونوا وحدة قتالية عليها ابن هرمز[١] وهو مولى، ولعلهم أسهموا في حوادث الفتن والاضطرابات كتلك التي حدثت عند مقتل عثمان، وكان كثير منهم من «الغوغاء» الذين أشارت المصادر إلى مشاركتهم في الحوادث. غير أنهم منوعون في أصولهم وخبراتهم ومدى قوة ارتباطهم بأسيادهم العرب.

اشتغل الاعاجم بأنواع من الأعمال، تمتد من الأعمال العادية إلى الصناعات والمعاملات، التي تتطلب خبرات ودربة خاصة ربما جلبوها معهم من البلاد التي جاؤوا منها. ولا بد أن كثرة عددهم وتنوع أعمالهم حمل الخليفة عمر على تعيين «عامل على السوق» في المدينة[٢]، يشر على المعاملات فيها، وينظر في بعض الخلافات التي قد تحدث بينهم. ولما كان الذين وَلّاهم عمر على السوق من العرب المسلمين، فإنهم يراعون في تصرفاتهم ما كان سارياً في المدينة منذ زمن الرسول (ص). ويدل عدم ذكر أخبار عن انحراف تصرفهم، أنهم أسبغوا على معاملات السوق السائدة منذ زمن الرسول (ص) ما سنده سنة النبي «في أعمال السوق»، وإلى حدٍّ ما في الصناعات التي تنوعت أحوالها ونظمها، وكان للتراث الأعجمي فيها.

---

(١) ابن سعد ٤٩/٣، ابن عبد الحكم ٢١٤، شرح نهج البلاغة ٤١٢/٤. مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٩.

(٢) أنظر الجدول الملحق بكتابنا «دراسات في الإدارة الإسلامية».

نظرة عرب المدينة إلى الأعاجم

نظر العرب في المدينة باستعلاء إلى الأعاجم، حتى من أسلم منهم، وتتجلى هذه النظرة الاستعلائية العربية في كتاب محمد النفس الزكية عندما أعلن الثورة علي أبي جعفر. وكان مما كتبه إلى أبي جعفر. «لم تعرق في العجم ولم تتنازعني الامهات»[(١)].

وفي مدونة مالك بن أنس فقيه أهل المدينة، ينعكس هذا الاستعلاء فهو يقول: «إذا قال للرجل من العرب يا نبطي.. يضرب الحد.. وإن قال يا ابن الحجام أو يا ابن الخياط، قال مالك إن كان من العرب ضُرب الحد.. لأنها من حرف الموالي، وإذا قال الرجل من الموالي يا فارسي وهو رومي، أو قال للبربري يا حبشي أو يا فارسي أو قال لفارسي يا رومي أو يا نبطي لا حدّ عليه»[(٢)].

ولم يحبذ أهل المدينة زواج العربيات بالموالي، ويروى أن عمر بن عبد العزيز قال: «لا يتزوج من الموالي في العرب إلا الأشِرُ البَطِر، ولا العرب من الموالي إلا الطمع الطبع»[(٣)] غير أن عدداً غير قليلاً من العرب تزوج باعجميات.

سرت هذه النظرة إلى بعض الفقهاء والعرب ومنهم الزهري، وقد فوتح بذلك وقيل له: «زعموا أنك لا تحدث عن الموالي فقال إني لا أحدث عنهم ولكن إذا وجدت أبناء المهاجرين فاتكئ عليهم فما اصنع بغيرهم[(٤)]. وكان عطاء الموالي وفرائضهم أقل مما للعرب[(٥)].

---

(١) الطبري ٣/ ٢١٠.

(٢) مدونة مالك ٤/ ٣٩٤ ـ ٥، وانظر: «الموالي في العصر الاموي» لمحمد الطيب النجار، وكتابنا «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة» فصل «الأعاجم»، وفيهما إشارات إلى الكتب التي ذكرت نظرة العرب الاستعلائية على الأعاجم.

(٣) أنساب الأشراف ١٥٧، والمخطوطة استامبول، لسان العرب، ١/ ١٠٧ ـ ٨.

(٤) ابن سعد٢ ـ ٢/ ٣٥٣، المعرفة والتاريخ للنسوي ١/ ٦٣٧، ٦٧.

(٥) انظر كتابنا «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة».

إسهام الموالي في دراسة الفقه

غير أن هذا لم يمنع من اشتغال الموالي في العلم، ولاسيّما الفقه الذي برز فيه عدد منهم في المدينة والأمصار الاخرى، فيذكر الزبير بن بكار: «لما مات العبادله (عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص)، صار الفقه في البلدان كلها إلى الموالي، ثم عدَّد مَنْ بَرَزَ منهم في مكة واليمن والكوفة والمدينة والشام وخراسان والبصرة[1]، ولعل كثرة اشتغال الموالي في السوق كان من العوامل المهمة في أن اهتمامهم بدراسة الفقه أكبر من اهتمام العرب، وأن قضايا تفوُّقهم على العرب في دراسة الفقه التي تحوز قضايا الأعمال تحوزُ القسط الأكبر من اهتمامهم.

ويروي الأصمعي: «دخل عبد الملك بن مروان المسجد الحرام فرأى حلق العلم فاعجب بها واشار إلى حلقة فقال لمن هذه الحلقة، ثم عدد أصحاب الحلقات» وكل هؤلاء من الفرس الذين باليمن، فرجع إلى منزله وبعث إلى أحياء قريش فجمعهم وقال: يا معشر قريش كنا فيما قد علمتم، فمن الله علينا بمحمد وبهذا الدين فحقرتموه حتى غلبكم عليه أبناء فارس[2].

الأمصار وأحوال الحياة فيها

لما حقق العرب انتصاراتهم الأولى وضموا إلى دولتهم العراق وبلاد الشام ومصر، أمر الخليفة عمر بن الخطاب إقامة مراكز للمقاتِلَة العرب: الكوفة والبصرة في العراق، والفسطاط بمصر. أما بلاد الشام، فإن الضرورات العسكرية قضت بتوزيعهم في عدة مراكز مأهولة من قبل، ولا سيّما دمشق وحمص وبعض المدن الساحلية، ويبدو أن الجابية كانت مركزاً رئيساً ثم فقدت أهميتها بعد زمن قصير.

---

(١) الموفقيات، للزبير بن بكار. معجم البلدان لياقوت ١٢.

(٢) المحدث الفاضل لرامهزي ٢٤٢ ـ ٢٤٣، وانظر «معرفة علوم الحديث» للحاكم النيسابوري، وهو يذكر ان عبد الملك سأل الزهري عن الحلقات.

كان ولاة هذه الأمصار مسؤولين عن إدارة الأقاليم التابعة لكل منها، وكانوا قادة جيوشها، وجُلُّ الأولين منهم من الصحابة من مسلمي قريش ومن أهل الحجاز. أما سكانهم فهم المقاتلة العرب الذين انضموا من مختلف أرجاء الجزيرة إلى الجيوش العربية ثم استقروا في الأمصار وضعفت صلاتهم بِمَوَاطِنِهم الأصلية في الجزيرة وأهلها، وأكثر هؤلاء المقاتلة ممن أسلم بعد فتح مكة، ولم يعايشوا الرسول (ص) ومنهم عدد غير قليل ممن كانوا قد ارتدوا وانشقُّوا على خلافة أبي بكر ثم أعيدوا بالقوة إلى حظيرة الإسلام ودولته، ثم انضموا طوعاً إلى الجيوش الإسلامية، وقاتلوا بثبات وحماس لتوسيع الدولة وتدعيمها ورفع راية الإسلام[1]، وعمل عمر بن الخطاب على تعميق دعائم الإسلام فيهم، فشجَّع قراءة القرآن، وأرسل معلمين من الصحابة يفقهونهم في الدين، والواقع أنهم أخلصوا في تدعيم الدولة، وتزايد فيهم عدد المعنيين بدراسة عدد من علوم القرآن. غير أن كثيراً منهم احتفظ بتقاليده وأساليب حياته القديمة مما لا يتناقض مع مبادئ الإسلام الأساسية، وتابع اهتماماته القديمة بذكر مفاخر أجداده. وفي هذا يقول الجاحظ: «والناس بمآثر العرب في الجاهلية اشد... ولو أنَّ جميع مآثر الجاهلية وزنت به بمآثر الإسلام، وبما كان في الجماعات اليسيرة من رجالات قريش في الإسلام لأربت هذه عليها أو لكانت مثلها»[2].

وتجدر الإشارة إلى أن قضاة الأمصار، ما عدا قضاة المدينة ومكة، لم يكونوا من الصحابة الذين عايشوا الرسول (ص) مدة طويلة، فكان أول قاضٍ في البصرة، عمرو بن مرحوم، وهو ممن قاتل المسلمين مع مسيلمة في اليمامة وقتل فيها زيد بن الخطاب أخو الخليفة عمر، وكان أكثر قضاة الأمصار من أهل اليمن، ولا سيّما كِنْدَة والعشائر المتصلة بها، ولا بد أن اختيارهم تمّ بناءاً على تقدير الولاة، وهم الذين يختارون القضاة آنذاك[3]، لمواهبهم وخبراتهم،

---

(١) انظر كتابنا: «امتداد العرب في صدر الإسلام».
(٢) «الحيوان للجاحظ» ٢/١٠٨.
(٣) ابن سعد ٥/١٢٧، نسب قريش لمصعب الزبيري ٢٥٤، أخبار القضاة لوكيع ١/١٤١، ١٥٤.

ولم تذكر المصادر نقداً أو احتجاجاً على الأحكام التي أصدرها أي منهم، ويتضح مما أورده وكيع في كتابه «أخبار القضاة»، وهو أوسع ما وَصَلَنا من أخبار القضاة وأحكامهم، أن أكثر نظر القضاة كان في قضايا الأحوال الشخصية من زواج وميراث، وأحياناً بعض العقود المالية، وهي تجري على وفق المبادئ التي نص القرآن الكريم على بعضها، وبعضها الأساسي كان معمولاً به في زمن الرسول (ص)، غير أن تفاصيله وجزئياته تتطلب إعمال القاضي فطنته، ولعله يتأثر بمعرفته السابقة التي كثير منها موروثٌ من التقاليد التي كانت قائمة في اليمن.

نمو الحركة الفكرية في الأمصار وتنوع توجهاتها

كانت الأمصار في صدر الإسلام مركز النشاط الفكري العربي الذي له سمات عامة مشتركة، وبجانبها اهتمامات خاصة لجانب أو أكثر من هذا النشاط؛ وقد أشار الجاحظ كما أسلفنا إلى شدة كلفهم بمآثر العرب، ولا ريب في أن كلامه أكثر انطباقاً على مِصْرَي العراق: الكوفة والبصرة، وليس من المستبعد أن يكون في الأمصار العربية الأخرى.

اهتم عمر بن الخطاب بتعميق التوجهات الإسلامية، فشجع على قراءة القرآن وتدراسه، وهو المعين الأساسي للإسلام، فأرسل «معلمين» من الصحابة يُعَلِّمون أهل الأمصار القرآن ويُفَقِّهونهم في الدين.

غير أن تطور الأحوال قاد إلى أن يتخذ أهل كل مصر في الفكر وجهات تختلف في عمومياتها وكثير من تفاصيلها عن توجهاته في الأمصار الأخرى، وقد تتفرد في اهتمامات خاصة، فأهل الفسطاط كانوا يُعْنَوْنَ بالملاحم إبَّان القرن الأول إلى أن ظهر فيهم يزيد بن حبيب (ت١٢٨) فكان «أول من أظهر العلم بالحلال والحرام ومسائل (الفقه) وكانوا قبل ذلك يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن»[1]. أما بلاد الشام، فلم تخلُ من نشاط فكري برز في الفرق

---

(١) تذكرة الحفاظ الذهبي١/ ٢٩١، سير اعلام النبلاء ٦/ ١٢، حسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٢٤٦.

التي ظهرت فيها، فضلاً عن اهتمام عام بالعلوم الدينية، ولا سيّما قراءة القرآن الكريم وتفسيره، وعلم الكلام[1].

البصرة

أما البصرة، فقد عُنِيَ أهلها، أوائل السنين بقراءة القرآن، وقام «قراء أهل البصرة بدور في الأحداث السياسية ولا سيّما في زمن خلافة علي، ثم توجهوا إلى الزهد والاعتزال»[2] وما يتصل بذلك من علم الكلام، واهتموا كذلك بجمع مفردات اللغة العربية ونحوها، ويقول أبو الطيب الحلبي: «لم يكن لجميع أهل الكوفة علم بالقرآن ولا كلام العرب إلا الكسائي»[3].

المدينة

أما المدينة فقد عُنِيَ علماؤها بدراسة سيرة الرسول (ص) وأحاديثه التي تشمل أقواله وأفعاله، وتُوِّجت ثمار علمهم في السيرة مع ابن اسحاق في كتابه «سيرة النبي (ص)»، الذي نقل فيه كثيراً من علم أهل المدينة ولم ينقل من علماء غيرها من الأمصار[4]. ومع كثرة شعراء المدينة والحجاز وكثرة «المفسرين» وشراح القرآن، إلا أنها لم تُعْنَ بدراسة اللغة العربية. وفي هذا يقول أبو الطيب الحلبي: «فأما مدينة الرسول (ص) فلا يُعْلم بها إمام في

(١) انظر في ذلك بحثاً شاملاً للحركة الفكرية في بلاد الشام والجزيرة إبّان القرون الثلاثة الأولى يتضمّنه كتاب «التربية والثقافة العربية الأسلامية في الشام والجزيرة» لملكة أبيض، علماً بانها لم تُظهر بوضوح ماتميزت به هذه البلاد إبّان القرن الأول. وانظر كذلك «الحياة العلمية في الشام» لخليل داود الزناد. وانظر تفاصيل أوفى عن أختصاصات الامصار في جوانب الحركة الفكرية، وذلك في كتابنا «تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام».

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢/ ٩٤.

(٣) مراتب النحويين لأبي الطيب للحلبي ٧٤.

(٤) انظر: مغازي الرسول (ص) ورواتها، ليوسف هوروفتز، ترجمة حسين نصار وسيلاحظ انه كافة رواة ابن اسحاق هو من أهل المدينة.

العربية، قال الاصمعي: أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة[1].

واهتم أهل المدينة بدراسة ما يتعلق بِنُظُم الأحوال الشخصية والعلاقات الاجتماعية وقضايا المعاملات المالية، وهي التي تُكَوِّن جوهر وهيكل ما نسميه «الفقه» و«السُنَّة». غير أن كثيراً من آرائهم وأحكامهم كانت متباينة ومتعارضة[2]، علماً بأنه كان في كل منهما تيارات فرعية متعددة، وشاركهم في هذا الاهتمام أهل الكوفة.

الكوفة

أما الكوفة، فقد اهتم أهلها بقراءة القرآن الذي شَجَّع عليها عمر بن الخطاب، وكان لعبد الله بن مسعود في ذلك دور كبير، وهو أبرز العارفين بالقرآن، وله في ذلك آراء خاصة في ترتيب سور القرآن، وفي ضبط مفرداته، وفيها ما يخالف ترتيب مصحف عثمان وقراءته[3]. وكَوَّنَ القرّاء رابطة كان لها دور متميز في زمن الخليفة علي وفي معركة صفين، ثم صاروا عماد الخوارج الذين انشقوا عن علي وقاتلوه، وبرز دورهم في ثورة ابن الاشعث فانضمّوا إليها، ثم ضعف دورهم واختفت أخبارهم بعد أن قَضَى الحجَّاج على تلك الثورة.

وعُنِيَ أهل الكوفة بالشعر وروايته، لا سيّما إبَّان النصف الثاني من القرن الاول[4]. واهتم أهل الكوفة ببحث الأمور السياسية والإدارية، كما تجلت في

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب الحلبي ٩٨ ـ ٩٩.

(٢) Origins of Mohammedan Jurisprudence

(٣) لم تتم دراسة وافية عن مصحف ابن مسعود؛ ويذكر ابن أبي الحديد ان الحجاج اجبر الناس على عدم قراءة ابن مسعود فنسيت «شرح نهج البلاغة ٣/ ٣٥٩» ويذكر ابن النديم عن ابن اسحق: «رأيت عدة مصاحف ذكر نساخها أنها مصحف ابن مسعود ليست فيها مصحفان متفقان وأكثرها في رقٍ كثير النسخ» الفهرست ٢٩.

(٤) انظر: «الشعر في الكوفة» ليوسف خليف.

احتجاجاتهم على ولاتهم وكثرة الفتن والثورات التي شاركوا فيها. وانعكس ذلك في كثرة الفرق السياسية والكلامية والعقائدية التي ظهرت فيها كما أشرنا سابقاً.

ولما شُيِّدت بغداد، غَلَبَ أهل الكوفة عليها، وحدثوا الملوك فَقَدَّموهم[1].

إرث الكوفة لثقافات المناذرة والساسانيين وكندة

تميزت الكوفة بأنها أُسِّست بالقرب من مركزين كان لكل منهما أهمية قبيل الفتح الإسلامي، وهما الحيرة والمدائن. أمَّا الحيرة، فكانت مركز دولة المناذرة العربية التي امتد حكمها على منطقة غربي اواسط الفرات، وامتد سلطانها غرباً إلى أواسط الجزيرة التي كانت تَدِين بالولاء للمناذرة؛ وكان سكان الحيرة «العباد» مكونين من عدة عشائر عربية، ففيها من مذحج، وحِمْيَر، وطي، وكلب، وفيهم من خُزاعة والنمر، والأزد، وكنانة[2].

ولما انتشرت المسيحية، كان رجال دينها يستعملون السريانية التي اقتصرت على الكنائس والأديرة التي كانت مُنْبَثَّةً في أرجائها[3]، ومن آثار اهتمامهم بالعربية أن أمراء المناذرة كانوا يستقبلون الشعراء العرب، ومنهم عدد من البارزين ومن أصحاب المعلقات، واحتفظوا في بلاطهم بمجموعات من هذه الاشعار اكتشفت في زمن ولاية مصعب بن الزبير على العراق، وكان لها اثر في اهتمام أهل الكوفة بالشعر واللغة[4].

ولا بد أن استقرار أهل الحيرة مدة طويلة، رافقته نُظُمٌ تؤمِّن حياةً حضرية مستقرة، وثيقة الصلة بنظم أهل الجزيرة العربية، ولاسيّما نجد وأطرافها الشرقية، ولا بد أن موقع الحيرة الملاصق للكوفة، زاد من آثارها على الكوفة،

---

(١) مراتب النحويين للحلبي ٩٠.

(٢) معجم البلدان لياقوت ٢/١٧٨، وانظر: المناقب المزيدية ١/١٠٤ ـ ٨، وانظر ما كتبنا عن الكوفة في كتابنا «معالم العراق العمرانية» و«تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية».

(٣) أنظر تفاصيل أوفى كتاب Fay,Babylonia Chrétien.

(٤) لسان العرب، مادة (طنج).

وربما أسهم في زيادة ما يعرض من القضايا وتعليلاتها، غير أن المصادر لم تقدم عنها معلومات شافية.

أما المدائن فكانت مركز الامبراطوريات الثلاث المتتابعة: الأخمينية، والفرثية والساسانية التي قضى عليها العرب وضموا بلادها إلى دولتهم، وكانت قد ثبتت نظاماً إدارياً دقيقاً ولا سيّما جباية الخراج، وسكّ النقود مما أبقاه العرب عموماً مع تعديلات فرعية اقتضاها تطور الأحوال. فأبقوا ديوان الخراج بمن يعمل فيه يتابعون أعمالهم على وفق الأساليب التي أَلِفُوها، وباللغة الفارسية التي ظلت حتى في زمن خلافة عبد الملك بن مروان حين عُرِّبت الدواوين والعملة، وظل الكتّاب في أعمالهم التي صاروا يُؤدُّونها بالعربية[1].

لم يعتنق أهل العراق «الزرادشتية» وهو الدين الرسمي للدولة الساسانية، وهو معقد الأفكار والنظم البعيدة عن معتقدات العرب قبل الإسلام وبعده، و اعتنق أكثر عرب العراق النصرانية القريبة[2] في كثير من أفكارها والنُظُم التي تتبناها من الإسلام، وأكثرهم فلاحون تعوّدوا طاعة حكام الدولة، فلم تحدث بينهم وبين الحكام الجدد من العرب المسلمين مواجهات عميقة، إلا أن الدين الإسلامي السمح لم يَتَحَدَّ نُظُمهم وآراءهم، وقد هاجرت أعداد منهم إلى الأمصار العربية الجديدة، وأسلم عدد منهم وأسهموا في الحركة الفكرية، وبرز عدد منهم في الفقه وعلوم الحديث والقرآن.

ومن الآثار الموجهة في الكوفة كِنْدَة التي، بعد أن زالت دولتها الكبيرة التي هيمنت على معظم جزيرة العرب، استقر رجالها في الأطراف الجنوبية الشرقية من اليمن، وكان عليهم عند وفاة الرسول (ص) أربعة ملوك ارتدّوا ثم أُعيدوا إلى حظيرة الإسلام، ونزح عدد كثير منهم إلى الكوفة منذ أول تأسيسها، وكان لهم أكثر من عشرة مساجد[3]، وعَمِلَ رجال منهم أو من العشائر المتصلة بهم

---

(١) انظر الفصل الذي كتبناه عن جباة الخراج في كتابنا «الخراج في العراق».

(٢) أنظر: Morony:Iraq After Muslim Conquest.

(٣) الانساب لابن الكلبي.

في القضاء في الكوفة طيلة القرن الأوّل، ولا بد أنهم نقلوا كثيراً من خبراتهم في مواطنهم التي جاؤوا منها حيث كان لهم «ملوك» أي نظام سياسي مستقر ذو مستوى أعلى من مشيخات العشائر، ولعله كان لهم أثر في توجيه جوانب اخرى من النظم.

سِمَات عامة لأهل الكوفة وتوجُّهاتهم الثقافية[1]

اتسم أهل الكوفة منذ أوائل تأسيسها بالقلق السياسي وعدم الاستقرار على طاعة الولاة، وبدأ ذلك منذ زمن الخليفة عمر الذي لجأ إلى تبديل ستة من وُلاتها في مدة أقل من ثلاث سنوات لإرضائهم دون جدوى، ثم بدت واضحة في الاحتجاجات العنيفة على ولاة عثمان، ثم في زمن خلافة علي، ولعل من مظاهر ذلك أن الفرق الإسلامية التي يدعي مؤلفو كتب الفرق انها ثلاث وسبعون، ظهر أكثرها في الكوفة ومنطقتها، ومرجع هذا ليس إلى تنوع أصول أهلها العرب من العراق وشمالي الجزيرة واليمن فحسب، وإنما أيضاً لأن العراق بوصفه مركز الدول الكبرى قبل الإسلام، كانت تصله قضايا الأقاليم فيناقشها ويصدر الأوامر بها فهو متعود على المناقشة والأمر، وهذا يرافقه تنوع القضايا وتعدد الأفكار وتقدير للرأي، ولعل هذا من أقوى العوامل في اشتهار أهل العراق «بالرأي» والاعتداد به.

جاء أغلب أهل الكوفة من أرجاء في الجزيرة لم تكن لأهلها صلات وثيقة بالحجاز عامة، وبالمدينة ومكة خاصة، ولعل هذا من بعض عوامل احتجاجات أهل الكوفة على ولاتهم الذين كانوا جميعاً من أهل الحجاز، ولم يؤثر اتخاذ الخليفة علي بن أبي طالب الكوفة مركزاً له في تضييق شقة الخلاف بين أهل الكوفة وأهل الحجاز إذ أن أثره في ذلك لم يكن عميقاً. فقد انشَقَّ عليه فريق من أهل الكوفة، وكَوَّنَ بعض المنشقين الخوارج الذين حملوا عليه السلاح،

---

(١) انظر «الشعر في الكوفة» ليوسف خليفة، «الكوفة» لهشام جعيط، وقد أكملت دراسة ارجو نشرها عن التركيب القبلي لأهل الكوفة وتنظيماتهم.

فأضعفوا هيمنته على الكوفة، ثم اغتاله رجل منهم، وعادت الكوفة تابعة للخلافة الأموية في الشام، وبذل معاوية جهداً لإخماد التوتر ولمّ الشمل يعاونه والياه الحجازيان المغيرة بن شعبة ثم زياد، ونجح في تهدئة الأحوال، دون أن يقضي على التيارات السياسية والفكرية التي ظلت فاعلة بمقادير متباينة، ومن حيث العموم عرفت الكوفة بميولها العلوية، دون التحمس في ذلك بدليل موقفهم السلبي من مجيء الحسين، ومشاركة مقاتلتها في الجيش الذي أرسله عبيد الله بن زياد لصده، ثم أوقع فيه الفاجعة المعروفة.

حَظِيَت القضايا التي تدخل في ميدان ما نسميه الفقه باهتمام أهل الكوفة، ومع أن عدداً منهم كان يزور المدينة ويسمع من علمائها، إلا أن معرفتهم بأحوال المدينة وأعمال الرسول (ص) وما يتصل من ذلك بها كانت أقل نسبيًا.

الفصل التاسع عشر

الحديث والسّنة والفقه:
مكانتها ودراستها

للرسول (ص) مكانة متفردة في الإسلام بحكم شمائله ونزول الوحي عليه من الله في القرآن الكريم ليبين تعاليم الإسلام وتوجهاته؛ وطاعة الرسول (ص) واتّباع توجيهاته واجبة في القرآن الكريم، اذ نصت عليه عدة آيات ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [آل عمران/ ١٣٢، النساء/ ٥٩، النور/ ٥٤، التغابن/ ١٢]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب/ ٢١] ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر/ ٧].

لا ريب في أن الآيات التي تأمر بطاعة الرسول (ص) المقصود منها طاعة في الأمور السياسية والادارية، ولها أهمية بالغة في تثبيت السلطة العليا المركزية الساسية في بناء الدولة، أما الأسوة الحسنة فهي تصرفاته الشخصية، ومسلكه في الحياة، وأما الأخذ بما آتاه الرسول (ص)، فهي تمتد إلى الأوامر التنظيمية للمجتمع.

ذكرنا في عرضنا لأحوال المدينة أن الرسول (ص) شهد، إبَّان إقامته فيها، في الإحْدَى عَشْرَةَ سنة الأخيرة من حياته أحوالاً في الأمور الاجتماعية والزراعية والتجارية غير بسيطة، مع أهداف الإسلام في تثبيت مجتمع متماسك سليم، ثم توسعت الأحوال وتطورت مع توسع الفتوح، وبخاصة منذ زمن خلافة عمر بن الخطاب، وكانت بمشهد من الصحابة، الذين عايشوا

الرسول (ص) وتشبعوا بتوجيهاته؛ فأقروها. وباستقرار هذه الأحوال بمشهد ورضى من الصحابة أصبحت تعتبر النظام الإسلامي المثالي الواجب الاتباع، ونشأ من لا يعايش هذا النظام فحسب، وإنما يتحدث عنه ويرويه، وهي تشمل أحاديث الرسول (ص) وأعماله وما أقره أو ولم ينكره، وأدخل في ذلك ما شاهده الصحابة من أحوال وتطورات، وبذلك انتقلت من واقع الحياة إلى الفكر.

وردت فيما يتصل بالرسول (ص) عدة تعابير، من أشهرها السيرة، والحديث والخبر، والأثر، والسُنَّة.

فأما السيرة فاستقرت على بحث الحوادث التي شارك فيها الرسول (ص)، فهي ألصق بالتاريخ، وإن كانت تعالج عدداً من القضايا التنظيمية، ولا سيّما ما يتعلق بالأموال والإدارة.

أما الحديث، فهو، في اللغة، الخبر الذي يتحدث عنه، وجاء في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر/ ٢٣]، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور/ ٣٤]، وخصه المسلمون بكلام الرسول (ص).

والخبر مرادف للحديث تقريباً، وكل حديث خبر. غير أن الخبر يمتد إلى أبعد من الحديث، فيشمل الكلام والعمل، وبه سُمِّيَ كل قول أو فعل أو تقرير نسب إلى الرسول (ص)، ثم استعمله المؤرخون لكلام الرسول (ص) وغيره، وبهذا سُمُّوا «الإخباريين»[1].

السنة

أما السنة، فهي الطريقة والأساليب التي ألف الناس السير عليها، وقد ورد ذكرها في عدد من الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ [الأنفال، الحجر/ ١٣]. وأشارت آياتٌ إلى تَعَدُّدها في الناس ﴿قَدْ خَلَتْ مِن

---

(١) انظر: علوم الحديث ومصطلحه، لصبحي الصالح ١٠ ـ ١١، الكليات، لأبي البقاء ١٥٢.

قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ [آل عمران/ ١٣٧]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [النساء/ ٢٦]، والسنة الصحيحة في العقيدة هي سنة الله، وهي ثابتة لا تتبدل [الأحزاب/ ٦٢، فاطر/ ٤٣]. ومن حيث العموم كان تعبير «السنة» يطلق على أعمال الرسول (ص)، ثم امتد إلى الممارسات التي سار عليها الناس وطبقها الخلفاء، مما لا يتنافى مع أحكام القرآن الكريم، والمبادئ الاساسية التي أكدها الرسول (ص).

ولما توسعت الدولة الإسلامية وتطورت المجتمعات التي تَضُمُّها، ظهرت فيها سُنَنٌ متعددة، فأشار ابن حنبل إلى «سنّة عمر»[١]، وأشار أبو داود إلى سنّة «أهل البصرة»[٢]، وذكر ابن حنبل «سنّة الله ورسوله أحق أن تتبع من سنة ابن فلان»[٣]، وأشار ابن المقفع في رسالة الصحابة التي كتبها إلى الخليفة أبي جعفر المنصور إلى تعدد السنن، ومحاولات نسبتها إلى الرسول (ص) مع أنها متأخرة عن زمنه[٤]. وامتد التعبير إلى إقرار بعض السنن الأعجمية، فقد قال القاضي شريح الفقيه الكوفي المشهور للغزالين: «إذا كانت بينكم سنّة أعجمية فسنتكم بينكم»[٥]. وذكر البلاذري قال: «قال أبو يوسف :إذا كانت في البلاد سنّة أعجمية قديمة لم يغيرها الإسلام ولم يبطلها، فشكاها قوم إلى الإمام لِمَا ينالهم من مضرتها، فليس له أن يغيرها، وقال مالك والشافعي يغيرها، وان قدمت، لأن عليه نفي كل سنّة جائرة سنّها أحد من المسلمين فضلاً عَمَّا سنه أهل الكفر»[٦].

---

(١) مسند ابن جنبل ٥/ ٦٥.
(٢) سنن أبي داود: المناسك ١٤.
(٣) مسند ابن حنبل ٢/ ٤٥٦، ٤٥٧.
(٤) رسالة الصحابة ١٢٥.
(٥) البخاري: بيوع ١٥، ابن سعد ٦/ ٩٤، وكيع: أخبار القضاة. ٢/ ٣٥١، ٣٧٢.
(٦) فتوح البلدان ٤٤٧.

الحديث والسنن

بين الحديث والسنن صلات وثيقة من حيث أن كليهما يبحث في حياة الرسول (ص) وأعماله. غير أنّه بتطور الحركة الفكرية ونموها حدث بينهما تمايز في مادة البحث وطرقه، فوقف المعنيون بالحديث على ضبط حرفية أقوال الرسول (ص)، وقادهم ذلك إلى التركيز على رواته، وأوغلوا في ذلك ووصلوا فيه إلى أعلى مستويات البحث العلمي، وصرفوا في ذلك جهوداً مضنية من أجل البحث عن الحقيقة وضبط النصوص، وليس لأغراض نفعية مادية[1]. وبهذا الاختصاص كانوا يُسَمُّون «أهل الحديث» تمييزاً لهم من المعنيين بالعلوم الأخرى.

المدينة والسنة

كانت المدينة مركز إقامة الرسول (ص) بعد الهجرة وتأسيس الدولة، وهي مقام الصحابة من المسلمين حتى فتح مكة حيث كان الرسول (ص) يشترط على من يسلم الهجرة إليها والاستقرار فيها. وقد أوقف هذا الشرط بعد فتح مكة وتوسع انتشار الإسلام في شبه جزيرة العرب واعتناق أهل الجزيرة؛ واحتفظ أهل المدينة بمكانتهم المتميزة في الدولة بعد هذا التوسع، اذ ظلوا دون غيرهم على اتصال مباشر دائم به لأنّه ظل مقيماً فيها ولم يغادرها إلى أي مكان آخر حتى وفاته، وقد يسر لهم هذا الاتصال المباشر بالرسول (ص) معرفة أوسع بحياته وأعماله وتوجيهاته وقبولاً لها.

ظلت المدينة بعد وفاته مقام الخلفاء الثلاثة الأولين، ومركز توجيه الدولة وادارتها. ومع أن عدداً من الصحابة شارك في الفتوح واستقر مقامه في الأمصار، إلا أن أكثرهم ظل يقيم في المدينة ويشارك في صياغة القرارات في الإدارة طيلة عهد اولئك الخلفاء، وظلت لرجالهم مكانة مرموقة في عهد عدد

---

(١) أنظر في الدفاع عنهم بوجه تهجمات أصحاب المذاهب، «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة ٣، ٤ ـ ١١/٥.

من الخلفاء الأمويين الأولين، فكان معاوية يستقبل وفودهم ويسمع آراءهم. أما مروان بن الحكم فقد ظل قبل توليه الخلافة سنوات والياً على المدينة يمارس الإدارة ويتصل بأهلها ويسمع من رجالها ويتأثر بهم في صياغة القرارات الإدارية.

أما السنن فَتُعنَى بدارسة القضايا والأحكام، ولا سيّما ما يتصل منها بالحياة الاجتماعية والاقتصادية، وأحياناً الإدارية، ومع أنها تولي آيات القرآن الكريم وأحكامه المقام الاول، وتحرص، في كثير من الأحيان، على مراعاة أحاديث الرسول (ص) وأحكامه، إلا أنها تُعْنَى، بالدرجة الأولى، بالممارسات والأفكار والآراء وتعليلاتها، دون الوقوف على المتن أو سند الحديث.

أشارت المصادر إلى التمايز بين الحديث والفقه، فكان سفيان الثوري إماماً في الحديث، والأوزاعي إماماً في السُّنَّة وليس إماماً في الحديث[1].

وذكرت المصادر عدداً من بين أئمة الحديث والسنة، فكان مالك بن أنس إماماً فيهما. ويذكر مالك أن بالمدينة فقيهاً محدِّثاً غير واحد هو بن شهاب الزهري[2] وخص ابن النديم الفن الخامس من المقالة السادسة من كتابه «الفهرست» بأخبار العلماء، ويحتوي على الفقهاء وأصحاب الحديث. وممن ذكرهم من الفقهاء والمحدِّثين ابن أبي ذئب (ت١٥٩) وابن أبي الزناد (ت١٧٤)، وذكر في هذا الفن عدداً كبيراً ألَّفَ كلٌّ منهم كتاباً في السنن والفقه.

وذكر أن المروزي له «كتاب السنن بشواهد الحديث»، وأن مسلم «من المحدثين العلماء بالحديث والفقه»، وسريج بن يونس «من جِلَّة المُحدِّثين وثقاتهم والفقهاء والقراء» وميز من اقتصرت عنايته على الحديث[3].

(١) شرح الزرقاني موطأ ١/ ٤.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ٢/ ١٣٥، الطبقة الرابعة ١٦٦.
(٣) الفهرست لابن النديم ٢٨٧، وانظر في مؤلفي «السنن» الأولين كتابنا «دراسات في نشأة الحركة الفكرية في الإسلام».

الفقه والفقهاء

يُطْلق على المعنيين بدراسة السنن لقب «الفقهاء»، ويتميز الفقه بأن المادة التي يبحثها تستند في أساسها إلى واقع مادي ملموس يتطلب فهماً سليماً لمعاني تعابيره ومدلولاتها، وإدراكاً لآثار تطبيقها في الحياة، فهو يقوم على فهم المحسوس وعلى استعمال العقل في تطبيقه، وهي خصائص يختلف مدى توافُرها فيهم أو اهتمامهم بها.

ومادة الفقه تمس حياة عموم الناس بصرف النظر عن تباين مكانة فئات منه في الحياة الاجتماعية أو السياسية أو الفكرية، فمادته ألصق بالسواد الأعظم والعامة منه بحياة «الخاصة والنخبة».

يبحث الفقه في قضايا متعددة ومنوعة، بعضها حالات متفردة محدودة، وبعضها تَعُمُّ الكثيرين، إلا أن رأي الفقيه وقراره قد يكوِّن سابقة يحتذيها من بعده فترتفع إلى مستوى العموميات، وبذلك تكون مادة الفقه مجموع حالات مقبولة، وليست مواد قانون منظم.

إن الأحكام والقرارات الصادرة عن الفقهاء تتطلب الفهم والإدراك، وليس مجرد استعادة مخزون الذاكرة، ومن هذا سمي «الفقيه» أي المدرك. ولم يسم «العالم» أو «القانوني» وسمي علمه «الفقه». ومكانة الفقيه يقررها مدى علمه وفهمه، والتقدير الذي يَحْظى به من الناس، ولم تكن لتحديدهم ضوابط، كالشهادات الدراسية عندنا. ولا من رعاية وإسناد ذوي المكانة والمناصب والحكام، وقليل من الفقهاء شَغَلَ أعمالًا رسمية كالقضاء، وهو ألصق الأعمال باختصاص الفقهاء، علماً بأنه لم يُعَيَّن، رسمياً «إلا قاضٍ واحد في كل مصر، وأن قليلاً من الفقهاء لَقِيَ تقديراً من ذوي السلطان، والرعاية تُسْبغ على الفقيه، بعد «نضجه»، التعلُّم بنفسه، وليس في «مدارس» لها مناهج معدة من سلطات خاصة حكومية أو غير حكومية، شأنَ النصارى في كنائسهم وأديرتهم.

إن التكوين الفكري للفقيه، في العهود الإسلامية الأولى، تتحكم به، في الدرجة الأولى، البيئة التي نشأ فيها، والتي تُهيِّئ له الاتصال بالناس وبأصحاب

المعرفة والعلماء، وكانت سبل الاتصال بالأماكن الأخرى محدودة بسبب مشاقّ السفر، وقلة المدوَّنات الممكن نقلها، فكان أغلب العلم يُنْقَل شِفاهاً، والمدوَّن قليل، وأغلبه حالات متفرقة، وليست مُدَوَّنات كبيرة، غير أن السُبل المتيسرة للاتصال بالخارج لم تكن مفقودة، إذْ كانت حرية التنقل والرحلات للتجارة أو الاطلاع أو للحج، كما كان بالإمكان مساءلة العلماء بالمراسلة مما يزيد من خبرات العلماء وفي القضايا التي يطلعون عليها، وربما الأفكار التي تعرض عليهم، فتوسع معرفتهم وآفاق تفكريهم. غير أن كل هذه كانت محدودة الأثر في العهود الاولى، وخاصة قبل أن يعم استعمال الورق في منتصف القرن الثاني.

ميدان الفقه في المدينة والكوفة

اشترك فقهاء أهل المدينة والكوفة في بحث القضايا التي تدخل في ما نسميه «الأحوال الشخصية» من زواج وطلاق ورضاعة وميراث، وفي المعاملات المالية من بيع وإجارة ورهن وإقراض وشركات؛ إلا أن فقهاء الكوفة أوْلَوا اهتماماً أكبر من فقهاء المدينة في ملكيات الأراضي، ولعل ذلك راجع إلى أن أحوال الأراضي وملكياتها أهم في العراق، فأراضي الحجاز عشرية، أي ملكٌ صرف لأهلها، تشمل ما ورثه الأنصار، وما وهبه الرسول (ص)، وما أحياه المسلمون. أما الأراضي في العراق، ولا سيّما ما قرب من الكوفة، فبعضها إحياءُ مَوَات، وبعضها إقطاع. ولكن أكثرها أراضي خراج لها أحكام قديمة أبقاها الخلفاء في ما يتصل بالملكية والضرائب، مما لم يكن لها مثيل في الحجاز، كما أنها أراضٍ مفتوحة.

وكان الاختلاف بين فقهاء الكوفة والمدينة واسعاً في الأحكام على القضايا وفي تبريرات هذه الأحكام، وكان الجميع متفقين على وجوب اتباع الأحكام التي نص عليها القرآن الكريم، وهي محددة واضحة ولكنها قليلة لا تتجاوز الأربعين آية تحدد أربعين نوعاً من القضايا، وهي أقل بكثير من الأعداد المتزايدة من القضايا التي يواجهها المجتمع. لذلك أُكملت بأحاديث

الرسول (ص) التي تطبق بعضها أحكام القرآن، ويعالج كثير منها قضايا لم يشر إليها القرآن الكريم. وبالنظر للمكانة المتميزة لأحاديث الرسول (ص) في الأحكام، فقد حرص الفقهاء على إسناد أحكامهم إليه، ولم يكن أهل الكوفة بأقل حرصاً، من أهل المدينة على اتباع ما جاء في أحاديث الرسول (ص) غير أن فقدان الضوابط في صحة الأحاديث أدى في المراحل الأولى إلى كثير من الاختلاق والنسبة إلى الرسول (ص) ما لم يقله:

وأول من بدأ الاهتمام بالاحاديث هو الزهري. غير أن آراءه لم تحظَ بالسيطرة، فازدادت الأحاديث المختلقة لخدمة أغراض مُنَوَّعة، وقادت إلى نمو «علم الحديث» و«علم الرجال» ووصوله عند العرب إلى أرقى مستوى من البحث العلمي. غير أن المبالغة في التدقيق كثيراً ما تُسقط حديثاً قد يكون صحيحاً لأنه لا تتوافر في روايته الشروط التي وصفوها ولم تتجاوز الأحاديث التي أوردها البخاري إلا ثلاثة آلاف حديث، وهو عدد قليل لو راعينا عُمْر الرسول (ص) وكثرة القضايا التي واجهها وعالجها، كما ظهرت قضايا لم يعالجها القرآن الكريم أو الرسول (ص)، فكان الخلفاء والولاة والقضاة يُصْدرون قرارات وأوامر أكثرها «مَحَلِّي» لم يُعَمَّم، فاقتصر تنفيذه على المصر ولم يعترض عليه الفقهاء، ورأى كثيرون أن ذلك أكسبها «شرعية» بالرغم من تعارض كثير منها. وأبدى الفقهاء آراءهم في غير قليل منها، عَدُّوها «سُنَّة» بالمعنى الواسع؛ وأدى ذلك إلى كثير من الإرباك الذي عبَّر عنه بوضوح ابن المقفع في فقرة من «رسالة الصحابة» التي كتبها في أوَّل العصر العباسي كما سنرى لاحقاً.

وكانت لفقهاء أهل المدينة آراء في كثير من القضايا التي واجهتهم أو بحثوها، وتمسك هؤلاء الفقهاء بآرائهم لأنَّهم رأوها قائمة على الأسس القوية ممَّا شهده الصحابة وعاش فيه التابعون مما يطابق سُنَّة الرسول. ويتجلى هذا في كتاب «الموطأ» لمالك بن أنس فقيه أهل المدنية في أوائل العصر العباسي حيث يردد عبارات «الأمر عندنا»، «الأمر المجمع عليه عندنا»، «الأمر الذي عليه

علماء أهل المدينة»، وهو يعبر عن اعتماده على أهل المدينة وعلمائها أكثر مما على الاحاديث النبوية التي لا تجاوز في الموطأ السبعمائة حديث.

أما فقهاء الكوفة فإنهم لم يناقشوا المكانة المتميزة لأحكام القرآن الكريم ومقررات الرسول (ص)، التي كانوا يعرفون كثيراً منها ممن نزل بهم من الصحابة والتابعين، وممن زار منهم المدينة، وهم يدركون القضايا المشتركة بينهم وبين أهل المدينة، وإنما يرون أنه ينبغي أن تقدر آراؤهم وأفكارهم، ولا يقتصر دورهم على ترديد آراء فقهاء المدينة، إذ أن مستواهم الفكري وإخلاصهم وتفكيرهم ليست بأوطأ ما عند فقهاء أهل المدينة، فلا يصح الانتقاص منهم، إذ أنها قائمة على المصلحة والعقل ولا تُناقِض روح الإسلام.

ومن أوضح ما رُوِيَ في التعبير عن وجهة نظر فقهاء أهل المدينة الكتاب الذي أرسله مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، فقيه أهل مصر يأخذ عليه ما يُفهم من قوله: «بلغني أنك تُفْتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا ببلدنا الذي نحن فيه»، وجاء في هذا الكتاب: «إن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّمر]، وإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن وأُحِلَّ الحلال وحُرِّم الحرام، وعاش رسول الله (ص) بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه، ويُبَيِّن لهم فَيَتَّبعونه، حتى توفاه الله واختار له ما عنده (ص).

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله (ص) بالمدينة، ونزول القرآن بها عليه بين ظَهْرَيْ أصحابه وما علمهم الله منه، وأن الناس صاروا به تبعاً لهم، فكما ذكرت.

وأما ما ذكرت من قول الله عز وجل ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة]، فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجندوا الاجناد، واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظَهْرانَيْهم كتاب الله وسنّة نبيه، ولم يكتموهم شيئاً علموه. وكان في كل جند منهم طائفة يُعَلِّمون كتاب الله وسنّة نبيه، ويجتهدون برأيهم في ما لم يفسره لهم القرآن والسنة، ويقدمون عليه أبا بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة مُضَيِّعين لأجناد المسلمين، ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير بإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه، فلم يتركوا هذا القرآن أو ما عمل به النبي (ص)، أو ائتمروا فيه بعده إلّا أعلموه. فإذا جاء وعَمِلَ به أصحاب رسول الله (ص) بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا، لم يأمروهم بغيره، فلا نراه يجوز للأجناد المسلمين أن يُحْدِثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله (ص) والتابعين لهم حين ذهب العلماء وبقي منهم من لا يشبه من مضى، مع أن أصحاب رسول الله (ص) اختلفوا في الفتيا في أشياء كثيرة، ولولا علمي أن قد علِمْتَها لكتبتُ بها اليك.

ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله (ص) سعيد بن المسيب ونظرائه، أشد الاختلاف. ثم اختلف الذين كانوا بعدهم بالمدينة وغيرها، ورأيتهم يومئذ في الفتيا ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الله، فكان من خلاف ربيعة لبعض ما مضى ما عرفت وحضرت، وسمعت قولك وقول ذوي الرأي من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبد الله بن عمر، وكثير بن فرقد، وغيرهم كثير ممن هو أهم حتى اضطرك ما كرهوه من ذلك إلى فراق مجلسه، وكان يكون من ابن شهاب اختلاف إذا لقيناه وإذا كاتبه بعضهم، وربما كتبت

إليه في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها، فهذا الذي يدعو إلى ترك ما أنكرت تركي إياه.

ثم ذكر عدداً من القضايا التي أنكرها مالك على الليث، ومنها صلاة الجمعة في يوم مطر، وشهادة الشاهد، ويمين صاحب الحق، وصَدَاق النساء والإيلاء، وصدقة الخليطين من المال، وحظ الفارس من الغنيمة، يقول: «قد بلغنا عنكم أشياء والفتيا مستكرهة»[1].

(١) المعرفة والتاريخ للنسوي ١/ ٦٨٣ ـ ٦٩٥، أعلام الموقعين لابن الجوزي ٣/ ٩٤ ـ ١٠٠.

الفصل العشرون

عمر بن عبد العزيز والتدوين

الكتابة والتدوين

اعتمد الرسول (ص) على الاتصال الشخصي في نشر الدعوة وتوضيح معالم الدين وتنظيم العلاقات بين المسلمين في مكة وفي المدينة، فكان يستقبل الناس في المسجد، ويزور العشائر في مساجدها ويصلي فيها و يتصل باهلها، وتتم هذه الأعمال بالكلام والمشافهة وليس بالكتابة والتدوين، وحتى آيات القرآن الكريم كانت تُلَقَّن شفاهاً فيسمعها المسلمون ويحفظونها.

كانت الكتابة معروفة عند العرب منذ أزمنة قديمة، فهم الذين ابتدعوا الكتابة بالحروف دون المقاطع والجمل. وفي القرآن الكريم ذِكْرٌ للكتابة وأدواتها كالرق والقرطاس والمداد والقلم والسجلات، وأَمْرٌ بكتابة بعض المعلومات والرسائل والمواثيق.

وكان الرسول (ص) لا يعرف الكتابة ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت] غير أنه كان يقدر الكتابة ويستخدمها، وكانت الكتابة عند أهل المدينة من شروط الكمال. وذكرت المصادر كُتَّاباً استعملهم، وسمَّتْهم كثير من المصادر «كُتَّاب الوحي» و«كُتَّاب الرسول» والتعبير الأول يدل على أنهم كانوا يكتبون القرآن الكريم، غير أن سياق الحوادث يدل على أن عملهم كان أوسع من ذلك لأن عددهم كان كبيراً، يتجاوز العشرين، ولم يعرف أنه كانت للقرآن نُسَخٌ مكتوبة، بدليل أنه لما جُمع

القرآن كان بعضه مكتوباً على مواد مُنَوَّعة من ألواح العظام ولِحاء الأشجار، وبعضه جمع من ذاكرة الأفراد، وكان الاعتماد الأكبر على «الحفاظ» فالراجح أن هؤلاء «الكتاب» لم تكن لهم مناصب رسمية ثابتة، وإنما يقومون بعملهم تَبَعاً لما يطلبه الرسول (ص)، ولعل في الكثير أحكاماً في الأمور المالية والجبايات ومنها «الصحيفة الصادقة»، و«صحيفة العقل»، و«فكاك الأسير»، و«الرهط»، وما ورد في عدد من كتبه التي وجهها إلى أفراد وجماعات في أمر الضرائب[1].

ازدادت أهمية الكتابة بعد توسع الدولة واستقرار تنظيماتها، ورافق ذلك تثبيت دواوين لعدد من متطلبات الدولة ولا سيّما الخراج وجبايته وعطاء الجند وتوزيعه، فضلاً عن عدد من المتطلبات الأخرى، وكان في مركز كل اقليم، وربما في أقسامه دواوين فيها عدد من العاملين المدربين على العمل.

ولا بد أن الخلافة كان لها ديوان تَحْفَظُ فيه نُسَخاً من الكتب والأوامر والأحكام التي يصدرها الخليفة، ويُرسل عدد منها إلى ولاة الأقاليم أو يتسلَّمُها منهم، وذكرت المصادر أسماء من كان «على الرسائل»، و«على الخاتم»، لكل من الخلفاء الامويين[2]، وكلهم عرب إلا القليل، وأكثرهم من أهل اليمن ومن ذوي المكانة، وتدلُّ أسماء هذه الأعمال أن من كان على الرسائل يقوم بكتابتها، وربما بإنشائها منسجمة مع متطلَّبات الخليفة، وأن الذي على الخاتم يصدِّقها، وربما كان المسؤول عن حفظها، ولعل الرسائل الكثيرة التي نقلتها المصادر منقولة من محفوظات الدواوين، ولعل منها أيضاً ما وصلنا من قرارات القضاة، مما أورد كثيراً منها وكيع في كتابه «أخبار القضاة»، وهي «حالات قد يكون صدور أي منها سابقة تُلْزم من يتلوهم اتِّباعَها، إلا أنها منوعة ومتفرقة لا ينتظمها إلا خيطٌ من التوجه العام في الأدلة، وقد يكون غير متناسق، أو متعارض مع ما في الأماكن الأخرى. ولم يكن في الدولة مرجع عام رسمي

---

(١) انظر: «دبلوماسية الرسول (ص) لعون الشريف القاسم».

(٢) انظر القائمة في كتابنا «دراسات في الادارة الإسلامية».

«مقنَّن» ينظم الأحكام التي يصدرها أفراد القضاة المتباينون في خلفياتهم وآرائهم وتطبيقاتهم.

تدوين المعارف والعلوم

كانت الرواية الشفهية وتناقل العلوم بالحفظ هما الشائعين في معظم ميادين المعرفة، ومن عوامل ذلك قلة وغلاء مواد الكتابة كالبردي والأدم، أو صعوبة حفظها كألواح الطين. ولا ريب في أن للحفظ مزايا، وإن كان فيها بعض العيوب وأبرزها آفة النسيان وصعوبة الضبط الحرفي لما يحفظ.

وتَذْكُر عدة روايات أن الرسول (ص) لم يأذن بكتابة أحاديثه، وأنه قال «لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، ومن كتب شيئاً غير القرآن فليَمْحُه»[1]، ويُرْوَى أن عمر بن الخطاب حضَّ على تعلُّم القرآن، وعلى عدم تدارس غيره، لأن مثل هذا سبب تفرق أهل الأديان الأخرى، ويُرْوَى أنه قال «أمثناة كمثناة اليهود»[2].

غير أن أهمية الكتابة، في الضبط والحفظ والتدوين[3]، دفعت البعض إلى تدوين بعض ما يسمعه متفرقاً، أو في دفاتر. وكان مما دفع عدداً من التابعين إلى إباحتها والحض على التدوين، ومنهم سعيد بن المسيَّب، وعروة بن الزبير، وعطاء، وسعيد بن جبير، والشعبي، وأبو قلابة[4].

وكان الفقه، شأن غيره من المعارف، يُنقل أيضاً شِفاهاً بالاتصال الشخصي مع الفقيه صاحب الرأي، ويجري الحفاظ على معانيه ومحتواه دون حرفيته، ولم تُدوَّن هذه الاراء في كُتُب قبل أن يُدَوِّن مالك موطَّأه، الذي وصلنا بعدة روايات متباينة في مقدارها، دون أن يكون لها نُسخةٌ رسيمة واحدة معتمدة.

---

(١) سنن الترمذي، النووي: شرح مسلم ١/٢٤٦.
(٢) سنن الدارمي ١/٩٩، ابن عبد البر: جامع بيان العلم ١/٤٠، السيوطي: تدريب الراوي: ٤٠، وانظر ابن سعد ٣/٣٥٣.
(٣) انظر: تقييد العلم للخطيب.
(٤) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا «دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام».

حرصه على جمع الوثائق

حرص عمر بن عبد العزيز على الحصول على الوثائق القديمة المتعلقة بالإدارة والمالية فيما يتعلق بالصدقات: يروي محمد بن عبد الرحمن الأنصاري يقول: «لما استُخلِفَ عمر بن عبد العزيز، أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله (ص) في الصدقات، وكتاب عمر بن الخطاب، فوجد عند آل عمرو بن حزم كتاب رسول الله (ص) إلى عمرو بن حزم في الصدقات،وَوَجَد عند آل عمر كتاب عمر في الصدقات مثل كتاب رسول الله (ص)، ثم ذكر نص الكتاب، وهو مفصل استوعب قرابة ثلاث صفحات (٣٥٨ ـ ٣٦٠)، وذكر القاسم بن سلام بعد ذلك، «ثم ذكر سائر أنواع الصدقة في هذا الحديث، وستأتي في مواضعها ان شاء الله[١]».

ويبدو أن هذا الكتاب وصل عمر بن عبد العزيز عن طريق الزهري، فقد ذكر القاسم بن سلام «نسخة كتاب رسول الله (ص) وكانت من آل عمر بن الخطاب، قال ابن شهاب أقْرَأَنِيها سالم بن عبد الله بن عمر[٢]»، وكرر القاسم في ما كتب عن صدقات النقل عن هذا الكتاب.

عمر بن عبد العزيز وتدوين السُّنَّة وتعميمها

أدرك عمر بن عبد العزيز أهمية الحديث والسُّنَّة، وتقدير الناس لمكانتهما وأن الاعتماد في تناقلها على المشافهة يُعَرِّضها للتحوير والاختلاق المربك الخطر على الناس والدولة، وقدر أخطار الإرباك الذي يسببه كل ذلك، فعمل على معالجتها، ووردت في ذلك أخبار متفرقة يمكن تصنيفها إلى أبواب هي: جمع الحديث، وتدوين السنّة وتنسيقها وتعميمها، ووردت إشارات يظهر منها أنه استعان بواليه على المدينة أبي بكر عمرو بن محمد بن حزم في متابعة هذا العمل، واعتمد في جمع مادة معلوماتها على عدد من أهل المدينة لم يشغل أيٌّ

(١) الأموال ٣٥٨ ـ ٣٦٠.
(٢) الأموال ٣٦٠.

منهم عملاً «رسمياً» في الدولة وإدارتها، وإنما كانت لهم صلات وثيقة «بالشعب» وأحواله ويستمدون مكانتهم من علمهم ومواهبهم وتقدير الناس لعلمهم، أما الولاة والعمال فعملهم مجرد التنفيذ ومبادرة عمر بن عبد العزيز يُكسِب تنظيمها قوة لأنها صادرة بأمر من الخلافة مما يجعلها تسمو على الأوامر والتنظيمات التي يصدرها الولاة ممن سلطاتهم مقصورة على الإقليم الذي يَلُونَه دون أن يَعُمَّ الأقاليم كافةً أحكام عمر بن الخطاب التي اكثرها كانت عامة في الدولة.

تدوين الحديث

يَروي عبد الله بن دينار أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن حزم، واليه على المدينة قال: «أنظر ما كان من حديث رسول الله (ص)، أو سُنَّة ماضية أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن فاكتبه، فإني قد خفت اندراس العلم وذهاب أهله»[1]. وروى الكتاني ما يشبه ذلك فقال: إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله على المدينة قال: «أُنظر ما كان عندك، أي في بلدك، من سنّة أو حديث، فاكتبه، فإني خِفتُ اندراس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي (ص) ولْيُفْشُوا العلم، ويجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سِرًّا، فتُوُفيَ عمر بن عبد العزيز قبل أن يبعث إليه أبو بكر بما كتبه، وكان عمر قد كتب بمثل ذلك أيضاً إلى أهل الآفاق وأمرهم بالنظر في حديث النبي وجمعه»[2]، ولم يذكر الكتاني مصدر كلامه الذي يختلف عن قول ابن سعد من حيث أنه يبرر طلبه بخشيته من دروس العلم وذهاب العلماء، وأن عمر كتب بمثل ذلك إلى أهل الآفاق، ولكنه توفي قبل أن يتم ابن حزم عمله، وسنغفل تحليل رواية الكتاني لعدم وجود معلومات تؤيد ما اختلف فيه عن كلام ابن سعد.

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ٢/ ١٣٤، ٨/ ٣٥٣، سنن الدارمي ١/ ١٠٤ «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» لابن حجر ١/ ١٩٢، «تقييد العلم للخطيب» ١٠٦.

(٢) الرسالة المستطرفة، ٣٤.

حدد عمر بن عبد العزيز لواليه ان يكتب:

١ ـ حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

٢ ـ السُّنَّة الماضية.

٣ ـ حديث عمرة بنت عبد الرحمن.

فأما عمرة بنت عبد الرحمن، فهي أنصارية من بني النجار رُبِّيَت في كَنَف عائشة، وكان ما روته عنها مُعْتَمَداً عند أهل الحديث[١]، وفي رواية،أن عمر بن عبد العزيز طلب من أبي بكر بن عمرو بن حزم أن يسأل عمرة عن أمر فدك[٢]، ولعله وجَّهَ إليها أسئلةً أخرى لم تذكرها المصادر.

ذكر هذا النصُّ أحاديثَ الرسول (ص) مطلقةً دون أن يحدد الجوانب المطلوب تدوين الأحاديث عنها؛ ويَدُلُّ سياق النص أنه طلب تدوين الأحاديث المتعلقة بتوجيهاته العامة وبالتنظيمات والإدارة، علماً بأن ابن سعد يذكر اهتمام عمر بن عبد العزيز بسيرة الرسول (ص) وأنه أمر عاصم بن عمرو بن قتادة أن يحدث بها في الشام بعد أن كان مَنْ سَبَقَ من خلفاء بني مروان يمنعون التحدُّث فيها[٣].

وذكر ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز طلب أيضاً من واليه على المدينة «ليكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب فكتب إليه بذلك». واضح من السياق أن ما طلبه عمر هو الكتاب عن الشؤون الإدارية والتنظيمية، وليس عن حياته الخاصة.

لا بد أن أبا بكر ابن حزم اعتمد في اعداد إجابة على طلب الخليفة عمر بن عبد العزيز على الموثقين البارزين من فقهاء أهل المدينة، الذين لم تذكر المصادر أسماءهم.

---

(١) ابن سعد ٨/ ٣٥٣، المعرفة والتاريخ للنسوي ١/ ٦٤٥، تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ١١٢.
(٢) ابن سعد ٥/ ٢٨٥.
(٣) ابن سعد(الطبقة الرابعة) ١٢٨.

ذكرت المصادر أن عمر بن عبد العزيز أمر بتدوين السُّنَّة[(١)]، وأنه قال «قيدوا العلم بالكتاب[(٢)]، واعتمد في ذلك على محمد بن مسلم بن شهاب الزهري.

الزهري ودوره في تدوين الحديث النبوي

كان لمحمد بن مسلم بن شهاب الزهري دور متميز في تدوين الحديث النبوي، وهو قرشي صهر بني زهرة، نشأ من المدينة، وكانت له صلات طيبة بالخلفاء الأمويين، وقرن بعلمه في جوانب متعددة من المعارف، وفي هذا يقول الليث «ما رأيت عالماً أجْمَعَ من ابن شهاب ولا أكثر علْماً منه، لو سمعته يحدِّث في الترغيب لقلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن الأنساب لقلت: لايعرف إلا هذا، وإن حدث عن الحديث والسُّنَّة فإن حديثه يكون جامعاً»[(٣)]، وعُرِف باطِّلاعه الواسع على سيرة الرسول (ص)، ومعرفته بأحاديثه وسيرته وباطلاعه الواسع على الممارسات الإدارية؛ ويروى أنه أول من وضع هيكل كتابة سيرة الرسول (ص)[(٤)]؛ ورويت عن عدد من العلماء اقوال تؤيد سعة اطِّلاعه وسلامة معرفته في عدد من العلوم الدينية، وأخصها الحديث والسُّنَّة، وقام في كل منها باسهام توجيهي أساسي، قدَّره عمر بن عبد العزيز تقديراً خاصاً وقال فيه: «ما ساق الحديث أحدٌ مثل الزهري»[(٥)].

كان للزهري جهد متميز في تدقيق الحديث النبوي وضَبْطه، وكانت مكانة الحديث وعناية الناس بدراسته من غير ضابط.

وكان الفقهاء غير متفقين على الأحاديث الواجبة الاتِّباع. ويروى أن الزهري

---

(١) ابن سعد٢ ـ ٢/ ١٧٤؛ ٨/ ٣٥٣؛ تقييد العلم للخطيب ١٠٥.
(٢) ابن سعد ٥/ ١٢٣.
(٣) ابن حجر ٩/ ٤٤٩، تذكرةالحفاظ للذهبي١/ ١٠٩.
(٤) انظر بحث الدكتور عبد العزيز الدوري المنشور في كتاب Historians of the Middicant.
(٥) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٤؛ «تقييد العلم» للخطيب ١٠٨، تاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ٢٤٨، تاريخ دمشق، لابن عساكر١١/ ٧٢.

قال: «أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله (ص) من منسوخه»[1]، وكان عمر بن عبد العزيز يُرَجِّح الزهري على غيره حتى قال فيه قولته الآنفة الذكر والتي تؤيد ترجيحه له[2].

من أبرز ما تَمَيَّز به الزهري، في طريقة بحثه، اهتمامه بالأسناد، أي بذكر أسماء من روى عنهم، والتدقيق في روايته، فذكر مالك بن أنَس أنّ «أول من اسند الحديث الزهري»[3].

ويروي الوليد بن مسلم أن الزهري قال: «يا أهل الشام، مالي أرى أحاديثكم ليس لها أزمة ولا خطم» فتمسك أصحابنا بالأسانيد[4] ولم يحدد النص زمن هذا القول الذي يشير إلى أن أهل الشام بدأوا يُعْنَون بذكر الأسانيد بتأثير الزهري الذي لا بد أن عنايته بها سبقتهم.

ويروي ابن سعد أن الزهري قال: «لولا أحاديثُ تأتينا من قِبَل المشرق نكرهها لا نعرفها ما كتبتُ حديثاً ولا أذِنتُ في كتابته»[5]. ويرجع الاهتمام الأول بالأسناد إلى تكاثر اختلاف أقوال تُنْسَب إلى الرسول (ص) على أثر الاضطرابات السياسية. وقيل في ذلك: «لم يكونوا يسألون عن الأسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، ويُنظر إلى أهل البِدَع فلا يؤخذ حديثهم»[6]. والواقع أن عدداً من الأحداث الجِسام الأولى سُمِّيت الفتنة، وأولها مقتل عثمان بن عفان، والثانية الاضطراب الذي حدث بعد موت يزيد، والثالثة ما حدث بعد موت الوليد بن يزيد، وهو

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٤٥.
(٢) ابن سعد ٣/١٦٦ المعرفة والتاريخ للنسوي ١/ ٦٣٧ جامع بيان العلم وفضله ٢١٨، تقدمة المعرفة لابن أبي حاتم ٢٠.
(٣) الكامل لابن عدي ١/ ١٣٩.
(٤) ابن سعد ـ الطبقه الرابعة ١٦٦، المعرفة والتشريح للنسوي، ١٢١.
(٥) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٣٥؛ ٣٨٨ الطبقة الرابعة ١٦٧، «الكفاية للخطيب» الكامل للخطيب ٣٢٢، «الكامل» لابن عده ٣٩؛ «الميزان» لابن حجر، «المدونة» لمالك بن أنس ٣/ ٤٩.
(٦) «المعرفة والتاريخ للنسوي» ١/ ٦٣٩، وانظر كتبه عن الفتن والوضع ما كتبه اكرم ضياء العمري في كتابه «بحوث في تاريخ السنّة المشرفة».

متأخر. والراجح أن المقصود به ما حدث على أثر موت يزيد، وأن الزهري أكد عليه وعمل على معالجته[1].

الزهري والسُّنَّة وتدوينها

ذكرنا أن مالك بن أنس قال: «ما أدركتُ بالمدينة فقيهاً محدثاً غير واحد هو ابن شهاب الزهري»[2]؛ وذكرنا ما أدخله على دراسة الحديث من توجهات أساسية؛ فأما السُّنَّة والفقه، فقد أشاد عدد من العلماء بمكانته ودوره في دراستهم وتوجيهاتهما. قال مكحول: «لا أحَدَ أعْلَمُ بالسُّنَّة منه»[3] وقال قتادة: «الزهري أعلم مَنْ يُعْنَى بالحلال والحرام» وكانا يقولان يوم مات: «ليس أحد أعلم بالسُّنَّة منه»؛ ويروى أن ابن زبالة قال: «أول مَنْ دَوَّن العلم وكتب ابنُ شهاب هذا، فإنكم لا تَلْقَوْن احداً أعلمَ بالسُّنَّةِ الماضية منه»[4].

مفهوم السُّنَّة عند الزهري

كان للسُّنَّة عند الزهري مفهوم خاص عبّر عنه ما رواه ابن سعد عن صالح بن كيسان بقوله: «اجتمعتُ أنا والزهري ونحن نطلب العلم، فقلنا نكتب السُّنَّة، قال: وكتبنا ما جاء عن النبي (ص). قال: ثم قال نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سُنَّة، قال قلت إنه ليس بسُنَّة فلا نكتبه، قال: فكتب ولم أكتب، فأنجح وضيعت»[5].

إن هذا النص يُظهر أن صالح بن كيسان يَقْصُر السُّنَّة على ما جاء عن الرسول (ص) فحسب، أما الزهري فيرى أن تُمَدَّ السُّنَّة لتشمل آراء الصحابة.

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ١٠٩؛ ابن سعد، ٢ ـ ٢/ ١٣٥.
(٢) ابن سعد، ٢ ـ ٢/ ١٣٦، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٦.
(٣) ابن سعد ٢ ـ ٢/ ١٣٥.
(٤) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ١٠٩.
(٥) ابن سعد ٢ ـ ٢/ ٣٥٠، الطبقة الرابعة ١٦٨، «المعرفة والتاريخ» للنسوي ١/ ٦٣٧، ٦٤١، حلية الاولياء لأبي نعيم ٣/ ٣٦٠، «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر ١/ ٨، البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٣٤٤، جامع اخلاق الراوي للخطيب البغدادي ١٧٨.

ومن المعلوم أن تعبير «الصحابة» حدوده غير واضحة، فهو يقتصر عند البعض على من عايش الرسول (ص) مدة كافية تُفْهَم فيها آراؤه وتوجهاته، ويمتد عند البعض ليشمل كل من رأى الرسول وسمعه، ولو مدة قصيرة. لقد رفض صالح بن كيسان الأخذ بكلا المفهومين. أما الزهري، فأراد أن يأخذ بأقوال الصحابة.

وفي سيرة ابن سعد إشارة إلى أن الزهري كان يفضل الاعتماد على المهاجرين والأنصار، أي على الصحابة الأولين، فروى ابن سعد أنهم قالوا له: «زعموا أنّك لا تُحدِّث عن الموالي، فقال: إني لَأُحَدِّث عنهم، ولكن إذا وجدت أبناء المهاجرين والأنصار، أتّكل عليهم فما أصنع بغيرهم»[1].

إنَّ هذا النص يُظهر أن صالح بن كيسان حدَّد السُّنَّة بما جاء عن الرسول (ص). أما الزهري فوسَّعه لِيُدخل فيه ما جاء عن الصحابة، ولعل الزهري لم يبتدع هذا التوسع، وانما تبنى اتجاهاً كان قائماً في المدينة وهو يقدم مبدأً لتعزيز مكانة أهل المدينة ومنهم أكثر الصحابة الذين عَدَّ الزهري ما جاء عنهم سُنَّة، إلا أنه يُعطي أيضاً مَنْفَذاً لإبراز الموالي وأهل الأمصار الذين أقام في كل منهم عدد من الصحابة. فرأى صالح بن كيسان يَقْصُر السُّنَّة على أهل المدينة لأن الرسول (ص) عاش فيها ولم يَخْرُجْ منها حتى وفاته. أما الزهري، فتوسع ليمد مفهومها إلى الصحابة حيثما كانوا، وبذلك يُشرك أهل الأمصار علماً بأن تعبير «الصحابة» غير دقيق التحديد، فهو يقتصر، عند البعض، على من لازم الاتصال بالرسول (ص) ويمتد عند البعض إلى من أقرَّ عنده بالإسلام حتى إن كان لقاؤه قصيراً ومؤقّتاً، أي أن المفهوم الآخير يُدخل في الصحابة الأعداد الكبيرة التي أسلمت بعد فتح مكة ولم تقم في المدينة. وبذلك فإنَّ فيهم عدداً كبيراً من رجال مختلف أرجاء الجزيرة[2].

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ٢/ ٣٥٣ «المعرفة والتاريخ» للنسوي ١/ ٦٣٧، ٦٤١.

(٢) عن تحديد المقصود بالصحابة، انظر: المقدمة التي كتبها الدكتور اكرم ضياء العمري لكتاب الطبقات لخليفة بن خياط ٤٢ ـ ٥٦.

لم يذكر النص أن الزهري أدخل في السُّنَّة آراء التابعين ممن لم يَلْقَ الرسول (ص) وإنما عُرِفوا بسلامة عقيدتهم وصفاء فهمهم للإسلام ومراعاتهم له في آرائهم وأقوالهم، وهذا المفهوم يدخل كثيراً من الآراء التي سادت في بعض الأمصار وكانت تخالف ما ساد في المدينة، وكان عليها مرتكز الخلافات الفقهية بين مدرسة أهل المدينة ومدرسة أهل العراق والشام خاصة، وهي التي كانت موضوع عدد من الدراسات في «اختلاف الفقهاء» ووصلتنا منها معلومات منذ أواسط القرن الثاني وظهرت في كتابات لأبي يوسف والشيباني ومالك بن أنس.

لقد قبل الناس تأييد صالح بن كيسان والزهري أنَّ ما جاء عن الرسول (ص) هو السُّنَّة فكان ذلك دافعاً جديداً لدراسة الحديث وتَنَاقُله وتنظيم المرويات فيه على أبواب الفقه ليكون دليلًا للفقهاء.

وكانت مكانة الحديث في الفقه من أسباب اختلاق الأحاديث وعدم ضبطها، وقد لاحظ الزهري ذلك، ولا ريب في أن لاختلاف الأحاديث أسباباً أخرى وقد دفَعَ توسعها وأخطارها إلى نمو علم الحديث الذي وصل فيه العرب إلى غاية من الدقة.

إن الأهمية المتميزة لأحاديث الرسول (ص) وأفعاله لم تُفْلح في تغيير سمات الأبحاث الفقهية وكُتُبها من الاهتمام بذكر الحالات الخاصة والممارسات المقبولة المعمول بها، وإبداء الآراء العقلية في دعمها مع قلة إيراد أحاديث في دعمها وعدم التدقيق في أسانيد الأحاديث التي توردها، وخاصة عند بحث النُّظُم المالية التي وضعها الخليفة عمر وأقرها المسلمون وساروا عليها. ومما يوضح هذا ان كتاب الآثار لأبي يوسف الذي يذكر ١٨٩ حديثاً نبوياً و٤٧٢ قولاً للصحابة و٥٥٠ للتابعين، وأن الشيباني يورد، في كتابه «الآثار»، ١٣٠ حديثاً نبوياً، و٢٨٤ قولاً للصحابة، و٥٥٠ للتابعين، وأن مالكاً في موطّأه، برواية الشيباني، يذكر ٤٢٩ حديثاً نبوياً، و٦٩ قولاً للصحابة، و١١٢ للتابعين، و١٠ للآخرين.

لا ريب في أن نُظُم الحياة الاجتماعية والادارية والمالية توسَّعت بعد زمن الرسول (ص)، وإقرار المسلمين بما قرره الخلفاء والإداريون مخلصو النية، بأنها شرعية على أساس إجماع المسلمين إقرارها وعلى مطابقتها للمصلحة «وما رآه المسلمون حسناً فهو حسنٌ عند الله».

تدوين السُّنَّة وتعميمها

يَروِي مالك بن أنس أنَّ «أول من دوّن العلم ابن شهاب» (الزهري)، ويقول الزهري: «أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السُّنَّة، فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً»[1]. ويَرْوِي معمر بن الزهري يقول: «كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء فرأينا ألّا نمنعه أحداً من الناس»[2]، ولا ريب في أن المقصود بالتدوين ليس مجرد التقييد والتسجيل اللذين كانا معروفين منذ زمن الرسول (ص)، وإنما هو التسجيل الشامل المنظَّم، وهو عمل يمثل بداية تطور واسع في الحركة الفكرية، إذ لا يُقْصَر العِلْم على مجرد الاتصال بالعلماء والسماع منهم والرواية الشفهية عنهم، وإنما يَضَع إلى جانبها الاعتماد على المدوّن المكتوب الذي يقوم على الضبط، ويقلل من الآثار السلبية المحتملة للاعتماد على السماع واحتمال عدم ضبطها، أو التصرف فيها بالزيادة والنقصان والتشويه. والتدوين يقدم مرجِعاً ثابتاً قابلاً للتوسُّع ليتيسَّر نقل المدوَّن إلى أماكن متعددة قد يكون بعضها بعيداً، كما أنه يحفظ للأجيال مرجعاً ثابتاً[3].

بدأ التدوين بأمر رسمي من السطات «أُكْرِه عليه» المدونون، وهم يؤمنون بأن نقل العلم بالسَّماع يزيد من مكانة العلماء، ولكنه يكون محدوداً، إذ لا يمكن أخذ علمهم إلا بالاتصال بهم، فالتدوين بدأ لخدمة أهداف السلطة وليس

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ٧٦؛ وانظر ١/ ٧٣.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ٢/ ١٣٥، جامع بيان العلم وفضله؛ ١/ ٧٦، المعرفة والتاريخ للنسوي ١/ ٣٣.
(٣) انظر كتابنا «دراسات في نشأة الحركة الفكرية وتطورها في صدر الإسلام».

لمجرد إنماء العلم. ولا شك في أن هذا العمل يخالف ما عُرِف به عمر بن الخطاب من كراهة التدوين والحث على الاتصال الشخصي، عدا أوامر الدولة.

اختار عمر بن عبد العزيز للتدوين فقيهاً، هو الزهري وهو من أهل المدينة دون غيرها من الأمصار، ولا ريب في أن مرجع هذا الاختيار تقديره للزهري وعلاقته بالمدينة وتقديره للعلم فيها ولمكانة علمائها، فقد قضى بعض سني عمره الأولَى وبعدها في أوائل رجولته سبع سنوات أتاحت له معرفة واسعة بأهلها، واتصالاً مباشراً بعلمائها، غير أنه كانت له صلة مباشرة بأمصار أخرى ومنها الفسطاط، كما أنه قضى في الشام سنوات، وخاصة بعد عزله عن ولاية المدينة ثم في خلافته التي قضاها كُلَّها في بلاد الشام ولم يغادرها إبَّان هذه الخلافة، ثم أن عمر بن عبد العزيز لا بد انه كان يعرف ازدهار الفكر عامة، والحديث والفقه خاصة في الكوفة، وفي البصرة، ولا بد أن اختياره العلماء من أهل المدينة يرجع إلى إدراكه مكانة علمائها وآفاقهم العلمية التي تنسجم مع ما يهدفه.

والواقع ان المدينة كانت مركز الدولة منذ هاجر إليها رسول الله (ص)، وكان فيها مقام الخلفاء الثلاثة الأولين، وهي ألصق بأعمال وتنظيمات الرسول (ص) الذي ظل مقيماً فيها حتى وفاته، ولم يغادرها إلا في فترات قصيرة عندما كان يخرج للغزوات التي قلت بعد فتح مكة، واستقبلت المدينة الوفود من مختلف أرجاء الجزيرة يعلنون إسلامهم ويعرضون على الرسول (ص) أحوالهم، ويتلقون منه التوجيه بمرأى من اهلها.

وذكر أبو عبيدة أن عمر بن عبد العزيز أمر الزهري كتابة السُّنَّة في مواضع، والصدقة في كتاب مفصل في من تُصْرف لهم الصدقات[1]، وذكر أبو عبيد أحكاماً لعمر بن عبد العزيز نص في بعضها أنها من أبي بكر بن حزم، وهي كتابه عن الرسول (ص) وعمر في الصدقات[2]، ولم يذكر بعضها، ومنها أنه لا

---

(١) الأموال لابن سلام ٥٧٦ ـ ٥٧٨.
(٢) الأموال لابن سلام ٣٥٨ ـ ٣٦١.

صدقة في البقر الحوامل، ولا في الخيل ولا في الدقيق، ولا في العسل، ولا من الأقحاص[1]، وانه «كان من سجله يؤخذ من القطنية، ومن القمح والشعير، والسلت، والحمص»[2].

لم يصلنا كتاب الزهري في السُّنَن الذي عَمَّمَه عمر بن عبد العزيز على الأقطار، ولم يذكر أحد وصف محتواه، ولعل القطعة الطويلة، التي نقلها أبو عبيد في كتاب الأموال عن الزهري في الصدقات، هي بعض هذا الكتاب ولا نعلم مدى مطابقة ما جاء فيه مع الممارسات التي كانت سائدة، أو التعديلات التي اقترحت، أو ماذا فعل عمر بن عبد العزيز للأخذ بها لتوحيد النظم المالية أو بعض جوانبها.

إن هذا الكتاب عمل «رسمي» أمر به الخليفة وأقرَّه وأعدَّه عالم موثق عند الناس ومرضي عنه من الخلافة، وهو أول عمل شامل تقوم به الخلافة في شؤون السُّنَّة والتشريع ولم تذكر الأخبار أنه كان موضع انتقاد أو موضع رفض، ولكن يبدو أنه لم يطبق، وبذلك كان عملاً فكرياً أكثر مما كان دليلاً عملياً واقعياً. ولعل من أسباب طمس أخباره أن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يبق طويلاً في الخلافة، وأن من تلاه من الخلفاء لم يحرصوا على متابعة تنفيذ قراراته وتثبيت أحكامه، فكان أثر الكتاب محدوداً، وأهميته فكرية، وظل الناس مختلفين في الأحكام حتى أوائل العصر العباسي؛ وقد عبَّر عن هذا الاختلاف وأخطاره ابن المقفع في رسالة الصحابة التي قدمها للخليفة أبي جعفر المنصور، مُبَيِّناً أخطار اختلافاتها وضرورة توحيدها حيث قال: «ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي، اختلاف الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال، فيُسْتَحلُّ الدم والفرج بالحيرة وهما يُحَرَّمان بالكوفة، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة، فيُستحل في ناحية منها ما يُحرَّم في ناحية أخرى، غير أنه،

(١) الأموال لابن سلام ٣٨٠، ٤٦٦، ٤٩٨، ٩٩٤.
(٢) الأموال لابن سلام ٤٧١.

على كثرة ألوانه، نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم، يقضى به قضاة جائز أمرهم وحكمهم، مع أنه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجَّ بهم العَجَب بما في أيديهم والاستخفاف بمن سواهم فأقحمهم ذلك في الأمور التي يَتَبيَّغ بها من سمعها من ذوي الألباب.

أما من يَدَّعي السُّنَّة فيجعل ما ليس له سُنَّةً سُنَّةً حتى يبلغ بذلك به إلى أن يسفك الدم في غير بَيِّنة ولا حجة على الأمر الذي يزعم أنه سُنَّة، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول أنه هريق فيه دم على عهد رسول الله (ص) أو أئمة الهدى من بعده. وإذا قيل له أيّ دم سفك على هذه السُّنَّة التي تزعمون، قالوا فعل ذلك عبد الملك بن مروان، أو أمير من أولئك الأمراء. وأما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام عن رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسملين قولاً لا يؤاخذه عليه أحد من المسلمين، ثم لا يَسْتوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه، وهو مقرٌ أنه رأيٌ منه لا يَحْتَجّ بكتاب ولا سنّة»[1].

يظهر أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتدوين السُّنَّة ونشرها في الأقطار توجيه الخلافة وهي السلطة العليا في الدولة للحركة الفكرية في الميادين الخاصة التي تراها، وكانت هذه الحركة قد نشطت ووجدت لها دوافع جديدة بظهور الإسلام وحثه على النظر والبصر في مظاهر الكون وأحوال المجتمع لمعرفة عظمة الله والاستدلال على قدرته والتوجُّه لطاعته وشغلت الفتوحُ الخلافة، وكثيرٌ من الناس أكثرُ اهتمامهم بالأمور العسكرية.

إن تدوين السُّنَّة يشمل تنسيقاً لأحكامها وتنظيمها وتوحيدها ييسر لها أن تكون مرجعاً اساسياً شاملاً ثابتاً، وتوزيعها على الأمصار بهدف توحيد النُّظُم المتفرقة. وحدوثُها من الخلافة يُكسبها مكانةً قوية، ويَحُدُّ من فوضى الاجتهادات الشخصية. وهو عمل قَلَّ أن تم في بلد آخر، وهو أقرب شَبَهاً بما عمله جستنيان في مدوَّنته ونابليون في مجموعته. ومهما كانت عيوب هذا

---

(١) رسالة الصحابة١٥٠.

التوحيد الرسمي، فهو لا يَطْغَى على الفوائد العامة في التوحيد والحد من التشتت والتفرق المتولّدين من ترك الأحكام إلى اجتهادات الأفراد الذين، مهما بلغ إخلاصهم وعُمْقُ فهمهم، فإنَّه محدودو الأثر. ومع أن مَنْ تلاه لم يتابع تنفيذ عمله، إلّا أنَّ تفكيره في الأمر، والقيام بتنفيذه من أعظم ماقام به عمر بن عبد العزيز ومن أجدر ما يخلّده كيان الدولة موحَّدةَ النظام العادل.

المحتويات